ترجمة : عبد الله حبه
رسوم يانا تشايكوفسكايا

Юрий Казаков

РАССКАЗЫ

На арабском языке

Ю. Казаков
Рассказы
Редактор Медведева Ж. И.
Перевод сделан по изданию
«Осень в дубовых лесах»:
Рассказы, повести
— М.: Современник, 1983.

ИБ № 5761. Редактор русского текста *Ж. Медведева*. Контрольный редактор *Э. Рысь*. Художник *Я. Чайковская*. Художественный редактор *А. Гомчинская*. Технические редакторы *Л. Прянчикова, Н. Должикова*. Сдано в набор 23.11.89. Подписано в печать 21.09.90. Формат 84×108¹/₃₂. Бумага типографская. Гарнитура каирская. Печать высокая. Услови. печ.л. 14,28. Усл.кр.-отт. 14,92. Уч.-изд.л. 16,46. Тираж 1925 экз. Заказ № 1884. Цена 2 р. 10 к. Изд. № 6650. Издательство «Радуга» В/О «Совэкспорткнига» Государственного комитета СССР по печати. 119859, Москва, ГСП-3, Зубовский бульвар, 17. Ордена Трудового Красного Знамени Московская типография № 7 «Искра революции» В/О «Совэкспорткнига» Государственного комитета СССР по печати. 121019, Москва, пер. Аксакова, 13.

© حقوق الترجمة الى اللغة العربية محفوظة لدار ورادوغاء ، ١٩٩٠
طبع فى الاتحاد السوفييتى

К $\frac{4702010201-642}{031(01)-90}$ 060—90

ISBN 5-05-002855-8

سيرة حياتي

(كتبها المؤلف خصيصا لمجلة «مؤلفون معاصرون» الانجليزية)

السيد رئيس هيئة التحرير

اشكركم على نيتكم في ادراج سيرة حياتي في مجلة «مؤلفون معاصرون» . ولن اجيب عن اسئلة الاستمارة لانني لا افهم اللغة الانجليزية ، وبالاضافة الى ذلك ، فان المعلومات التي ابلغكم بها عن نفسي ستكون ، في اغلب الظن ، جوابا ايضا عن اسئلة الاستمارة .

وفي نيتي التحدث فقط عن نشاطي الادبي لان هذا ، في جوهر الامر ، يمثل حياتي في غضون الاعوام العشرة الاخيرة .

في عام ١٩٥٣ دخنت نصف علبة سجاير على سلم المعهد الادبي قبل ان اتجرأ على ولوج القسم التعليمي فيه . وآنذاك اجتزت مسابقة الالتحاق بالمعهد . وكانت المسابقة كبيرة جدا ، بمعدل مائة شخص تقريبا للكرسي الواحد . وطبيعي انني شعرت بالقلق البالغ . وكان الجميع يمرون بي صعودا ونزولا ، ولدى نزولهم ندر ملاحظة بشائر السعادة على الوجوه وفي نهاية المطاف صعدت الى فوق انا ايضا ، فابلغوني بانني قبلت . وهكذا اصبحت طالبا في المعهد الادبي وكنت عهد ذاك قد كتبت قصتين او ثلاث قصص . ربما يبدو لكم هذا غريبا ، بيد ان القصص الاولى التي كتبتها تناولت فيها الحياة الامريكية . وبهذه القصص التحقت بالمعهد . ويومذاك ، وحين طالع استاذي المشرف قصصي ، انتزع مني الابد الرغبة في الكتابة عما لا اعرفه .

لقد اراد والداى ، وهما من بسطاء الناس العاملين ، ان اصبح مهندسا او طبيبا ، لكنني بادئ ذى بدء اصبحت موسيقيا ، ومن ثم اصبحت كاتبا . ولا يصدق ابي وكذلك امي حتى الآن بانني كاتب حقيقي . لان الكاتب بالنسبة لهما هو انسان مثل تولستوى او شولوخوف .

وآنذاك ، في السنة الاولى بالمعهد ، وكنت قد بلغت حينئذ سن الخامسة والعشرين ، وحين اصبح رفاقا لي أناس احدث مني سنا ، لكنهم كانوا شعراء وناثرين حقيقيين ، وكانت اعمالهم تنشر فعلا ، — آنذاك فزعت . وادركت بانني لا اعرف شيئا ، وفيما اذا سيتيسر لي عموما نشر اعمالي . واردت يومذاك حتى ترك المعهد . ثم سرعان ما زال تهيبي ، والاكثر من ذلك — لقد تحول الى نقيضه . وصرت افكر بانني ساصبح حتما كاتبا مرموقا . وفي البداية وجب علي استيضاح من كان عموما يكتب افضل من الجميع . وانصرم عامان عكفت فيهما فقط على المطالعة . كنت اطالع وفق المنهج الدراسي وبدونه . وبعد مطالعات وتأملات مديدة خلصت الى استنتاج مفاده ان كتابنا الروس كتبوا افضل من الجميع . وقررت ان اكتب على منوالهم . ولم اتعلم من اى احد على وجه الخصوص ، بل كنت التقط فحسب شيئا ما عاما ، يتميز به جميع خيرة كتابنا ، وشرعت بالعمل .

كنت مقلا في الكتابة . وعموما فان كتابنا الروس كانوا وما برحوا مقلين في الكتابة . ومثلا ، ان المعطيات القائلة بان وليام سارويان كتب في غضون ١٠ اعوام ١٥٠٠ قصة وعشرات الروايات القصيرة والطويلة تبدو لنا شيئا لا يصدقه العقل . وانا لا اتذكر كم كتبت حتى يومنا هذا ، لكنني اظنه يعادل زهاء اربعين قصة .

وسرعان ما (بعد القصص الاربع او الخمس الاولى) صاروا يعدوني من النوابغ . وتنبأوا لي بمستقبل باهر . ووصفني الكثيرون منذ ذلك الوقت بانني خير كاتب قصة في عصرنا . ولا بد من التساهل ازاء حداثة سننا عهد ذاك والوسط الطلابي عموما . فالطلاب يحبون المبالغة دائما ، سواء في ابداء المحبة ام البغضاء . ولحسن الحظ فان جميع هذه الالفاظ الفخمة لم

تلحق بي الاذى ، اى انها لم ترغمني على التعامل بلا حرص مع عملي .

وكنت طوال هذه الاعوام كثير الاسفار . وعموما يتراءى لي انني عشت حياة طيبة ، وان على الكاتب ان يعيش مثل هذه الحياة . ومارست تسلق الجبال والصيد وصيد الاسماك . وكنت كثير التجوال مشيا على الاقدام ، وامضي ليلتي كيفما اتفق ، واواصل التطلع والاصغاء والحفظ في الذاكرة . وقد عاتبني كثير من النقاد فيما بعد زاعمين انني أجد في البحث عن شظايا الماضي . وما كانوا على حق لانهم لم يروا ما رأيته انا . . .

٢٣ فبراير ١٩٦٤

محطة صغيرة



كان الخريف باردا وغائما عابسا . واسودت المحطة الواطئة الصغيرة المبنية من جذوع الاشجار بسبب الامطار . واستمرت الرياح الشمالية الشديدة في الهبوب على مدى يومين ، مولدة الصفير في نافذة العلية ، والعويل في جرس المحطة ، ومؤرجحة بشدة الاغصان العارية لاشجار البتولا .

وعند المربط المكسور وقف حصان مدليا راسه بصورة واطئة ، ناشرا قوائمه المتورمة . فيما كانت الريح تبعد ذنبه جانبا ، وتهز عرفه ، والتبن في العربة ، وتشد الاعنة . لكن الحصان لم يرفع راسه ، ولم يفتح عينيه . لابد وانه كان يفكر في امر خطير ما ، او يستغرق في غفوة .

وجلس بالقرب من العربة فوق حقيبة فتى اشعث الشعر ذو وجه مجدور ، يرتدى معطفا جلديا ، ومحياه خشن وثقيل ومسطح . كان يدخن سيجارة رخيصة بعصبية ، ويبصق ويمسح ذقنه بيد ذات اصابع قصيرة محمرة ، محدقا في الارض بتجهم .

ووقفت الى جانبه فتاة بعينين متورمتين ، وقد تدلت خصلة شعر من تحت منديل الراس . ولم تعد تبدو على وجهها الشاحب والتعب امارات الامل او الرغبة . لقد بدا باردا وينم عن اللامبالاة . وكان يكمن في عينيها القاتمتين الكئيبتين فقط امر ما يعبر عن العذاب وما لم يتم الافصاح عنه . وكانت تدق الارض

بصبر برجليها القصيرتين بالحذاءين المطاطيين القذرين ، وتسعى الى ادارة ظهرها الى الريح ، ولا تني تحدق في اذن الفتى البيضاء الغضروفية .

وكانت الاوراق تتدحرج على رصيف المحطة مطلقة حفيفا خفيفا ، وتتجمع فى كومة ، وتهمس فى كآبة بصدد شأن من شئونها ، ثم تفرقها الريح وتتدحرج مرة اخرى فوق الارض الرطبة ، وتقع فى برك الماء ، ثم تخلد الى الهدوء ملتصقة بالارض . ويلف المكان جو الرطوبة والقر . . .

وفجأة قال الفتى :

– هى ذا احوال الدنيا ، ها !

ثم كشر مبتسما بشفتيه وحدهما واردف يقول :

– والآن ، ان كل شيء لدى على ما يرام . فما الذى بقى لدى الآن فى الكولخوز ؟ البيت ؟ ليبق البيت الى امى واختى ، انا لا آسف عليه . وسأذهب الى مركز المقاطعة ، وسيعطونى مدربا فورا ، وكذلك شقة . . . اى رباعون لدينا ؟ اننى حضرت المباريات ورأيتهم : ان افضلهم لا يكاد يبلغ المرتبة الاولى . اما انا فقد رفعت معدل ما يرفعه استاذ بكل بساطة ! اتفقهين ، اتسمعين ؟

وسألت الفتاة بصوت خافت :

– وماذا سيحدث لى ؟

– انت ؟

ورمقها الفتى بنظرة جانبية ، وسعل .

– لقد قلت لك . سأدبر امرى ، وارجع . لاوقت لدى الآن . . . ينبغى علىّ حصر اهتمامى بالارقام القياسية . كما سأسافر الى موسكو ، وسأريهم هناك كيف يتحقق هذا . الشيء الوحيد الذى آسف عليه : اننى لم اعرف سابقا كل هذه الامور . والا فاننى كنت قد سافرت منذ وقت بعيد . وكيف يعيشون هناك ؟ انهم يتدربون . . . فما ان قوتى فطرية ، وانتظرى فسأتفوق عليهم جميعا . وسأسافر الى الخارج ، وستبدأ حياة جيدة ! نعم . . . وسأرجع اليك . . . وبعد هذا . . . سأكتب اليك . . .

يتناهى من بعيد ضجيج قطار خافت وغير واضح . وعكرت صفارة قاطرة السكـــون الكئيب لذلك اليوم العابس ، وكان صوتها رفيعـــا ومديدا . واصطفق باب المحطـة ، وخرج الى الرصيف مدير المحطة بوجه ناعس ، متسترا وراء ياقة المعطف ، وعلى رأسه قبعة كاب حمراء عليها بقع مازوت قاتمة .

رمق المسافرين الوحيدين بنظرة جانبية ، واخرج سيجارة وضغط طرفها باصابعه ، وشمها ، وبعد ان تطلع الى السماء اخفاها فى جيبه ، ثم تثاءب وسأل بصوت مبحوح :

– باية عربة ؟

ادار الفتى رأسه بتثاقـل على رقبته القصيرة والثخينة ، وتطلع الى الجرموقين الجديدين لمديـــر المحطة ، ودس يده فى جيبه لاخراج التذكرة .

– العربة التاسعة ، ولماذا ؟

– حسنا . . . حسنا . . .

دمدم المدير وتثاءب مرة اخرى .

– تقول التاسعة ؟ اذن . . . التاسعة . لكن الطقس حقير . أوهو . . . هو .

واستدار ومضى نحو قسم الامتعة ، متلافيا بركة ماء . وظهر القطار من وراء الغابة ، واقترب بسرعة ، وعوى مرة اخرى ، مخفضا سرعته ، بصوت واهن ورفيع . فنهض الفتى ، ورمى السيجارة ، وتطلع الى الفتاة . وحاولت هذه جهدها ان تبتسم ، لكن شفتيها لم تطاوعاها وصارتا ترتجفان .

– هيا ، كفى !

تمتم الفتى وهو ينحنى لاخذ الحقيبة ، وقال :

– هل سمعت ؟ قلت كفى !

سارا بخطوات وئيدة على الرصيف للقـاء القطار . وكانت الفتاة تتطلع بنهم الى وجه الفتى متشبثة بكم معطفه ، ومتحدثة بكلام غير مترابط وفى عجلة من أمرها :

– اعتن بنفسك ، ولا ترفع اكثر ممـا يجب ... والا فقد ينقطع احد الاوتار . . . فكر بنفسك ، ولا تحملها فوق طاقتها . انا لا يهمنى ، وسانتظر ! وسابحث عن اخبارك فى الصحف . . .

ولا تقلق بشأنى . انا هكذا . . . انا احبك ، ولهذا ابكى ، وافكر . . .

فقال الفتى :

– دعك من هذا . لقد قلت لك ، وسأعود . . .

مضى القطار بمحاذاتهما ، والارض ترتجف تحته ، ولفهمـــا ببخاره الدافئ والرطب . ثم توالت العربات الواهنة ببطء اكثر فاكثر : الاولى والثانية والثالثة . . .

وقالت الفتاة بسرعة :

– ها هى العربة التاسعة . لننتظر !

توقفت العربة الى جانبهما برفق . وتزاحـم الركاب بوجوه شاحبة ومتغضنة عند مدخل العربة ، متطلعين الى الخارج بفضول . وبدا وراء النافذة رجل بدين غير حليق ، يرتدى بيجامة مخططة ، كان يحاول فتح اطار النافذة بعنف وقد تجعد وجهه . لكن الاطار عصى على الفتح ، وعبس الراكب متكدرا متألمـا . وفى نهاية المطاف افلح فى فتح النافذة ، وعلى الفور اخرج رأسه منهـا متطلعا الى المحطة الصغيرة بابتسامة يتميز بها المصابون بقصر النظر . وحين رأى الفتاة ، ارتسمت على وجهه ابتسامة أعرض ، وصاح بصوت ضعيف :

– يا بنت ، اية محطة هذه ؟

فقال الكمسارى بصوت أبح :

– لوندانكا .

– هل توجد سوق هنا ؟

سأل الرجل ذو البيجامة ، متطلعا الى الفتاة كالسابق .

فاجاب الكمسارى مرة اخرى :

– لا توجد سوق ، سنقف دقيقتين .

وابدى الراكب عجبه ، مواصلا التحديق فى الفتاة :

– كيف هذا ؟

وأمر احدهم من العربة بصوت ينم عن النزق :

– اغلق النافذة !

التفت الرجل ذو البيجامة ، وقد بان ظهره المكتنز ، ثم اغلق

النافذة وعلى محياه ابتسامة بائسة . وعلى حين غرة اختفى كما لو ابتلعته الارض .

وضع الفتى الحقيبة على سلم العربة ، والتفت الى الفتاة . وقال بصوت متثاقل ، وقد دس يديه فى جيبيه .

– حسنا ، الى اللقاء اذن .

وانزلقت الدموع على خدى الفتاة ، وانتحبت ودفنت وجهها فى كتف الفتى ، وهمست :

– سأشعـــر بالوحشة . اكتب كثيـرا . . . اتسمـــع ؟ اكتب . . . فانت ستعود ؟

وقال الفتى بلا رغبة وبفزع :

– لقد قلت لك . امسحى الدموع . . . هيا !

وهمست الفتاة باختناق :

– هذا لاشىء .

ومسحت الدموع بسرعة فى حركة تشبه حركة السنجاب ، وحدقت فى وجه الفتى بولع .

– سأبقى لوحدى . تذكر حديثنا . . .

– انا اذكر ، فالامر سيان بالنسبة لى !

تمتم الفتى عابسا ، رافعا راسه ومتلافيا النظر اليها .

– اما بالنسبة لى ، فان حياتى كلها اليك . فاعرف هذا !

ودمدم الفتى :

– لقد سمعت هذا . . .

وصار ينظر الى قدميه .

دق الجرس مرتين ، بصوت ضعيف وخامد .

وقال الكمسارى :

– ايها المواطن ، ارجو الصعود الى العربة ، والا فستبقى فى المحطة . . .

ثم بادر قبل غيره للصعود الى العربة .

شحب وجه الفتاة ، ووضعت يدها على فمها .

وصرخت :

– فاسيا !

وصارت تتطلع الى الركاب بنظرات زائغة . فاشاح هؤلاء بوجوههم على الفور . واردفت تقول :

– فاسيا ، قبلنى !

تمتم الفتى :

– الامر سيان بالنسبة لى .

والتفت الى الخلف مرتعبا ، وانحنى على الفتاة . ثم استعدل فى هيئته ، كما لو انجز عملا شاقا ، واندفع الى السلم . فتأوهت الفتاة بصوت خافت ، وعضت الشفة المتراقصة المرتجفة وغطت وجهها بيديها ، لكنها نزعت يديها على الفور . . .

وصدر هسيس من تحت العربات ، وصرخت القاطرة بصوت مكتوم فى المقدمة ، وتردد صدى مكتوم قصير خامد ايضا من الغابة . وتململت العربات فى حركة لاتكاد تراها العين . وصرّت العوارض . كان الفتى يقف على السلم ناظرا الى الفتاة بعبوس ، ثم اصابه الاحمرار وقال بصوت خافت :

– أ تسمعين ، اننى لن اعود ، أ تسمعين ؟

وارتسمت على وجهه تكشيرة ، واستنشق الهواء بشدة ، وقال عبارة ما اخرى شريرة وغير مفهومة ، وتناول الحقيبة من السلم وولج المدخل بحركة جانبية .

التوت هامة الفتاة بشكل ما ، وخفضت راسها . . . ومرقت العربات بمحاذاتها ، وتنفست العوارض انفاسا خامدة ، وسمع صريرها ووصوصة ، فيما كانت تحدق بالحاح الى بقعة المازوت الزاهية على القضيب ، والتى كانت تختفى تارة تحت العجلات ثم تظهر تارة اخرى ، وكانت تتطلع بتأمل وبخفر ، واقتربت دون ان تدرى من هذه البقعة شيئا فشيئا ، كما لو انها تدعوها اليها . وتوترت عضلات جسدها ، وضغطت بيدها على صدرهـا الذى اخذ يؤلمها ألما لا يطاق ، وكانت شفتاها المرتجفتان ، وكانهما شفتا طفلة ، تميلان الى الشحوب شيئا فشيئا . . .

وفجأة هدرت صرخة عنيفة فوق راسها :

– احذرى !

جفلت الفتاة ، ورفت بعينيها ، وصارت البقعة الزاهية اكثر بياضا ، وتوقف صرير العوارض ودقات العجلات ، وحين رفعت

رأسها شاهدت العربة الاخيرة تمضى أبعد فابعد وعلى مصدتها درع احمر كبير ، دون ان يسمع لها صوت وكأنها تسبح فى الهواء . لحظتئذ رفعت رأسهـــا الى السماء الواطئة اللامبالية ، وسحبت منديلها على وجههـــا ، واجهشت فى البكاء وهى تعول كشأن النساء ، مترنحة كما لو كانت سكرانة .

– ر . . . ح . . . ل !

اختفى القطار بسرعة وراء الغابـــة القريبة ، وساد الهدوء المكان . ودنا منها مدير المحطة مجرجرا قدميه فوق الارض ، وتوقف وراء ظهر الفتاة وتثاءب .

وسأل :

– هل رحل ؟ نعم . . . فى هذه الايام الجميع يرحلون .

ولزم الصمت ، ثم بصق بصقة كبيرة ومسحها بقدمه .

وتمتم قائلا :

– عما قريب سأرحل انا ايضا – سأسافر الى الجنوب . هنا الحياة مملة ، وتهطل الامطار . . . اما هناك فالجو دافئ ! هناك هذه ما اسمها . . . اشجار السرو .

والقى نظرة فاحصة الى جسد الفتـــاة ، وتطلع طويلا الى الحذاءين المطاطيين القذرين ، وسأل بصوت خافت وبلا اهتمام :

– هل انت من «كراسنى مايك» ؟ ها ؟ نعم . . . تلكم هى المسألة . . . والطقس حقير ، هذا واقع !

ثم انصرف مجرجرا قدميه ، ومتجنبا برك المياه بهمة .

واصلت الفتاة الوقوف طويلا على الرصيف الخالى ، وكانت تنظر الى امامها مباشرة دون ان ترى شيئا : لا الغابة القاتمـة الرطبة ولا القضبـــان ذات اللمعان الخفيف ولا العشب البنى الراقد . . . بل كانت ترى وجه الفتى الغليظ والمجدور .

فى نهاية المطاف اطلقت تنهدة ومسحت وجهها المبلل ومضت نحو الحصان . وفكت رباط الحصان ، وعدلت العدة ، وقلبت التبن ، وبعد ان انزلقت صعدت الى العربة ، وشدت الاعنة . فتراجع الحصان الى الوراء وحرك ذنبه بتكاسل ، واستدار بنفسه ومضى بجهد بمحاذاة المحطة الصغيرة ناقلا قوائمه ، وبمحاذاة

اكوام العشب والعوارض المتصالبـــة متوجها نحو الدرب غير المعبد .

كانت الفتـــاة تجلس بلا حراك ، متطلعـــة الى اعلى قوس الحصان ، ثم التفتت لآخر مرة نحو المحطة الصغيرة واستلقت فى العربة على وجهها . . .

١٩٥٤

عابر سبيل



(١)

مضى على قارعة الطريق متطلعا الى الافق البعيد ، حيث كانت وراء سلسلة التلال المنحدرة تدريجيا غيوم صيفيـــة مكومة ، وواجهته ريـــاح شديدة تنفخ فى لحيته الناعمة التى لفحتهـــا الشمس . وغالبـــا ما كانت الدموع تنحدر من عينيـــه ، فكان يمسحها باصبع قذر وخشن ، ومرة اخرى يتطلع الى الامام دون ان يرف له جفن فى وهج شمس المغيب الذى يعمى الابصار . وكانت السيارات تسبقه مطلقـــة ازيزا عنيفا باطاراتهـــا فوق الاسفلت ، لكنه لم يرجو من احد اخذه معه ، وبدا ظل هيكله قاتما راسخا فوق الطريق الرماديـــة التى اسودت فى الوسط بسبب الزيوت .

كان فتيا ومرفوع القامة مع شىء من الاحديداب فى ظهره ويخطو خطوات عريضة وراسخة . وبدا عليه خفيفا دون ان يثقل عليه او يعيقه ما عليه من ملابس – الحذاءان المطاطيان والقبعة الشتوية الرثة وكيس الحاجيـــات على كتفيه والمعطف الدافئ المتهرئ .

هل كان يفكر فى شىء ما ، حين يمضى ناقلا خطواته بمحاذاة القرى والغابات والانهار والحقول الخضراء والاراضى المحروثة البنية اللون ؟ وما كانت عيناه الزرقاوان ذواتا الجفون الحمراء لتنظران الى اى شىء بامعان ، وما كانتا لتتوقفان لتحدقان طويلا

فى اى شىء ، بل كانتا تتطلعـــان الى الآفاق والسحب البيضاء ، وتذرفان الدموع ، ثم تنظران مرة اخرى بلا اهتمام . وكانت عصاه المصنوعة من خشب الجوز والمخضوضرة لملامستها الاعشاب تقـــرع الاسفلت برنين . كانت الشجيرات تسترق الخطى نحو الطريق ، وتقترب منه بتأمل اشجار البتولا الكبيرة العتيقة ، ومن ثم تبتعد مجددا دون ان يسمع لها صوت ، فهى عاجزة عن ان تخفى الفضاء الواسع للحقول .

تجاوزت الشمس منتصف النهار ، وصار الجو اكثر حرارة وجفافا ، وحملت الرياح رائحـــة العشب الدافئ الذى سخنـــه الاسفلت ، فيما كان الجوال يخطو بالنشاط ذاته قارعا عصاه ، ولم يعرف مبتغاه وكم سيواصل المشى .

فى نهاية المطاف لاحظ فى مكان بعيد جدا ، من الجهة اليمنى ، خطا ابيض – هو برج اجراس . وبعد ان لاحظه تحول بعد هنيهة الى الدرب المترب غير المعبد ، وصار يمشى عندئذ ببطء اكثر . وحين بلغ جدولا عميقا نقى المياه جلس فى فئ الشجيرات ، ونزع الكيس واستخرج البيض والخبز وشرع فى تناول طعامه . وراح يمضغ ببطء ، متطلعا بامعان الى قطعة الطعام قبل ان يضعها فى فمه . وبعد ان شبـــع رسم علامة الصليب ونزع عن لحيته وشاربيه فتات الخبز ، ونهض بتثاقل ومضى الى الجدول لشرب الماء . وعاد الى مكانه بعد ان شرب وغسل وجهه ، وتوغل فى وسط الشجيرات ، ووضع الكيس تحت رأسه ، ورفع ياقته ، وانزل القبعة على وجهه ، وغط فى سبات عميق فورا كحال انسان اصابه التعب الشديد .

(٢)

نام فترة طويلة واستيقظ حين توارت الشمس وراء التلال . ومسح العينين المتقيحتين وصار يتثـــاءب طويلا وحك جسده ويتطلع حواليه دون ان يدرك اين هو وكيف جاء الى هنا . ولم يعبر وجهه المتورم بسبب النوم سوى عن الملل والكسل .

مرت سيارة تحمل صفائح حليب متجهة نحو الطريق المعبد . فتابع عابر السبيل السيارة بانظاره ، وبدت على وجهه امارات الحيوية والنشاط ، ووضع الكيس على كتفيه بسرعة وخرج الى الطريق وعبر جسرا صغيرا فوق الجدول ومضى الى القرية التى لاحظها منذ الظهيرة .

ولاحت من جهة اليمين حقول شوفان ذات لون اخضر متالق صارت تميل الى القتامة ، ثم انداح صفان من اشجار الشوح ، واختفت الشمس مخلفة وراءها شريطا ضيقا داميا من نور الغسق . وقد اضاء هذا الشريط عبر اشجار الشوح السوداء ، وكان مريعا النظر الى هذا النور والظلام فى آن واحد . وحث الجوال خطاه مثيرا الغبار تحت حذاءيه المطاطيين . كان يخشى العتمة ولم يحب الليل .

ثم بدأت روائح أخرى . اذ انبعثت رائحة العشب المائل للبرودة والغبار فى الطريق ، وفاح العبير الثقيل لنبات الدونيك ونبات الالف ورقة ذى المذاق الحلو كالعسل ، فيما انبعث من اشجار الشوح عطر صمغى قوى . وكانت السماء صافية وعميقة ، وسادتها العتمة كما لو انها غارقة فى التامل ، وتراءى من اليسار بوضوح الهلال الابيض الحليبى . وراح الدرب يتلوى عبر الغابة والوهاد . ومضى الناسك الجوال بخطوات حثيثة ، محركا منخريه ، ساحبا الهواء كالوحوش ، متطلعا حواليه فى غالب الاحيان . وجرب نحو مرتين انشاد اغنية ما ، لكنه سرعان ما لزم الصمت ، بعد ان سحقه جو السكون عند المغيب .

وفى نهاية المطاف فاحت رائحة البيوت ، ولاحت المراعى بين الفينة والفينة ، وكان يمشى بهدوء ، متطلعا الى الامام بنظرات ثاقبة . وبعد هنيهة تلاشت الشجيرات والاشجار التى خلفها وراءه . فرأى قرية كبيرة يجرى فى اسفلها جدول وتقوم كنيسة على تلة فيها . وكانت الحظائر تشغل جميع المنخفض فى الاسفل ، وهناك ، وبالرغم من الظلام المتسلل ، ما برحت الحياة متواصلة ، كما تتواصل فى خلايا النحل مساء .

وعندما بلغ عابر السبيل الجرن تقريبا لاحظ فجاة امراة تمضى من الاسفل ، من حظائر الماشية ، نحو القرية . فتوقف

بانتظارها ، وحين اقتربت المراة من عابر السبيل نزع هذا القبعة من على راسه وانحنى انحناءة شديدة لها ، وراح ابان انحناءته يتطلع الى وجهها بامعان .

فقال بصوت مكتوم وبوقار :

— مرحبا ، يا أم ، حفظك الله .

وردت بعد هنيهة :

— مرحبا بك ايضا .

وعدلت منديل راسها ، ولحست شفتيها الجافتين .

— انت من أهل القرية ؟

— انا ؟ من اهلها . وانت من اين قادم ؟

— من انحاء بعيدة . اننى احج الى المزارات المقدسة . اى اننى ناسك جوال . . . عابر سبيل .

وصارت المراة تتفحصه بفضول ، وارادت ان تسأله عن امر ما ، لكنها استحيت وواصلت دربها بهدوء . ومضى الناسك الى جانبها محافظا على العزم والوقار فى محياه .

ثم سأل ناظرا الى الصليب الذهبى المائل الى اللون الوردى فوق برج الاجراس :

— هل الكنيسة عاملة ؟

— الكنيسة ؟ من اين لها ان تعمل ، بلا قداديس ، وقد تم تحويلها الى محطة للاليات والجرارات الآن . كان لدينا قسيس طاعن فى السن ، وتوفى منذ نحو عشرين عاما .

— اذن انتم الآن بلا ديانة .

فاصاب المراة الحرج ، وعدلت منديلها مرة أخرى وتنهدت وخفضت بصرها . ورماها عابر السبيل بنظرة جانبية . لم تكن عجوزا . لكن وجهها كان قاتما وكذلك ذراعاها . وانبجس كتفاها النحيلان عبر الجاكتة القديمة الحائلة اللون . ولم يبرز تقريبا نهداها الضامران .

قالت بلهجة كئيبة مسحوقة :

— ومن اين لنا ذلك . او تعرف حال شباب هذه الايام ، انهم لا يؤمنون بالرب . كما ان العمل عندنا يتواصل طوال العام ، علاوة على الشئون المنزلية . ولا وقت لدينا لممارسة

اى شيء آخر . وفى بعض الاحيان يأتى الينـــا كاهن ويتلـــو الصلوات فى المقبرة ، وهى كل ديانتنا . . .

وبدرت من الناسك بلهجة ممطوطة :

– هكذا . . . آه ، يا بشر ، يا بشر . ان قلبى يؤلمنى ، ولا تقدر عيناى على النظر الى كيف تعيشون ! انكـــم تحفرون لحدكم بانفسكم . وتقودون انفسكم الى جهنم .

صمتت المـرأة بحزن . كان الظلام قد خيـم على الشارع ، ولم يلمع الوميض سوى فى مياه البركة الشبيهـة بالزجاج ، وكانت تعوم بمحاذاة نبات السعد بطتان قد تأخرتا فى الرقاد ، وهما تلتهمان الاعشاب المائية بنهم وتعجلان بملء بطنيهما قبيل حلول الليل .

وسأل عابر السبيل بكآبة :

– هل يوجد هنا ولو أحد المؤمنين ، الذى يمكن لأحد عباد الله المبيت عنده ؟

– اذن ، انت تريد المبيت ؟ حسنا ، يمكنك المبيت ولو عندى ، فهذا فى منتهى اليسر .

ولم يتفوه عابر السبيل ولا المرأة باية كلمة اخرى حتى بلوغهما المنزل . وسألته لدى فتح الباب فقط قائلة :

– اسمك بالخير ؟

– ايوان ! – قـــال عابر السبيل هذا بالعزم والوقـــار السابقين ذاتهما .

تنهدت المرأة ، لربما انها كانت تفكر فى خطاياها ، وفتحت الباب ، فدخلا الى المجاز المظلم الذى تفوح منه رائحة التبن ، وولجا منه الى داخل المنزل .

وقالت ربة المنزل :

– اخلع معطفك ، وخذ قسطا من الراحة . . .

ثم خرجت .

نزع ايوان الكيس والمعطف ، وصار يخلع حذاءيه . وتشمم طويلا وعلى محياه علائم الحزن الخرقتين اللتين يلف بهما قدميه ، وحك راحتى قدميه الكبيرتين المتورمتين بسبب المشى الطويل ، وتفحص المكان .

عندما دخلت ربة المنزل ثانية كان ايوان يجلس فى القميص وحده ، وهو منهمك فى تقليب محتويات الجراب . فاخرج منه الانجيل ودفترا سميكا يضم اسماء المتوفين لغرض ذكرهم ابان الصلوات ، كتب عليه كتاب صلوات القديس ايوان ونقش على جلده صليب كبير ، ولدى مواصلة البحث فى الكيس عثر على عقب قلم رصاص ، وفتح الدفتر وبعد التأمل هنيهة سأل بحزم :

– هل توفى احد من اهل هذا البيت ؟

جفلت ربة المنزل والتفتت وتطلعت بالحاح الى الرجل الغريب الملتحى . وقالت بصوت خافت :

– نعم ، توفى . فى الربيع توفى ولدى . كان يعمل سائقا فى الكولخوز ، وحين كان يعبر النهر . . .

فاوقفها عابر السبيل بحزم :

– اسمه .

– ماذا ؟ – قالت لكونها لم تفهم مراده .

فصرخ فيها بانزعاج :

– اسمه ، اسمه ! اسم ولدك .

– ولدى ؟ اسمه فيديـــا . قيل له انتظر ولاتعبر ، ولن تتعفّن سلعتك – كان ينقل بعض القطع من اجل محطة الآليات والجرارات – وتوجّه بالالتفـاف فى الطريق وعبر الجسر ، لان الجليـد كان على وشك الذوبان . . . فلم يلق بالا ، اذ كان متهورا . . . وغرق . . . لقد غرق ولدى .

وقاطعها ايوان ، وهو يسجّل بحروف كبيرة «فيودور» ، قائلا :

– سأصلى من اجله . وما هو اسمك ؟

– ناستاسيا . . .

– هكذا . . . ناستاسيا ، هل تعيشين لوحدك ؟

– اعيش سوية مع ابنتى . . . انها ليست ابنتى بل زوجة فيديا ، وانا معها .

– هل كان لك زوج ؟

– نعـــم ، وكيف لا . . . انـــه استشهد فى الجبهـــة عام ٤٢ . . .

– اسمه ؟
– كان اسمه ميخائيل .
– هكذا . . .
ثم صمت ايوان .
– والكنة ما اسمها ؟
– لو . . . اى لوبوف .
فقال عابر السبيل وهو يدوّن الاسم :
– اعلم . هل هى طيبة ؟
ولم تفهم ناستاسيا سؤاله :
– كيف ؟
– هل سلوكها طيب . هل تؤمن بالله ؟
– لا . . . انها لا تؤمن بالله ، وهى كمسمولية . وعموما ، انها طيبة ، ولن اتحمّل الخطيئة . انهـا تخرجت من المدرسة البيطرية ، وهى تعمل فى مزرعة تربية الحيوان ، كما عينوها مشرفة على النادى . فلدينا ناد وهى تعمل فيه مساء . انهـا تتعب ، ففى النهار هناك وفى المساء هنا . لكننى لا اعارض ، طبعا ان حياتها وحيدة مترعة بالسأم ، انها شابّة فلم يعيشا معا سوى سنة واحدة . . . وابنى فيديـا كان قد عاد من الجيش وقال : مامونيا . . . مامونيا . . .
ثم تغضن وجه ناستاسيا وارتجفت شفتاها الجافّتان وانحدرت الدموع فوق خديها القاتمين الهزيلين . وصمت الناسك الجوال بصرامة .
وقالت ناستاسيا والدموع تترقرق من عينيها :
– تفضّل ، تناول طعام العشاء . . . سأعدّ السماور الآن . . .
– هل توجد ايقونات ؟
– نعم . . . سيدات السلم ذوات الاذرع الثلاث .
– اين هى ، قودينى اليها .
– انها فى ذلك القسم من البيت ، هيابنا . . .
وفتحت باب غرفة نظيفة . ومضى ايوان فى اعقابهـا وعلى وجهه ملامح الكآبة ماشيا على السجاجيد بخطوات ثقيلة ، حاملا كتاب الصلوات .

وقال حين رآى الايقونات :
– اخرجى . ساصلى .
وركع ساجدا وسمع وقع ركبتيه على الارض ، ورفع طرف لحيته . بينما خرجت ناستاسيا بهدوء .
– آلهى ! – هتف ايوان بصوت عميق – آلهى !
ثم لزم الصمت وصار يتطلع فى النافذة الى شجرة التفاح الساكنـة . وانشغلت ناستاسيـا فى اعداد المائدة وقرقعت الاوانى . وشعر بالارتياح الغريب من هذه الاصوات الهادئـة وتلك العتمة الصيفية المديدة ، وغمر فؤاده احساس لذيذ . فما اكثر ما راى من القرى ، وما اكثر الاماكن التى قضى لياليـه فيها ! وكان كل شىء متباينـا فى كل مكان : البشر والعادات والكلام . . . سوى ان العتمة ورائحة البيوت والخبز والاصوات كانت واحدة فى كل مكان .
نظر ايوان الى النافذة واشراب بعنقه . ففى المنخفض وراء الحديقة البيتيـة يجرى النهر ، ووراء النهر تنداح الحقـول والغابة . . . وزحف الضباب من الغابة ، فغطى المرعى بظفائر حليبية اللون ، ونزل منحدرا بهدوء نحو الاسفل الى النهر .
اطلق ايوان تنهدة :
– الهى . . .
ثم اصغى مرة اخرى الى القرقعة الخفيفة للاوانى وتطلع عبر النافذة نحو الافق .
رنت ناستاسيا بحذر الى غرفة الجلوس ورات راسه الاشعث الذى لم يحلق منذ وقت بعيد وعنقه الاسمر ومنكبيه العريضين المتينين والراحتين الكبيرتين للقدمين المقلوبتين .
لكن عابر السبيل لم يحرك ساكنا ، ولم يجب ، وكان يفكر فى امر ما ، مرتكزا على الارض بذراعيه الطويلتين .
وخرجت ناستاسيا ووضعت السماور على الشرفة واخذت تحلب البقرة .
اما عابر السبيل فقد سمـع بعد لحظة خطوات خفيفة فى المجاز ، وفكر بعجلة فى دخيلة نفسه :
– انها البنت .

وادار رأسه بحذر .

اصطفق الباب ، وجمدت الخطوات عند عتبة غرفة الجلوس . ورفع ايوان طرف لحيته ورسم علامة صليب عريضة متطلّعا الى الوجوه القاتمة للايقونات : كان يعرف ان القادمة تحدق فيه بعجب ودهشة .

صمت . ثم تراجعت الخطوات بعجلة نحو المجاز . فنهض ايوان ودنا من الباب دون ان يبدر عنه صوت ووضع اذنه الحمراء القاتمة عن الباب مصغيا .

– ماما !

– ماذا تريدين ؟

وتوقفت الوشوشة المنتظمة للحليب فى الدلو .

– ماما ، من هذا الرجل عندنا ؟

–هكذا ، أحد السابلة . ناسك جوال ، يبحث عن الدين ، وطلب المبيت .

– ناسك جوال ، عجوز ؟

– هو ملتح ، لكنه ليس شيخا ، وعيناه لهما حيوية الشباب .

– لربما هو احد المحتالين ؟

– ماذا تقولين ، المسيح معك ! انه رجل دين وصلاة .

صمت . ولم يسمع سوى قباع خنزير خفيف . ثم ترددت مرة اخرى الاصوات السريعة المنتظمة والحيوية للحليب فى الدلو .

– هل اطعمت الخنزير ؟

– لا ، لم اجد الفرصة بعد ، لقد اعددت له الطعام هناك ، وراء الموقد .

– سأطعمه .

وتراجع ايوان الى غرفة الجلوس من الباب بهدوء ، وركع على ركبتيه ورفع لحيته : «نذلة !» – فكر بحقد . – «وقد تطرده ، ولن تدعه يمضى ليلته هنا» .

سمعت فى المنزل الاصوات الهادئة لربة البيت وتراكم الظلام فى اركانه ، ولم يعد بالمستطاع رؤية شيء – لا وجوه

الايقونات ولا الصور الفوتوغرافية ولا شهادات التقدير – فكل شيء ضاع فى العتمة ، واصبح كل شيء غامضا مشوبا بالقلق ، وولجت البيت اشباح الغابة . وحين ساد الظلام تماما وابيض الهلال فوق الغابة وصار نوره يتسلل عبر النوافذ ، جلب فانوس مشتعل ووشوش السماور على الطاولة ، فخرج الناسك الجوال من غرفة الجلوس ودس الانجيل وكتاب الصلوات فى الكيس وجلس على المصطبة وصار يتابع لوبا ببصره وقد ضيق عينيه .

(٣)

جلس الثلاثة لتناول العشاء . وكان عابر السبيل يأكل بنهم وبكثرة مولدا اصواتا عالية لدى ابتلاع الطعام محركا لحيته واذنيه .

قالت ناستاسيا مقدمة اليه الطعام :

– كل ، كل !

كان يرفع عينيه الزرقاوين الملتهبتين من الطبق ، ويتطلّع فى كل مرة الى لوبا ، التى كانت تشعر بنظراته فتتنرفز ويصطبغ خداها بالاحمرار ، وترفع حاجبيها . كانت جميلة ذلك الجمال الاسمر غير المتألق ، وبقى فيها شيء من سمات الفتيات – الحركات الحادة والنظرات السريعة فى عينيها والنهدان الصغيران . . .

واصل عابر السبيل النظر اليها ، واعجبته لسبب ما ، وصار يفكر انه سيكون جميلا لو حلق لحيته وتزوّج فتاة كهذه ومارس الاعمال فى البيت ونام معها على كدس التبن وتبادل معها القبلات حتى طلوع الفجر . . . وتراقص قلبه لمثل هذه الافكار ، واختلطت الامور فى رأسه .

ورجته ناستاسيا قائلة :

– كل ، لا تخجل . . . جرب هذا الفطر ، فى هذا العام ظهر الفطر مبكرا .

بعد ان شبع ايوان رسم علامة الصليب ، وانحنى كعادته

امام ربة المنزل ولوبا ، وابتعد عن المائدة ، واراد ان يتجشأ لكنه خجل ، وصبر ، وراح يلفّ سيجارة ناثرا التبغ على ركبتيه ثم جامعا إياه .

وقال بأسف :

– اننى ادخّن . . . اننى ادخن . . . هذه غواية الشيطان ، وكم من مرة ندمت واعلنت توبتى ، وفرضت العقوبة على نفسى لكننى لا استطيع التخلّى عنه .

فضحكت لوبا فجأة ، واستدارت وتوجهت نحو الموقد . فيما تململت ناستاسيا ونظرت الى عابر السبيل بتوسل بعد ان نهضت قليلا .

– ماذا بك ، ماذا بك ؟ هل جننت ام ماذا ؟

لزمت لوبا الصمت . وكانت تغالب الضحك مغمضة عينيها بالرموش .

فقال عابر السبيل رافعا صوته :

– نعم . صار الناس متعلّمين كثيرا ، ولايؤمنون بالله ، اما الشيطان فيقف لهم بالمرصاد . . . انهم فى عجلة من امرهم ، وصارت الحياة مفعمة بالحركة والسرعة ، وليس هناك من افكار حقيقية ، فالماكينات افسدت الجميع . . . ان الماكينة التهمت الانسان ، وقد ورد ذكر ذلك فى كتاب الحشر بصراحة .

كانت لوبا تنظر اليه مباشرة بسخرية .

فسال ايوان بفظاظة متحسسا الغيظ المرح فى اعماقه تجاهها :

– مالك تنظرين ؟ ام اننى لا اعجبك ؟ هل انت لم ترى امثالى ؟ ربما تأسفين لاننى جلست الى مائدتكم ؟

وفزعت ناستاسيا وقالت :

– ماذا تقول ، الرب معك !

فقالت لوبا بصوت رنان :

– انا لا آسف على المائدة ، ولا على البيت ايضا . هذا الامر يخص أمى . اما لو توخيت الصراحة فى القول : فهذا شىء مضحك طبعا . مالك تجوب الافاق ؟ الا تخجل ؟ واطلقت لحيتك .

او تعتقد ان القدسية ستزداد باللحية ؟ الحق ، ان هذا يشبه تمثيلية الهواة عندنا .

– وانت الا تريدين التجوال ؟

– انا ؟ لا ، انا احب العمل .

وازّ عابر السبيل وصار ينظر الى ركن الغرفة .

– العمل . انت فتاة حمقاء ، بم يكمن عملكم ، انكم لا تؤمنون بالله ، بينما هو موجود ، وسيبقى الى ابد الابدين ! العمل . . . ايه منكم ! انا اتجول وارى .

فقالت لوبا بتهاون :

– الرؤية سهلة .

وواصل عابر السبيل بصوت عال :

– انا اتجول وارى ، ماذا تفعلون ؟ وما هى حال الناس ! وهل صارت الحياة افضل على الارض ، ام اسوأ ! انا اقول لك الحقيقة – اسوأ . لقد ازداد عدد اللصوص ، والفساد اكثر . وانا اطالع فى الانجيل المقدس ، هو ذا كتاب ! – وصفق بيده على الكيس – لن تجدوا هذا فى مدارسكم المهنية ومعاهدكم . . . لا وجود له هناك .!

وقالت لوبا على حين غرة متثائبة :

– ولسنا بحاجة الى هذا ، ونحن نعيش بدونه . انا تعبانة قليلا ، ساذهب لأنام . . . شكرا ، ماما .

ابتعدت عن الموقد واخذت شيئا ما من صوان الثياب ، ومرت بعابر السبيل نافحة اياه بعبير الجسم الانثوى النظيف . وخرجت الى المجاز بعد ان صفقت الباب .

قال عابر السبيل بصوت متهدج وضحك ساخرا :

– فتاة متكبرة . ذات طبع متميز .

فقالت ناستاسيا مستسلمة وهى تنظف المائدة :

– ذلكم هم الشباب . لديهم مفاهيم اخرى . انهم جريئون فى ايامنا . . . لا تزعل منها . حياتها ليست سهلة . شابة وجميلة . . . وارملة .

وافلتت من عابر السبيل الغارق فى التأمل العبارات التالية :

– نعم ، تلكم هى ارادة الرب . انا ايضا لم افكر فى ان

اغدو عابر سبيل . وطبعـــا كان اهتمامى بالحياة من الناحية الاخرى . انا من مقاطعة بسكوف ، من قرية بودسوسونيه ، الم تسمعى بها ؟ وقد فقدت والداى فى الحرب ، اسكنهمـــا الله جنانـه ، وبقيت وحيدا فكيف ساحيـــا ؟ صرت امـارس شتى الاعمال ، فمارست ازالة الالغام ، وانفجر لغم واصابنى بجرح فى بطنـــى باعلى السرة ، وبقيت حيـــا بمعجـزة ، واصبحت معوقا . . . وماهى حياة المعوق ؟ قد يمارس عملا ما غير شاق ؟ لكننى بدون تعليم ، والدراسة تتطلّب فترة طويلة من اجـل التخصّص كباحث زراعى او مهندس . وســـاءت احوالى فـى الكولخوز واصابنى السأم ، ومـــا كان بوسعى ارضاء حاجات روحى ، فدفعتنى هذه الى التجوال فى الافاق البعيدة . واخذت ادعو الله ، وكنت قبل هذا غير مؤمن ايضا . . . وكان لدينـــا فى الكولخوز شيخ – يعمل فى نقل الحليب – وهو شيخ عظيـم . فعلمنى اصول الدين جميعـــا ، واخذت اطالع الكتب الدينية – فتبين لى ان كل ما جاء فيها حق . وقال لى : «اذهب يا ولدى ، اذهب الى الاماكن المقدسة ، وصلّ وانقذنـــا جميعا من الهلاك وانقذ نفسك أيضا» . فشدّدت الرحال وها انذا اجوب الارض للعام الخامس . وهناك عدد كبير من الجوّالين . وجميعهم اناس اطهار ومباركون . والآن صار وضعى يسيرا ، فانا قريب من ربى ولن احيد الآن عن طريقى . لا ، لن أحيد !

وسألت ناستاسيا بصوت ناعس :

– وهل طريقك بعيدة الآن ؟

– اريد غدا بلوغ بوريسوفو ، لكى اقبل هناك الصليب صانع المعجزات . لقد سمعت الكثير عنه . وما اكثر الاماكن التى زرتها ! ففى كييف عشت فى الاديرة ، وكنت اطعم نفسى من هبات وصدقات المحسنين ، وعشت فى لافرا كييف – بيتشورا المباركة . انها مكان رائع ، وفيها عدد كبير من المصلين ، كما زرت لافرا الثالـــوث والقديس جورجيوس ، وحتى ذهبت الى استونيا ، والى فيتلوجـــا – ان الناس هناك غير بشوشين ، وليس لديهم رجال دين ، فهم ينتمون الى طائفة لهم . وانا لا احبهم ، انهم لا يتصدقون على احد .

وعلى حين غرة صار يفكر فى لوبا : «انها رقدت فى المجاز» – وصار قلبه يخفق بعذوبة .

– آه ، يا أم . . .

قال هذا بمرح وحماس ، منفعلا لكون الامور تمضى على مايرام هكذا ، فربة البيت مؤمنة ، والارملة الشابة تنام لوحدها فى المجاز .

– آه ، يا أم ، اننى تجولت كثيرا فى الدنيا ، ولئن تحدثت بصدق كما لو كنت اقف بين يدى الله ، فليس هناك من بلد افضل من روسيا ! ان المرء ليمضى فى ربوعها ، فيصغى الى تغريد القبرة ، ويهتز ذنبها ويهتز ، ويرى نبات الدونيك وقد ازهر ، ويلتقى الناس الاخيار ، فيتبادلون معه اطراف الحديث ويدعونه للمبيت ويطعمونه . او قد يمضى ماشيا فى الغابات ، ان الغابات عندنا طيبة العبير ، يطن فيها النحل ، وترتج اشجار الحور مولدة حفيفا ما ، – ما اروع وما اجمل هذا ! ولن يجد المرء من يتآمر عليه ، وقوانين مفروضة عليه ، فينهض ويمضى فى سبيله . وما عليّ بالناس ؟ ومن هم ؟ كمـا ان ذاكرتى ضعيفة ، وانا أنسى الجميع ، ولا اذكر احدا منهم . . . لا ، لا اذكر احدا البتة . فانا ابيت عند احدهم ، وانهض واصلى الى ربى ، وانحنى شاكرا الى رب البيت ، واواصل دربى . وهناك من لا يسمح لى بالمبيت ، ويقول : «لص» . وانا استاء منهم ، الله معهم ، انا استاء منهم . لكن لا يزال هناك كثير من الناس الاخيار ، المؤمنين ، يعطونى العناوين ، ويدعونى : تعال وعش معنا . لكننى لا اريد العيش فى مكان واحد ، فهناك صوت ما يناديني ، وما يؤرقنى ، وبالاخص فى الربيع . لا ، لا استطيع .

استغرق عابر السبيل فى التأمل وصمت متشبثـــا بيديه بالمصطبة . وبدا النعاس يغالب ربة المنزل ، ورأسها ينحنى ، وجسدها يرتجف واجفانها ترمش . وكانت الساعة تدور بانتظام فى غرفة الجلوس . وران السكون على المكان .

قالت ناستاسيا باعتذار ، واخذت تتثاءب :

– يبدو اننى اريد النوم . يجب الاستيقاظ مبكرا غدا .

ثم نهضت بتثاقل ، وراحت تهيئ السرير الخشبى العريض ، وتحدثت قليلا بارتباك كما لو كانت تسخر من نفسها :

– انا اعمل حلابة فى مزرعة الماشية . وانا احتل المرتبة الاولى فى المنطقة ، كمـــا تعهدت بالتزامات فى العمل . ارقد والله معك ، فانت ايضا لابد وان تكون تعبان .

تمتم عابر السبيل متظاهرا ، وعيناه تتطلّعان بنهم الى حشية الريش :

– كلا ، سانام على الارض . فافرشى لى شيئا ما ، وهذا يكفينى . . .

– ارقد ، ارقد ، ولا تفكر . فانا لا انام عليه . وانـا لا احبه فهو عريض جدا . . . واحيانا تنام لوبا عليه ، اما انا فانام على سطح الموقد دائما . ارقد !

قال ايوان متظاهرا بعدم الرغبة ، ولكن بابتهاج دفين فى اعماقه :

– حسنا ، ليخلصك المسيح .

وصار يخلع ملابسه .

وراحت ناستاسيا جيئة وذهابا لبرهة من الزمن ، وانهمكت فى ترتيب بعض الاشياء ورفع الاوانى . وبدت بين الفينـــة والفينة على الجدران كشبح نعسان كبير . واخذ الذباب بالطنين على سقف البيت بعد ان استثيرت لسبب ما . ثم دنت ناستاسيا من المائدة ، واطفأت الفانوس وقد ضيقت عينيهـــا . وغمرت العتمة البيت .

(٤)

فكر عابر السبيل بلوبا فى دخيلة نفسه : «هل نامت فى المجاز ؟» ، وقد اعتملته رغبة عارمة . واصابه الارق ، وصار يتململ فى فراشه ، ويتطلّع الى بقعة نور القمر ، وفى نهايـة المطاف نهض وبدا شبحه ابيض فى قميص النوم الطويل .

– لقد نسيت قضاء حاجتى . . .

دمدم عابر السبيل وهو يتلمس مقبض الباب ، وخرج الى المجاز المظلم ، ووقف هنيهة بغية الاعتياد على العتمة ، واصغى السمع ، فسمع انفاس لوبا النائمة وفكر بسرور «انها هناك» . وبعد ان مر بالمجاز فتح المزلاج الى الشرفة .

كان الظلام والسكون يسودان القرية . ولم يخلد اهالى بعض البيوت الى النوم ، اذ كان النور مضاءا فيها . وفى مكان بعيد تبادل البعض الاحاديث والضحكـــات . وبلـغ نور القمر اوج سطوعه . لكنه ما برح منخفضا فى السماء ، وامتد ظل البيت الحاد بعيدا وراء الطريق . ووميضت نجوم صغيرة ، وصار الجو باردا . وفى الحقل هدر صوت جرار ، لكن لم يفقه من اية جهة كان يأتى الصوت . وازدادت الاصوات والضحكات اقترابـــا ، وصار يرى بصيص السجاير المشتعلة ، فجفل عابر السبيل من البرد ودخل البيت دون ان يغلق الباب وراءه . وجال فى خاطره «سانتظر برهـــة اخرى ، ولتغط ربة المنزل فى النـــوم ، وعندئذ . . .» ، ثم رقد واغمض عينيه .

سمعت وراء النوافذ اصوات خافتة ، وصدحت الارمونيكا فى لحظة خاطفة بصوت ضعيف . ثم طرق احدهم زجاج النافذة بوجل . اشرأب ايوان بعنقه فرأى وراء النافذة شبحى فتاتين ، وطرقتا على الزجاج مرة اخرى بشعور من الذنب . لكن اهل البيت كانوا غارقين فى سباتهم – لم يحرك احد ساكنا .

– وماذا ؟ – سأل صوت رجل وراء النافـذة . – هل هى نائمة ؟ اذن دعنا نطرق بقوة أشد .

وانهال الفتى بقبضة يده بقوة على الاطار . ثم ضحك وابتعد عن النافذة .

وفكر ايوان بكدر :

– الابالسة جاءت بهم الى هنا .

مشت فى المجاز خطوات اقدام حافية ، ودخلت لوبـــا الى البيت بتردد وما عليها سوى رداء النوم ، وفتحت النافـذة ، وسألت غاضبة :

– ماذا تريدون ؟

وجاء صوت فتاة بتوسل :

– لوبوشكا . كنا نعتقد انك لست نائمة .

وسمع ضحك وراء ركن البيت .

– حقا ، اعتقدنا ذلك . اعطينا المفتاح لكى نرقص فى النادى .

ورددت الفتاة الاخرى بمرح وبتوسل :

– اعطينا المفتاح ، لوبوشكا . والا فاننا فى غاية الضجر ، نحن فى الصيف بينما لانشاهد سينما ولا اى شىء آخر . . .

قالت لوبا بحزم :

– لن اعطيه . اذهبو وناموا .

لم يحرك عابر السبيل ساكنا . فحبس انفاسه وصار يتطلّع الى جسدها الذى اناره القمر والى يديها وكتفيها القوية ونهديها .

وواصل الصوت الثانى باستياء :

– لا نشاهد سينما ولا اى نشاط فنى للهواة . . .

ورددت الاولى بتوسل :

– لوبوشكا ، لمدة ساعة واحدة فقط . الوقت لا يزال مبكرا .

– اى وقت مبكر ، سيحل الفجر عما قريب .

واجابوا من وراء النافذة :

– اين الفجر ، اين الفجر . كوليا ، كوليا ، قل كم هى الساعة الان ؟

فقال احدهم بصوت مبحوح وضحك :

– الحادية عشرة الا عشرين دقيقة .

– لن اعطى المفتاح – قالت لوبا هذا بحزم – فقد منعنى الرئيس من ذلك . واليوم طرحت هذه المسالة فى اجتماع هيئة الادارة . فانتم ترقصون حتى الصباح ، وبعد ذلك لن تنهضوا للذهاب الى العمل . يجب ان تناموا .

اغلقت لوبا النافذة ، ومرقت ثانية الى المجاز وقد بان بياض سمانتى رجليها . وهمست الفتاتان بأمر ما ثم انصرفتا .

وسأل احد ما من وراء ركن البيت :

– لم تعطه ؟

فاجابته فتاة على الفور :

– لا تتبعنى يافتى ، فلا فائدة !

عزفت الارمونيكا وراح صوت متحشرج وملهوف ينشد كلمات اغنية هزلية . ثم تفرقت وتبددت الاصوات وابتعدت ، وعم السكون الشديد المكان . وصاح ديك فى الفناء ثلاث مرات ، فجلس عابر السبيل فى سريره ، ولف سيجارة ، وصار يدّخن بحذر فى باطن يديه والشرارات تتساقط على الارض . وبعد ان انهى التدخين واطفأ العقب فى اصيص الزهر انتظر قليلا ، ثم نهض ودنا من الموقد دون ان يسمع له صوت ودفع ناستاسيا بطرف يده واصغى السمع ، فيما كانت هذه تصفر بانفها فى هدوء .

لحظتئذ خرج ايوان بحزم الى المجاز واغلق الباب وراءه بقوة وشعر بقشعريرة فى بطنه وساقيه ، فمدّ يده وتحرك رويدا رويدا نحو المكان الذى كانت ترقد فيه لوبا .

بعد ان تحسس الفراش جلس على طرفه وسحب الغطاء الخفيف ومد يديه تحت الرداء وراح يمص شفتيها . فاستيقظت لوبا وجفلت وسحبت وجهها من تحت لحيته وضربت عابر السبيل فى صدره بقبضتها وصرخت . وجثم ايوان فوقها بجسده كله وضغط على فمها بيده وهمس قائلا :

– ماذا بك ، ماذا بك ، هذا انا . لا تخافى ، هذا انا .

– دعنى ايها المتشرد ، ياعابد الشياطين .

قالت ذلك لوبا بتمتمة مبهمة وانتزعت نفسها من قبضته وجلست شادة الرداء الى ركبتيها .

فهمس قائلا :

– مهلا . . . ساتزوجك ، لا تصرخى واسمعى ماساقول . . . ساتزوجك ولو غدا . . . وسأحلق ذقنى وساعمل فى الكولخوز . . . – واضاف متذكرا عدم ارتياده الحمام منذ وقت بعيد – وسأذهب الى الحمام . تعالى الى ، سالاطفك .

وصرخت لوبا ، ناهضة من الفراش وقد التصقت بالجدار :

– ماما . . . ابتعد عنى ايها الشيطان الحقير !

وحاولت ان تخفى رعبها منه وراء غلظة وفظاظة كلامها .

وهمس عابر السبيل بكآبة ، مدركا عندئذ فشله :

– سأحبك ! انا شاب معافى ، وتفور فـــى اعماقى قو
الرجولة . وانا مستعد لحلق لحيتى ، ولو الآن ! فكرى فـــ
الامر ، فلا يوجد اى شباب الآن فى الكولخـوز ، وستضيعين
او ستتزوجين ارملا للعناية باطفاله . . . تعالى الى هنا ، هيا
اتريدين سأسجد امامك حتى الارض .

وصرخت لوبا مرة اخرى :

– ماما .

– ما معنى هذا ؟

سمع لغط فى داخل البيت . فهمس عابر السبيل بهـــ
بحدة :

– صه ، انـــت . سأخرج ، سأخرج ، عليـــك اللعنة ،
ياساحرة ، وياشيطانة !

نهض وتلمس طريقه الى الباب ومضى مترنحا فى داخل البيت
المضاء بنور القمر .

وهتفت به ربة المنزل من اعلى الموقد بصوت ناعس :

– من هذا ؟ ها ؟ من هذا ؟

رقد عابر السبيل على السرير صامتا ، وكل كيانه يرتجف ،
واصطكت اسنانه ، وساحت الدموع مـــن عينيه بسبب الاساءة
وخيبة الامل .

وهمس عابر السبيل :

– كلبة ! كلبة حقيرة ، اثارت شهوتى .

سمعت طرقة ما فى المجاز ، وصوت تدحرج شىء ما وهدير .
كما سمعت خطوات فوق السقف ، ثم صدر صرير شىء ما مرة
اخرى وساد الصمت .

ثم همس عابر السبيل خانقا :

– صعدت الى فوق البيت ، الكلبة . وسحبت السلـــم
وراءها . . . ليأخذك الشيطان ، عليك اللعنة !

ودخن مرة اخرى ، دون ان يخفى السيجارة ، مطلقا الشتائم
بهمس . ومضى الوقت مديدا ، وتحـــول نور القمر عن مكانه

ولاحت بشائر الفجر ، فيما اخفق عابر السبيل فـــى الاخلاد الى
النوم ، وراح يتقلب على حشية الريش .

(٥)

ايقظه صياح الديك فى الصباح – اذ صاح منشدا تحـــت
النافذة . ولم يعمد الى الاغتسال ، وتثاءب ومسد شعره بيده .
وجلس طويلا بلا حراك محاولا تذكر ما راوده فى الحلم . بيـد
ان ذاكرته لم تسعفه . واشتدت حرارة الشمس وصار الجو فى
البيت خانقا ، وفاحت فيه رائحة حموضة ، واخذ الذباب يطيـر
فيه ، واصبح كل شىء اعتياديا مملا ، واختفى جو الغموض ليوم
امس . وارتدى ايوان ملابسه وجلس عند النافذة ، وصار يدخن
واستغرق فى التفكير .

ودخلت ناستاسيا الى البيت دافعة الباب بعنف ، ورمقـــت
ايوان بنظرة عابسة وغريبة ودنت من الموقد وتناولـت الملقط
وهدر صوت باب الفرن ، وانحنت وحركت مرفقيها البارزيـــن
بحنق وبهمة . وادرك ايوان فى دخيلته «لقد تحدثت الفتاة اليها
بشأنى . ايه . انها لن تطعمنى الآن ، ولابد لى من الانصراف» .
فنهض وارتدى معطفـــــه ببطء وعلى محياه امارات التوبـــة
المقصودة ، وتناول الكيس ، اما ناستاسيا فكانت تتطلع اليـــه
صامتة مرتكزة على الملقط ، وقد زمت شفتيها .

وعند العتبة اصابت عابر السبيل بهجة مفاجئة ، فانحنى كما
فى المرة السابقة انحناءة شديدة حابسا ابتسامته . وقال بوقار :

– حسنا ، لينقذك المسيح ! لينقذك الرب وليمنحـــك
رحمته . اما انا فساصلى من اجلكم جميعا .

فقالت ناستاسيا بعجلة وقد علتها حمرة قانية واولتـــه
ظهرها :

– اوه ، ايها الفحل الاحمر العينين !

ارتدى عابر السبيل قبعته وخرج الى الشرفة .

وكما هى حاله دائما حين ينصرف من مكان ما اصابه شعور
متزايد بالبهجة والمرح – اذ كانت الطريق تدعوه اليها ، وينسى

الرهيبة كوحش . فكان يعول بكآبة ، ويحطم قضبان القفص ول
يكن بوسع اية تدابير مهما كانت قاسية ان تعيد الى نفس
الهدوء . لكن الرجل ذا الوجه الشاحب كان يأتي ويقف الى جانب
القفص ، ويتطلع الى تيدي ، وفي كل مرة يعود الدب الى هدوئه
بتأثير نظرات عيني الرجل . وبعد ساعة كان يسمح باقتياده الى
البروفة .

اما الآن فلم يعد تيدي يتمرّد ، ويفعل طائعاً شتى الحركات
الخرقاء وغير الضرورية وفي غالب الاحيان حتى المزعجة ، ول
يعد الرجل ذو السراويل البيضاء منذ وقت بعيد يهدده بنظراته
وحين يتحدث عن الدب فانه يصفه ليس بنعت آخر غير تيدي
العجوز الطيب – ويعبر صوته عن الحنان .

وكان تيدي يخرج الى الحلبة بكمامة جلدية وينحني اما
النظارة الذين يستقبلونه بصخب بهيج ، وتقدم اليه دراجة
فيضع ساقه عبر السرج ويدفع نفسه ويضغط على المدوس
بقوة ويتشبث بالمقود بقوة ويدور فى الحلبة . فيما كانت
الموسيقى تصدح عالياً ، اما النظارة فيضحكون ويصفقون
بأيديهم .

كما كان يجيد اداء بعض الحركات الظريفة : بان يتدحرج
فوق اسطوانات بحركات سريعة من ارجله ، ويقف ويتوازن على
لوح معدني خفيف ، ويتصارع مع دب اسود صغير آخر ، بعد
ارتداء قفازين جلديين في رجليه الاماميتين . وقد حرم تيدي من
روح النكتة ، بالاحرى ان النكتة لديه كانت غير ما اعتدناه فهي
مميزة للحيوانات ، ولم يفهم السبب فى ان جميع هؤلاء الناس
يتسلون بهذه الصورة ، حين يؤدي هو باشمئزاز حركاته غير
المريحة والمزعجة .

وفي الليالي غالبا ما كان يصيب الدب الأرق ، اما في الممر
فيضيء النور الخابي لمصباح صغير ، ويشخر بصوت عال
الحارس العجوز الذي تنبعث منه رائحة لذيذة دائمة . فيما كانت
الوحوش تزأر وتوصوص في نومها وتنبعث في الاقفاص الرائحة
الثقيلة الحيوانية . وكانت العتمة تسود ارجاء المكان ، وتعدو فى

الارض جرذان كبيرة وقحة ، فتقف على ارجلها الخلفية ولحظتئذ
تمتد منها ظلال طويلة .

وبعد ان يفكر تيدي ويدمدم لبعض الوقت يقرر ممارسة
العناية بوضع بدنه . فيلحس ارجله وبطنه فترة طويلة
وبانتظام ، وحين تغدو ارجله وبطنه رطبة تماماً ولزقة يشرع في
لحس جانبيه وظهره . لكن لحس الظهر لم يكن مريحاً ، فسرعان
ما يصيبه التعب ، وحينئذ يطلق لافكاره الحزينة العنان .
فيتذكر طفولته وامه – الدبة الحسناء ذات الارجل الناعمة
واللسان العريض الدافئ . لكن تيدي لا يتذكر تقريبا ايام
طفولته ، وكل ما يتذكره هو جدول صغير ضفافه رملية صفراء .
وكان الرمل ناعماً ودافئاً ، كما يتذكر رائحة النمل الحلوة
والحامضة ، والذي لم يتسن له تذوقه منذ ذلك الحين . كما
يتذكر وجبات الغداء اللذيذة التي تقدم له في السيرك احياناً .
فمرة مرض حمار صغير وقضى الليل كله يئن في مربطه ، وعند
حلول الصباح سكت . فجاء رجال عابسون وحملوا الحمار الميت
الى مكان ما ، وفي المساء قدموا الى تيدي ليس حساء شوفان
اعتيادي ، بل قصعة كاملة من اللحم المغلي اللذيذ الرائحة ، وفي
هذا اليوم كان لديه عيد .

وفكر تيدي في امور كثيرة اخرى ، فقد راودته مشاهد ما ،
وملأ قلبه الغيظ والمرارة ، واراد العويل والبكاء والتوجه الى
مكان ما وممارسة فعلة وحشية ما خاصة به ، واطلق تنهدات
عالية طوال الليل ، وفي اليوم التالي كان واهن القوى جداً
وعبوساً ، وتوجه الى البروفة بعدم رغبة .

(٢)

في ذات يوم سافر السيرك الى مكان بعيد بالسكك
الحديدية . فسافر تيدي ايضا . . وقد سافر كثيراً في
حياته ، بحيث لم يعد يعجب لشيء ولم يكن يحب فقط رائحة
البنزين المنبعثة من السيارات .

وكان كل شيء يجري وفق العادة : ففي المحطة توضع اقفاص الحيوانات في العربات ، وينبعث الصراخ والشتائم ويثبت شيء ما بالمسامير ، وعموماً يثار صخب كثير . وفي نهاية المطاف تغلق الابواب على الحيوانات ، وسرعان ما يأخذ كل شيء في الاهتزاز والتأرجح بصورة رتيبة ، وتتولد لديه رغبة شديدة في النوم . وقد تواصل الاهتزاز والتأرجح آنذاك على مدى يومين ، ثم ران السكون . وحين فتحت الابواب وبدأ اخراج الاقفاص من العربات وتحميلها في الشاحنات كان كل ما هناك مغايراً والروائح المنبعثة مختلفة ، لكن تيدي لم يكن يعجب لهذا .

وتقرر اطعام الحيوانات قبل مواصلة الرحلة . وجاء العامل فنظف الاقفاص ثم جلب الطعام . ودس العامل الى تيدي في القفص بشيء من البطاطس المغلية والخبز وبوعاء فيه عصيدة الشوفان ، وانصرف انتباهه للحظة لقضاء أمر من الامور وانصرف ، ناسياً اغلاق القفص .

اما الدب فلم يلق بالا الى الباب المفتوح ، وراح يأكل البطاطس والشوفان بنهم وحتى يدمدم بصوت خافت – فقد جاع كثيراً . وبعد ان تناول غداءه ولعق حواشي فمه ، اخذ كعادته يدفع الوعاء الى الباب وعلى التو لاحظ انه غير مغلق . فعجب غاية العجب ، ومد رأسه الى خارج القفص ، وتطلع في هذه الناحية وتلك ، وتراجع القهقرى ، واضطجع ، مغمضا عينيه . واستنشق الهواء وتطلع حواليه كما لو كان يتذكر شيئا ما ، وامعن الفكر ، ومد رأسه خارج القفص مرة اخرى وقفز من الشاحنة . وعلى الارض تمطى بتلذذ واخذ يدور حول الشاحنة بفضول .

في تلك اللحظة اقترب السائق من الشاحنة . وكان يمسك بقبعته تحت ابطه ، ويمضغ شيئاً ما . وهبت الريح من جهته فتحسس تيدي رائحة السجق ومضى للقائه . وحين رأى السائق الدب كف عن المضغ وجمد ذاهلا في مكانه . وانتصب تيدي على قائمتيه الخلفيتين وصاح بلطف ومودة ولحظتئذ استدار السائق

بسرعة واسقط قبعته واطلق ساقيه للريح متجها الى مبنى منخفض طويل علقت على بابه لوحة ما .

وراح يصرخ :

– النجدة !

فوقف تيدي على ارجله الاربع وابتعد جانباً تحسباً للاحتمالات . وقد اراد حتى العودة الى القفص المعهود لكن في تلك اللحظة خرج اناس من المبنى واخذوا يصرخون على الدب باصوات عالية . والتفت تيدي فزعا ، باحثاً عن وجه معروف لديه بين هؤلاء الناس ، لكن لم يوجد بينهم أحد من معارفه . فارتعب تيدي واخذ يعدو . ومر بمربط الخيل . وعندما رأته الجياد جفلت وصهلت . وعوى تيدي ايضا وزاد سرعته في العدو .

وجرى عبر حديقة منزلية متعثراً بصفوف المزروعات ، وقفز عبر السياج واندفع في الحقول باتجاه الغابة البعيدة . كان يجري بسرعة ، باذنين منتصبتين ، ناخراً ، متحسساً لذة قوية غير مألوفة ، لكنه بعد ان بلغ اولى الشجيرات وهو يلهث ، توقف وتطلع حواليه بخوف : فلم تعد المحطة في مرمى النظر ، ولم يكن هناك بشر ولا سيارات ، بل الحقل العاري فقط وسقوف البيوت البعيدة المائلة الى السواد . شعر الدب بالكآبة ، واعتملته رغبة شديدة في العودة الى السيرك ثانية ، والعيش في الممر المعتم ، وسماع شخير الحارس الطيب الرائحة في الليالي . لقد خشي العودة القهقرى واخذ يدمدم بصوت خافت ، منتصباً على قائمتيه الخلفيتين ومتأرجحاً في مشيته . ثم التفت ونظر الى الغابة ، ونخر عدة مرات ، بغية تنظيف انفه ، واستنشق الهواء . كانت تفوح في المكان رائحة الصمغ الحلوة والفطر ، كما كانت هناك روائح مثيرة كثيرة . وتوجه تيدي الى الغابة . ومضى عبر الشجيرات ببطء وفي كل مرة يبلغ فيها فسحة مكشوفة كان يتطلع الى الخلف عسى ان يرى العامل او الرجل ذي السراويل البيضاء الذي سيقول له بحنان : «تيدي !» . لكن لم يظهر أحد ، ولم يدعوه احد ، وران على المكان السكون ، بينما كان ينبعث

من الغابة نداء جبار بجلاء اكثر فاكثر . وولج تيدي الغابة بشعو
هو خليط من الخوف والفضول .

(٣)

لم يحالف تيدي الحظ . فقد دخل ذلك القسم من الغاب
المأهول بالبشر . وكانت توجد هناك استثمارة لقطع الاخشاب
وجرى فيها قطع الاشجار في مساحات كبيرة ، وصارت عيناه تق
بين الفينة والفينة على أشياء كريهة في الغابة مثل : خط ضيق
للسكك الحديدية ، وقطع من الاسلاك ، وخرق ملطخة بالزيت
ودروب مطروقة بالسيارات والآليات ، وجذوع اشجار ساقط
ذوات رنين ودويّ . ولم يكن في هذا المكان اثر للطيور
والحيوانات تقريباً ، لكن كانت تسمع في الليالي اصوات معادية
للغابة والسكون ، وضجيج المحركات ، وطرقات معدنية
وصفارات قاطرات رقيقة .

كان الجو في الغابة غريباً وغير مالوف بالنسبة لتيدي
وفي بداية الامر كان لا يكف عن التفكير في لقاء البشر ، لكن
اعاقه في الوقت ذاته امر ما عن التوجه نحو اصوات السيارات
وكان كل شيء يثير انزعاجه ، كما انه لم ياكل ، ولم ينم
تقريباً واصابه اعياء شديد . وحاول عدة مرات القيام بالحركات
البهلوانية التي تعلمها ابان حياته كلها عسى ان ياتي اليه احد
ويطعمه . فانتصب على قائمتيه الاماميتين ، وراح يحرك الخلفيتين
في الهواء حتى الانهاك ومشى على هذه الصورة في فسحة الغابة
ثم تقلب عبر رأسه ، ورقص ، وتظاهر بالموت ، وحين عاد الى
الحياة راضياً عن نفسه كل الرضى ، تطلع في كافة الانحاء
منتظرا الهبات . لكن لم يبتهج أحد ، ولم يوجه اليه عبارات
الثناء ، ولم تظهر عصيدة الشوفان السحرية . وتراءت في عيني
الدب الصغيرتين دهشة مشوبة بالكآبة . وفي نهاية المطاف
بعد ان بلغ به اليأس مبلغه بسبب غموض الغابة ، كان لا يجد

مانعاً في المجيء الى البشر ، لكن وقع عندئذ حادث رسخ لديه
الخوف من الانسان .

ففي صباح يوم ما كان تيدي يجوب قاع وهدة واجماً ،
ويستخرج بعض الاعشاب ويأكلها . وعندما رفع رأسه التقى
نظرات رجل كان يقف في الاعلى . فدهش تيدي وأخذ يقف على
قائمتيه الخلفيتين ، وحتى قبع قباعاً من الابتهاج . لكن الرجل لم
يبتهج ولم يقل اي شيء شبيه بلفظة «تيدي» ، كما كان ينتظر
الدب ، — فقد شحب وجه الرجل ، وانتزع البندقية من كتفه
بسرعة ، وصوبها ، ولمع بريق النار ، ودوى هدير حاد ،
وقرص شيء اذني تيدي بشكل مؤلم ، فصرخ وسقط على العشب
وصار يهزّ ارجله الاربع . كان الدب يعوي من الألم والاستياء
والدهشة ، اما الرجل الذي فعل فعلته الشريرة ، فاندفع هارباً ،
وحتى سمع تيدي عبر عويله ، كيف كان يتردد وقع اقدامه ،
وكيف كان يطقطق كل شيء في طريقه .

وبعد مرور لحظة اصاب تيدي الغضب الجامح فانطلق في اثر
الرجل ، بيد ان هذا افلح فى الاختفاء بمكان ما او الهرب ، فلم
يعثر تيدي عليه . ومنذ تلك اللحظة صار يخاف الناس وصار
يجدّ بهمة اكبر في البحث عن الاماكن غير المأهولة والنائية .

لكن وجب على الدب من اجل بلوغ الاماكن النائية والغابة
الحقيقية ، ان يعبر النهر ، وهو امر لم يكن يعرفه ، فصار وضعه
مبئوساً منه اكثر . فجاء الى النهر عدة مرات ، ونظر الى جذوع
الاشجار الطافية في الماء ، واصابته الكآبة ثم عاد الى الغابة مرة
اخرى .

(٤)

انصرم نهاران وليلتان على هذه الحال ، وفي الليلة الثالثة
جاء تيدي الى النهر مرة اخرى وذهل : إذ رسى عند الضفة طوف
وفي وسطه كوخ صغير . وكان نور القمر ساطعاً ، وبدت على
الضفة بيوت خشبية بيضاء ذوات نوافذ سود ، ولم يكن حواليه

تذكر اطلاق النار والبطاطس الباقية على ارضية الكوخ دمدم قليلا ، ثم هزّ جسده عدة مرات وصعد الى أعلى المنحدر ، نحو اشجار الصنوبر والشوح الضخمة والساكنة .

(٥)

كانت الغابة فسيحة الاطراف ، تنداح على مدى عشرات الفراسخ بمحاذاة النهر من أعلاه حتى اسفله . زد على ذلك فهي تصل من جهة الشرق حتى سلاسل جبال الاورال ومن جهة الشمال حتى وهاد التوندرا . وكانت الغابة تمتد فوق التلال ، وفي بعض الاماكن يخلي المجال فيها من اجل البحيرات او الحقول ، التي ترى فيها قرى متناثرة ذوات بيوت مؤلفة من طابقين . انها من الاصقاع النائية التي قلما يأتي اليها البشر ، وكانت مرتعاً لشتى اصناف الحيوانات والطيور .

وكانت تكثر فيها الذئاب والثعالب والسناجب والارانب وتعيش فيها الايائل وحيوانات الوشق ذوات النظرات الغامضة المنبعثة من عيونها الصفراء . ووجدت فيها اماكن وعرة تماماً ، لا يمكن اجتيازها ، وتبقى الاشجار المجندلة ملقاة هناك على مدى اعوام ، فتتعفن وتسوى مع الارض شيئا فشيئا .

كما كانت تحدث هناك حرائق تنشب لاسباب مجهولة كما لو تندلع بحد ذاتها . وحينذاك تجتاح النيران مناطق واسعة ، ملتهمة الاشجار والاعشاب ، وتلقى حتفها فيها آلاف الحيوانات . وكانت النيران تنتقل بدفعات وتخمد تدريجياً ، كما لو أنها تخمد بحد ذاتها ، مخلفة وراءها الفحم الاسود والرماد وبعض الجذوع المتناثرة المحترقة .

وسرعان ما تنمو في الاماكن المحترقة اعشاب كثيفة حمراء صلبة السيقان ، ثم تنمو شجيرات الاس الاسود وعنب البقر فوق المرتفعات ، وكذلك اشجار البتولا والصنوبر الفتية . اما في الحواشي فتنمو شجيرات الورد البري وتوت العليق ، وعندئذ لا يغدو المكان المحترق موحشاً ومفزعاً جداً للحيوانات ، بل

يغدو بمثابة كنز لا ينضب تجد قوتها فيه طيور قطا الغاب العبوسة واصناف الطيهوج الوجلة والارانب . كما كانت الايائل ترتاد هذه الاماكن ايضا ، مخلفة وراءها آثاراً بهيئة حفر عميقة في الطحالب الناعمة المشوبة بالبياض .

وكانت الحياة تفور في الغابة التي لم يعكرها وجود الانسان . حقاً انها تشهد ايضا صراعاً ازلياً . ويسود هناك قانون الغاب والمخلب . وما اكثر العظام والريش التي تعفنت في الاماكن الهادئة بهذه الانحاء الرائعة الجمال . بيد ان الصراع الخطر هناك لم يكن بلا أمل تماماً كحال الصراع مع الانسان .

وفي احوال نادرة جدا كانت تنطلق عيارات نارية هناك . وحين كانت تنطلق يتردد صدى صوتها طويلا وهادراً فوق التلال ، وفوق غابات الصنوبر ذات الرنين ، ويمضي محلقاً فوق النهر ، ويرتد من الضفة الاخرى وقد غدا اكثر ضعفاً وامتداداً ولحظتئذ تسقط السناجب اكواز الصنوبر وتنطلق فوق قمم الاشجار بغية التطلع منها بفضول بالغ . اما الارانب فكانت تنتصب في مرابضها ، وترفع الايائل اذانها مصغية هنيهة ما ، وتنتقل بسكون الى مكان آخر . وتفتح الاوشاق الغافية في الادغال عيونها الصفراء للحظة ، وتهز بعصبية الفرش المتدلية من اذانها ، ولكن الذئاب فقط التي تعرف الانسان خيراً من غيرها كانت تترك كل شيء ، وتهرب ترافقها ظلال رمادية نحو المرتفعات القريبة ، وتتنشق طويلا ، ساعية ، وخائفة في الوقت ذاته ، الى التقاط الرائحة البغيضة للانسان .

كما كانت هناك ينابيع رقراقة هادئة كثيرة . والهواء عليل بالقرب منها في الايام القائظة . اما الوهاد التي تنبثق على حين غرة هنا وهناك دون أن تلحظ ، فتمتد طويلا وبصورة متعرجة باتجاه النهر ، وتنمو فيها هنا وهناك شجيرات عنب الثعلب والحور الصغيرة وكانت حيوانات الغرانيّ والثعالب تحب حفر مغائرها المعقدة في الوهاد . وتقيم الذئاب بالقرب من الجداول هناك .

(٦)

مضى تيدي طوال الليل باتجاه الشمال مهتدياً بضفة النهر اهتداء البحار بالبوصلة . لقد كان يخشى التوغل في اعماق الغابة ، ان الغابة مليئة بالمجهول ، اما النهر فمألوف لديه . وقد مدّ له النهر يد المساعدة مرة ، له ثقة به . ووردت اليه الاصوات والروائح من كافة الانحاء ، التي يتعين عليه تدارسها . وكان يعرف بعضها جيداً . فقد قطع عليه طريقه اثر الوشق مرتين ، وعلى الفور تذكر الوشق في السيرك ، بالرغم من ان رائحة ذاك الحيوان كانت نفاذة اكثر . فالحيوانات في الاقفاص تبعث دائما روائح نفاذة اكثر . ومن ثم افزع طيور الطيهوج التي كانت تقضي ليلتها فوق غصن واطئ لشجرة شوح كبيرة . وفي البداية فزع نفسه ، لكنه سرعان ما استعاد هدوءه ، مدركاً بان هذه مجرد طيور لا اكثر ولا اقل . كما عرف على الفور آثار الثعلب .

وفي نهاية المطاف تعب الدب كثيراً من غزارة الانطباعات الجديدة التي كانت ترغمه على التزام الحذر دوما ، مما جعله يختار مكاناً جافاً في وهدة صغيرة تحميها من كافة الانحاء اشجار الشوح الصغيرة . فرقد ونام حتى الصباح .

انه لشيء غريب ، لكن هذا الوحش الكبير كان عاجزاً تماماً عندئذ في الغابة . فقد كف عن معرفة الغابة ابان سنوات طويلة من الفراق ، ونسي كل شيء من الامور القليلة التي عرفها في طفولته . غدت في حالة سبات جميع الغرائز التي وهبتها له الطبيعة ، وكان يرتبك لاتفه الاسباب التي تتطلب القيام بافعال ما . وشعر دائماً برغبة شديدة في تناول الطعام ، فالمعدة التي اعتادت على الطعام المشبع الوفير غدت فارغة وتوجعه . لكن العامل الذي كان يطعمه في السيرك يوماً لا وجود له هنا ، ووجب عليه البحث عن قوته بنفسه . بينما لم يكن يعرف كيفية القيام بذلك . ولم يعرف ما الذي يمكن اكله .

ولعل ما من احد يتحسس ويدرك ما معنى الام كالحيوانات الوحشية . فالأم تعلم صغيرها الاختباء والقتال والهرب ،

وتشرح له من عدوه ومن صديقه . انها تعرف اين يوجد الأسّ الاسود والنمل ، والتوت البري ، واللحاء اللذيذ والطازج الريان ، ومغارات الفئران ، والسمك والضفادع . انها تعرف اين توجد المياه العذبة ، والاماكن النائية ، وبيوت النمل ، والفسحات التي تغمرها الشمس ، وحيث ينمو العشب الناعم والعالي ، كما تعرف اسرار الروائح والانتقال من موضع الى آخر . كما تعرف ان ما من حيوان في الغابة لن يعيش حتى الهرم والشيخوخة ، اذ تداهم كل واحد منها مصيبة رهيبة ، ويجب ان يكون سريع الحركة وجريئاً وحذراً من اجل المحافظة على نفسه فترة اطول ، ولانجاب الذرية التي ستبقى بعده .

لو ان تيدي لم يشب في حديقة الحيوان ، ومن ثم في السيرك بين البشر ، ولو ان معلمه في الحياة كانت الدبة ، التي تبدي غضباً تجاه الجميع لكنها تغمره ، هو الدب الصغير بعطفها وبحنانها ، لكان الآن قد اصبح وحشاً جباراً ، يعرف كل ما يجب ويمكن ان يعرفه الحيوان الوحشي . لكن تيدي تعلم الحياة من الرجل ذي السراويل البيض ، وسحقت الروح الوحشية المتمردة لديه منذ الطفولة . وسنحت له الفرصة لمعرفة امور كثيرة غير متيسرة ورهيبة بالنسبة لساكن الغابة ، ولا مراء في انه كان في المدينة اكثر حنكة وذكاء من اي حيوان آخر من ابناء جلدته ، لكن ما قيمة معارفه كلها في العالم الذي اضحى فيه الآن !

لقد تحول في الغابة مرة اخرى الى حيوان بائس صغير لا حول له ولا قوة ، ولا يعرف شيئا ويخاف كل شيء . ويكمن الفرق كله فقط في انه الآن ليس دباً صغيراً ، بل دب ضخم ذو مخالب صفراء ، وعجز زال منه الشعر من الجلوس في القفص . كما لم توجد معه الآن امه الطيبة والذكية ، التي كان بمقدورها ان تحميه وتعلمه الكثير .

(٧)

ايقظت الطيور تيدي من نومه . انها طيور صغيرة ، كانت تحلق بحيث لاتكاد تسمع من غصن الى آخر . وبرزت الشمس بعيداً في الشرق من وراء التلال . وساد ضباب شفاف بين اشجار الصنوبر ، ولمع بريق قطرات الطل ، وكان الهواء منعشاً وطلقاً وحين غادر تيدي مكان مبيته ، واصل مسيرته باتجاه الشمال .

كانت ارجله توجعه بسبب التجوال غير المألوف لديه في الغابة ، بيد ان واصل السير قدماً الى الامام بعناد ، لان شيئاً ما لايزال لا يحظى برضاه هنا ، وواصل السير نحو الشمال دون ان يفكر باي شيء ، كما لا تفكر الطيور حين تتجمع في سرب قبيل التحليق . كانت الغريزة الكامنة في اعماقه تقوده الى بلاد عجيبة رائعة ، لابد وان يغمرها نور الشمس ، وفيها الكثير من الطعام والماء العذب والهدوء والسكينة .

في منتصف النهار عبر الدب فسحة مشمسة ، حين بلغت منخريه رائحة زكية ، بعثت في فكره سلسلة من الذكريات ولكن اين مصدر هذه الرائحة الحلوة الطيبة ؟ توجه تيدى نحو الشرق ، ومشى قليلا – فاختفت الرائحة وعاد القهقرى منفعلا وقلقاً – فتحسس مرة اخرى الرائحة المغرية ! عندئذ صار تيدي يدور في المكان ، واحتاج الى وقت طويل من اجل العثور على عش النمل ، اذ كانت الرائحة التي تحسسها هي رائحة النمل ، وتعرف عليه فورا بالرغم من عدم تذوقه له على مدى اعوام طويلة .

ما اروع هذا النمل ! وهل هناك من شيء اطيب مذاقا منه ؟ فالنملات مكتنزة وحامضة ومزغزغة ، وتبعث فورا العطش والشهية وتزيلهما توأ – ويمكن ان يأكلها بلا نهاية !

دس تيدي انفه في عش النمل وحتى قبع من اللذة – فهذه الرائحة المدهشة كانت قريبة جداً . وغاص بأنفه اكثر وتمطق مغمضاً عينيه ماداً لسانه وساحباً اياه . وتغطى بوزه بالنمل الكبير والاحمر اللون فوراً بهيئة منديل حانق وغاضب ، ودخل

في اذنيه ، لكن تيدي كان يهز راسه فحسب ويشد ذنبه ويتمطق بشهية اكبر . وفي نهاية المطاف لم يعد يطيق هذا اكثر ، فجلس على قائمتيه الخلفيتين ، من اجل استرجاع انفاسه . وفي اللحظة نفسها استعاد في ذاكرته شيئا نسيه منذ امد بعيد ، وراح يحفر عش النمل بيده . وفور ذلك التصق النمل بيده ، ولم يتبق له سوى ان يلحسه بلسانه . وكان هذا مريحاً بما لا يقاس – اذ لم يعد النمل يتسلل الى انفه واذنيه ، ولا يدخل في فمه التراب وابر اشجار الصنوبر ، ولم ينصرف تيدي الا حين لم يتبق شيء من عش النمل .

واصل تيدي مسيرته بعد تدمير عش النمل ، فعبر تل عريض نمت فيه غابة كثيفة من اشجار الشوح الجافة ذات القمه العارية ، وسار في الوهدة والتقى حرجاً من توت العليق ولم يغادره حتى حلول المساء .

وفي البداية افزع تيدي تحليق مجموعة من طيور الطيهوج والحباري ، وطرطشة السمك في البحيرات الصغيرة واللغط في الغابة وخشخشة الايائل المارة به . وكانت تخيفه الروائح الغريبة غير المألوفة ، النفاذة والضعيفة التي لايكاد يشعر بها . بيد انه كان يتدارس دائماً ، وبالتغلب على خوفه ، جميع الاصوات والروائح بغية ان يرحب بها بلا خوف او يبتعد عنها او يبدي عدم الاهتمام بها عموماً ، حين تصادفه مرة اخرى .

كان ثمة امر سار واحد في حياته الآن ، ولم يحدسه في بادئ الامر : اذ لم يكن بحاجة الى الخوف من احد سوى الانسان . فلم ترهبه الذئاب ولا الوشق ولا الدلق الصغير الحجم – اى جميع تلك الكائنات الفظيعة التي يلقى منها الامرّين صغار الحيوانات والطيور . فلم يتعرض له احد ، وماكان بحاجة الى الاختباء من أحد ، ولا الهرب ، شاعراً بوقع الاقدام الخفيف والرهيب في اعقابه . بل الامر بالعكس ، كان الجميع يخافونه ، لانه كان هناك ، في الغابة ، دون ان يرتاب بهذا نفسه ، من اكبر الوحوش واكثرها خطرا .

وقد ادرك تيدي هذا في وقت لاحق كثيراً ، حين عثر على جثة ايل نافق ، كان يمزقها اثنان من الذئاب . فعندما راى

الدب الذئبين توقف حائراً . وزمجر الذئبان بحنق وبعجز وابتعدا فورا ، متراجعين امام الدب . وطوال الوقت الذي كان فيه يتمتع باكل الايل ، وقف الذئبان حواليه ، لكنهما لم يتجرأ على الدنو منه . وتولد لديه شعور من الفرح بجبروته ايضا ، حتى عندما شبع حتى التخمة ، وعاد عدة مرات وفي كل مرة رأى بابتهاج كيف كان الذئبان الجائعان يبتعدان عن الجثة لدى رؤيته .

(٨)

واصل تيدي مسيرته نحو الشمال متوقفا في هذا المكان لمدة يوم ، وفي اماكن اخرى لمدة يومين . وصارت اشجار الصنوبر اعلى هامة واكثر ضخامة . وازدادت شجيرات توت العليق والتوت الافرنجي وعنب البقر ، وقل عدد القرى . وكان ينداح حواليه جمال بري لا ضفاف له ، والاماكن العذراء والسكون ، وبدا انه ما كان بحاجة الى شيء آخر . لكن بقيت لدى تيدي في الطفولة المنسية ذكريات رائعة وغامضة الى حد ان كل شيء بدا له ليس كما ينبغي ، —ومضى منطلقاً نحو بلاده هو ونحو ارض الدببة الخاصة به .

وحين وجد تيدي مكانا طيبا جداً ، من وجهة نظره ، بدأ جولة استطلاعية . وصار يقتلع الجذوع القديمة المتهرئة ، ويتلف اعشاش الفئران والسناجب ، ويقلب الاحجار المغطاة بالطحالب البيضاء الجافة ، ويبحث عن البزاق والديدان .

حدث مرة لدى بلوغه بحيرة طويلة ضيقة ان توقف مذهولا لدى رؤيته طرطشة عنيفة . فان اسماك الكراكي ، التي كانت تطلب الدفء في نبات السعد عند الضفة ، وافزعتها رؤية الدب ، صارت تتقافز من وسط الاعشاب وتذهب الى اعماق المياه الباردة . وتجول تيدي على الضفة ، متفحصاً المياه والاعشاب بامعان وغالباً ما كان يتجمد في مكانه ساكناً بلا حراك .

لم يكن قد عرف بعد مذاق السمك ، لكن هاجساً كان يدعوه الى اصطياد احد هذه الكائنات . وفي نهاية المطاف لاحظ الظهر القاتم لسمكة كراكي ساكنة فاخذ يتلصص مقترباً منها ، ولاصقاً جسده بالارض وقد بدا هذا من الجانب مضحكا ، اذ كان يلتصق بالارض فقط رجلاه الاماميتان وبوزه ، اما المؤخرة فكانت محدودبة بارزة وتتارجح بشكل مضحك . لكن الدب كان يتلصص بلا صوت ، وعيناه الصغيرتان تتوهجان بشراسة .

ووجه الدب ضربة سريعة وقصيرة الى المكان الذي كانت ترقد فيه السمكة ، وزمجر ودخل بقائمتيه الاماميتين في الماء . وفي البداية لم يفقه الامر ، هل اصابها اولا ، وواصل الضرب بيديه ، ناثراً الوحل والامواج . لكن ومضت امامه فورا بطن سمكة الكراكي المائلة للبياض والمبرقشة ، فرماها الى البر . واكلها بكاملها دون ان يبقي شيئاً واحتفظ في ذاكرته بمذاق السمك للمستقبل .

لقد تعلم تيدي الكثير في غضون اسبوعين . وصار ينام وراسه دوما في الاتجاه الذي جاء منه ، وعرف ان الفطر لذيذ جدا الى جانب ثمار العليق والجذور . ولم يعد تيدي ياكل كل ما يقع بين يديه بدون تبصر ، كما في الايام الاولى . وعرف ان اكثر الجذور طراوة تنمو في الاماكن الرطبة ، وصار يشرب فقط الماء الجاري النقي وتعلم الاستفادة من الريح . وغدت رهافة حس تيدي افضل ، واخذ يستطيع فعلا تحسس ادق الروائح الجديدة او القديمة . كما عرف بتجربته المرة انه ليس جميع الاشياء في الغابة قابلة للاكل ، وهناك ثمار واصناف فطر يفضل عدم تناولها .

كما اشتد ساعده وصلب عوده ، ولم يعد يصيبه الانهاك بسرعة ، اما بواطن قوائمه ، التي كانت تؤلمه في الايام الاولى ، فقد اخشوشنت الآن ، ونمت مخالبه التي كان يجري قصها في السيرك . وبدا بالسير صامتاً ، دون ان يسمع له صوت تقريباً . وحين كان ينغمس في اللهو فقط يحطم كل ما يلقاه في طريقه ، ولحظتئذ تسمع الطقطقة في الغابة كلها .

في البداية كان تيدي ينام في الليل اكثر ، كما اعتاد في السيرك . لكنه لاحظ فيما بعد ان الحياة في الغابة ليلا ، مشوقة اكثر بكثير مما هي في النهار . وكانت آثار الدلق والارانب والثعالب ليلا اكثر طراوة ، فيما كان يتحرك شيء ما في العشب ، وينشغل احدهم بامرما في وسط الاحراش ، ويعد آخر في الوهاد وفسحات الغابة ، وتنطلق في السكون صرخات غريبة . . . علاوة على ذلك تختفي ليلا جميع اصناف الذباب التي كانت تحاصر تيدي نهاراً . وصار شيئا فشيئا يتجول اكثر ابان الليل ، اما في النهار فيرقد في اماكن خفية .

(٩)

وحدث مرة ان مرّ تيدي بحقل شوفان صغير بعيداً عن القرى ، وفي وسط الغابة ، بالقرب من طريق قديمة مهجورة . فادرك على الفور بان هذا لاينمو لوحده ، بل يرتبط بشكل ما مع الانسان .

ومشى تيدي بمحاذاة الفسحة . وكانت عناقيد الشوفان تدغدغه برفق ، وقد جلب هذا اليه السرور . وبعد ان دار في الحقل دون ان يجد شيئاً ممتعاً بالنسبة اليه انصرف ، لكن بعد فترة وجيزة عاد ، وتغلغل حتى وصل الى الشوفان نفسه فرقد هناك ، في تلك الجزيرة الصغيرة الناعمة التي يضيئها نور القمر ، وصار يصطاد العناقيد بمخالبه وبذلك عرف مذاق الشوفان ، واعاد الى ذهنه على نحو ما عصيدة الشوفان . وفي البداية كان يلتهم كل شيء بنهم – الشوفان والسيقان ، ثم اخذ يمضغ ويمص العناقيد فقط ، ولدى حلول الفجر انصرف ، بعد ان داس واتلف مساحة واسعة من الحقل .

لقد عجبه الشوفان كثيراً ، وبعد مرور يوم عاود المجيء الى

هناك ، واقام وليمة طوال الليل . واراد المجيء الليلة التالية ايضا ، لكن شغله شاغل ما حين ذهب الى مستنقع صغير ، وافزع نحو ثلاثين ضفدعة امضى وقتاً طويلا ايضا فى اصطيادها وتلطخ بكامل جسده بالأوحال ، وفي صباح اليوم التالي انهمك في تنظيف نفسه .

لم يعرف تيدي ان رجالا جاءوا في عربة ذلك الصباح تطلعوا الى الحقل فترة طويلة واطلقوا الشتائم ثم انصرفوا . ولدى حلول المساء جاءوا مرة اخرى حاملين البلطات والالواح . وعملوا كثيرا في صنع شيء ما ، ساعين الى عدم الطرق بصوت عال ، فوق شجرة صنوبر عتيقة يبدو انها كانت مريحة جداً بالنسبة لهم . وكان الواحد منهم يردد قائلا :

– انها تنمو ، كما لو زرعت حسب الطلب .

فيما كانت ترتسم على وجوههم ابتسامات قاسية وغريبة . ثم ابتعد الرجال جانباً ودخنوا والشرارات تتساقط على العشب . وتناولوا بنادقهم من العربة ، وصعد اثنان منهم الى شجرة الصنوبر ، اما الثالث فقد عاد ادراجه . وكان ثمة دلو يقرقع تحت العربة ، واطلق الراكب العائد عقيرته في الغناء وسمع الرجلان الباقيان فترة طويلة القرقعة والغناء .

غمر نور القمر الغابة حين أستيقظ تيدي من نومه . ورقد طويلا في سكون تام ، محركاً راسه فقط ومتشمماً ما حواليه . ثم نهض وتثاءب وتمطى ، تذكر الشوفان فتوجه الى الحقل ، بخطواته الوئيدة والمتارجحة . وفي بعض الاحيان كان يتوقف عندما تجذب اهتمامه رائحة ما ، ويدس انفه في العشب ويتنفس طويلا ويجتث الجذور الحلوة ويتمطق – فلم يكن بمقدوره الأكل بهدوء .

وكان قد بلغ الحقل نفسه تقريباً ، وصار بامكانه حتى ان يرى عبر اشجار الحور شريط حقل الشوفان المائل الى البياض وفيه بقعة سوداء قاتمة فى الوسط ، هى المكان الذى اقام فيه وليمته في ليلتين .

ووجب عليه ان يتقدم نحو عشر خطوات او خمس عشرة خطوة وفجاة توقف في مكانه .

لا ، هو لم يسمع شيئا ولم يتحسس وجود شيء . لكن بدا وكأنه قد تراءى له شبح ما ، واشارة خفيفة الى وجود شيء ما . وحذرته غريزته : اذ تغير شيء ما هنا ابان غيابه عن المكان .

استدار تيدي نحو اليمين ، والتف حول الحقل من الجانب دون ان يغيب عن بصره شريط حقل الشوفان الذي ينيره ضوء القمر . وانتصب الشعر في قفاه ، لكنه لم يزمجر حسب عادته : فقد دعاه هاجس ما الى ان لا يزمجر . كان الحقل خالياً وكل ما حوله ساكناً . وجاء من مكان ما نسيم لايكاد يسمع له صوت ، ولم يحرك تقريباً الاعشاب . فالى هذا الحد كان خفيفاً ، بيد ان رائحة الشوفان صارت اشد ، اصبح انف تيدي اكثر رطوبة وبرودة . لكن تيدي لم يتلمظ ولم يفتح فكيه ، وابتلع اللعاب صامتاً ، ومشى في الطريق الذي يغمره النور ، وتقطعه الظلال الحادة السوداء للاشجار . وعلى الفور انتصب الشعر في قفاه ، والذي بدا وكأنه قد غدا املس . والتقط انفه الرائحة الضعيفة لكن النفاذة لزيت التشحيم والخيل والتبغ والبشر . فتوقف وتشممها فترة طويلة . وفي نهاية المطاف ادرك ان رجالا جاءوا على صهوة الخيل توقفوا هناك ودخنوا ثم انصرفوا . ومضى بجراة اكثر نوعا ما بمحاذاة الطريق ، وعبرها مرة اخرى ، واصبح عندئذ على الجانب الآخر للحقل .

كان قد عرف حق المعرفة وقتئذ ان الرجال الذين جاءوا الى هنا في النهار قد انصرفوا ، لكن الغريب ان الشعور بالخطر لما يفارقه ولم ينزل الشعر المنتصب في قفاه . واراد ان يغادر تماماً المكان الذي يبعث لديه مثل هذا الخوف اذ ان كل مجهول هو خطر ورهيب ، وان يتوجه الى الغابة ، لكنه عاد في اعقاب ذلك وبعد القيام بدورة .

لم يكن لدى تيدي ام ، وما كان بميسور احد تعليمه بان من الواجب الابتعاد فورا عما لا يدرك مغزاه . ولهذا حين عاد وقف طويلا في ظل اشجار الشوح ، وسادت الرائحة ، الرائحة العذبة واللذيذة للشوفان ، على الشعور بالخوف وجذبته اليها واسكرته وسلبته الحذر .

وخرج الدب شيئاً فشيئاً من الظل تماماً واقترب فعلا من العناقيد ، لكن في هذه اللحظة طقطق شيء ما بصوت عال وتحرك في الاعلى ومن الجانب . وما كاد تيدي ليجد الفرصة من اجل القفز اورفع رأسه حتى اندلع وميض كبير وهدرت اطلاقات رهيبة متتالية في سكون الليل . وضرب الدب شيء ساخن في رجله اليسرى الامامية واصابه فسقط تيدي . وكان تيدي قد ادرك حين سمع الطقطقة بانه اسقط في يده ، وبان هذا اخطر اعداءه – اي الانسان .

وينبغي عليه الهرب ، ولهذا فمهما بلغ من الغيظ والحنق في تلك اللحظة الخاطفة اندفع وانطلق في الغابة المعتمة المنقذة . انطلق وهرول بكل ما في وسعه من سرعة ، لكنه في القفزة الثانية سقط مرة اخرى ، مما اثار عجبه نفسه ، وهدر في اعقابه عياران ناريان اخران من شجرة الصنوبر المعوجة ، وصفر شيء بشكل حاد وازّ وطقطق الى جانبه ، وحتى امامه كما يبدو . لكن ما اثار فزعه لحظتئذ ليس اطلاق النار والطقطقة بل عجزه عن الهرب وسقوطه . فاندفع مرة اخرى وقفز بعيداً عن حقل الشوفان ، ومرة اخرى حدث له شيء غير مفهوم وفظيع ودس بوزه في التراب . ووقتئذ ادرك تيدي كما لو ان رجله الامامية مفقودة ، فقد شلت ولم تعد تتحرك ، ولم يكن بالمستطاع الوقوف عليها . عندئذ نقل ثقل جسده الى الرجل الاخرى وهرب بسرعة اكبر فاكبر ، بضجة كبيرة دون ان يتعرف على دربه ، وهو ينخر من الفزع ، ويتأرجح متمايلا في مشيته ، ويتراجع ويسقط على صدره بين الفينة – يجب الهرب من هنا ! وواصل الجري طويلا ، وبدا له طوال الوقت ان هناك شيئاً يطقطق وراءه ويلاحقه . فزاد من سرعة الجري واصابه الوهن . وفي نهاية المطاف حين فقد الامل في الوصول الى المكان المطلوب ، توقف ، وزمجر واستدار للقاء العدو . اخذ يزمجر وجلس ضاغطاً على اذنيه ، وشاداً على رجله التي اخذت تؤلمه بشكل لا يطاق . وكانت عيناه تتقدان شرراً وانتفخت اوداجه وانتصب كل شعر ظهره وجنبيه فزعاً وغضباً . ولم يسمع شيئاً بسبب لغط انفاسه ، وبغية الاصغاء كف عن التنفس .

وبعد ان لم يعد تيدي يسمع شيئاً ولم يصدق السكـــون ، معتقداً ان العدو قد اختبأ ، زمجر مرة اخرى واستدار واخـذ يتراجع ملتفتاً طوال الوقت .

لكن لم يلاحقه احد . فقد هدأت الغابة التي افزعت زمجرته ساكنيها ، ولم يسمع اي صوت . واخذ تيدي يلحس رجلـه ابان سيره . وكان الدم الحار يثير انفعاله ، وخفّ الألم قليلا ، فيما صار يلحس الجرح بهمة متزايدة ، متحسساً شيئاً مـن اللذة في هذا .

وقد انقذه هذا بالذات . اذ مضى الصيادون الذين انتظروا حلول الفجر حاملين بنادقهم متتبعين اثر الدماء ، وحدسوا كل شيء : كيف اندفع وكسر الاغصان ، وحفر الاخاديد في الارض بمخالبه ، والدماء تتناثر على الاعشاب . كما ادركوا انه جلس مواجهاً اياهم : فهناك وجدت دماء كثيرة جداً ، والاعشاب ملتوية ومائلة . وبعد ذلك اصبحت الاثار اضعف وآثار الدماء اقـل ، وسرعان ما اختفت تماما ، وبعد ان فقد الصيادون الآثـار جابوا جميع الوهاد القريبة وعادوا الى قريتهم بخفي حنين .

(١٠)

وفي هذا الاثناء كان تيدي يرقد بعيداً في منطقة جافة مـن الغابة القائمة ويعاني من الآلام . فقد ورمت رجله وما برحت تؤلمه . ولم يستطع طوال اليوم مغادرة مكانه . وحلّ الليل ، لكن الألم في رجله قد حال بين الدب واخذ غفوة . وعلاوة على ذلك سيطر عليه هاجس آخر جديد . لكنه كان عاجزا عـن القيام باي شيء ، بل عمد الى التشمم بقوة اشد ، محاولا ادراك سبب هذا الهاجس . اذ ساد السكون في الغابة على حين غرة ، واختبأ كل ما فيها من كائنات ، ولم يسمع ادنى صوت ، وقـد اثار هذا السكون المطبق الضيق والقلق لدى الدب اكثر فاكثر .

واجتاح الغابة شيء خطر ، وبات الجو وخيماً . وفي البداية لمع البرق قليلا ثم ازداد اكثر فاكثر ، مطوقـاً نصف الافق .

وكانت البروق تندلع بلا صوت وبغموض ، ولم تكن تـــرى بسبب كثافة اشجار الغابة . وكانت قمم اشجار الصنوبر فقط تضاء بنور شاحب وميت . ثم اخذ الرعد يهدر شيئاً فشيئـاً بصوت خافت . واجابه تيدي بدمدمة كئيبة . وكان يتململ قلقاً تحت شجرة الشوح التي لاذ بها . واراد ان يختبىء بعيداً اكثر فاكثر في مكان ما ويلتزم الصمت لان السكـــون الرهيب كان يسود المكان ، وهدير الرعد يتردد من بعيد بجلاء اكثر فاكثر وبوضوح متزايد . ولكن لم يكن هناك ملجأ يختبىء فيـــه ، فالتصق بالشجرة بقوة اشد فقط .

وسرعان ما اجتاحت العاصفة الرعدية المكـــان ، وتلفعت النجوم بالغيوم بين اغصان الاشجار ، وقطعت العتمة البـروق البيضاء ضاربة في اماكن ما في التلال المجاورة . وفرقع شيء ما وهدر بحدة وبشكل رهيب : «تاخ – اغرر – باخ» ، كما لو كان سعالا . هبت من الغيوم الرياح العلوية ، فردت اعالي اشجار الصنوبر والشوح عليها بالحفيف والهمس ، اما تحتهـا فكان الجو هادئا ولم يتحرك اي شيء . واندفعت الريـــاح وتساقط المطر في اعقابها فوراً تقريباً . لم يكن ذلك بالمطر الاعتيادي يخرخر فوق اوراق الاشجار بخفر وبرفق ، والمألوف لدى تيدي – بل ان هذا المطر انهال على الغابة دفعة واحـدة وملأها بلغط المياه المتساقطة ، ولم يسمع شيئاً باستثناء هذا اللغط ، فيما عدا الرعد الذي كان غالبا ما يطغي على كل شيء بهديره الظافر .

ولم تتوقف العاصفة الرعديـــة الا عند حلول الفجـــر ، وحينذاك امتلأت الغابة بالحركة بعد ان غمرتها اشعة الشمس ، وكانت القطرات اللامعة تتساقط من الاغصان العليا على السفلى ومنها الى الاعشاب ، وامتصت الارض جميع القطرات ، فيما ساد حفيف حيوي الغابة كلها طوال الصباح .

مسكين ، مسكين يا تيدي ! كان قد عذبه الألم والخوف من العاصفة الرعدية والبشر . ولم يعرف طعم النوم فتـــرة طويلة ، واصابه البلل وحلت به الكآبة ، وكان يجلس وراء شجرة الشوح العتيقة ولم يستطع الابتهاج بطلـوع الشمس ،

ولـــم يستطع بسبب الألم حتى التفكير في الذهاب الى مكان ما والبحث عن طعام يتناوله . ورقد على هذه الحال عاجزاً وحيداً النهار وليلة اخرى ، ونهارا آخر ، وحتى صار الجرح يندمل في نهاية المطاف ، واجبره الجوع الشديد على مغادرة المكان الذي اختبأ فيه .

واخذ يجوب التلال ، بصورة ما ، ماشياً على ثلاث ارجل ، عابساً وملتزماً الحيطة والحذر ، وكانت تثير غيظه جميـــع الاحراش والاغصان الجافة والجذور او مجرد الاعشاب العاليـة الخشنة التي تعلق برجله المصابة ، لكن مضت عدة ايام اخرى ، وبدأ الدب يقف عليها بحذر ، وغادرته الافكار السوداء تدريجياً واصبح مرة اخرى رائق المزاج ومبتهجاً .

لكن حدث له مرة اخرى ان التقى البشر . فقد كان يمضـي بمشيته الوئيدة متهادياً بالقرب من ضفة النهر . وكانت الليلة دافئة ، ولقي في طريقه الكثير جداً من توت العليق ، لكـــن تيدي كان منزعجاً : فقبل هذا لاحق طير طهيوج ناعساً كان ينام على شجرة صنوبر : كان الطير يصطفق بجناحيه بحركات خرقاء ، ويندس تحت الاغصان ، ويرتطم بالاشجار ، ويسقط ، بينمـــا كاد تيدي ان يمسك به عدة مرات ، لكن الطيهوج طار مع هذا الى شجرة حور . ولم يتمكن تيدي من قنصه . فأصابه الغيظ عندئذ .

بعد ان هبط الدب المنحـــدر شرب الماء مـــن جدول ، وصعد الى الجانب الآخر وعلى حين فجأة شعر برائحة الدخـان وسمع اصوات البشر . وتوجه رويداً رويداً نحـــو الدخـــان وسرعان ما بلغ فسحة في الغابة كان لهيب النار يتأجج فيهـا بنور ساطع ، ونصبت فيها خيمتان وتطعم الجياد التي ربطت قوائمها بحبال . كانت هذه بعثة علمية ، لكن تيدي لم يعرف هذا طبعاً ، وجلس لدهشته البالغة من اجل التطلع الى كـــل شيء بصورة افضل . كان يجلس والبشر يتحركون عند النـار وهم يتبادلون الاحاديث بصوت عال ويضحكون . وتـــراقصت ظلالهم الكبيرة على الاشجار .

مشي تيدي نحو طرف الفسحة ثم فكر ودنا مـــن الخيمتين

وفجأة اصابه الحنق بشكل مفاجيء بالنسبة له وزمجر . وفي تلك اللحظة شخرت الجياد فزعاً وتجمعت سوية وخرج كلب مـــن وراء الخيمتين واندفع نحو تيدي بقفزات كبيرة ، لكنه توقف عن العدو بعد ان قطع نحو عشر خطوات ، واخذ ينبح بغيظ وجبن . فتراجع تيدي قليـلا وحاول التقرب من الخيمتين من الجهـة الأخرى ، لكن الكلب قطع عليه الطريق مرة أخرى . واندفـع البشر من جهة النار ، ودخل اثنان الى الخيمة وانطلقا من هناك حاملين بندقيتين . وحالما لاحظ تيدي الومضات الحمراء الخارجة من البندقيتين استدار واطلق سيقانه للريح . وهرول الكلب وراءه دون ان يتخلف عنه مبتهجاً بالنصر وبالمطاردة ايضـا . وعندما بلغ تيدي الحاشية استدار نحو المستنقع ، ثم اصابه الغيظ وقابل الكلب . وعلى الفور صمت الكلب واندفع باقصى سرعة نحو الخيمتين . واراد تيدي التوجه وتهديم المخيم . لكنه تذكر البندقيتين . فتوجه نحو النهر وانهمك في البحث عـــن طعام .

حوالي مائتـــي فرسخ مضى الدب نحو الشمـــال دون ان يتوقف في اي مكان لفترة طويلة . ولم يعد الآن بـلا حول وقوة كما في الايام الاولى . وصار يتشمم الروائح ويتعرف عليها . ولم يعد يدهش كثيراً لامر من الامور . فيما أخذ يدرك افضل فافضل جملة الاشياء والظواهر المحيطة به . وهكذا علم ان من الواجب في كافة الاحوال الوثوق بطيور ابي زريق والعقعـــق ، بالرغم من انهما يعتبران من احمق الطيـور . وتعلم استكنـاه سبب هذه او تلك من صرخات اهل الغابة ، واذا ما لاحظ من بعيد غراباً جالساً في اعلى شجـرة يابسة ينهمـــك في تنظيف منقاره ، وتحته قليـلا تجلس العقاعق متدلية الاذناب وبلا حركة متطلعة الى الاسفل – فلا بد له ان يتوجه الى هناك حتى دون ان يستعين بحاسة الشم ، لانه كان يعرف بان الطعام يتوفـر دائما حيثما توجد غربان شباع . ولم يكن تيدي يجيد كـــل الاجادة تسلق الاشجار ، لكن اذا ما لقي في طريقه شجرة صنوبر متفرعة الاغصان ومريحة ، فلن يفوت ابداً الفرصة لتسلقهـــا والتطلع الى اطراف المنطقة من قمة الشجرة .

ولم يكن يحب فقط حين تبدي طيور ابو زريق والعقعق اهتماماً ملحاً جداً به نفسه . وكان يسعى الى التهرب منها ، ويزمجر ، واذا لم تتركه لشأنه وتلاحقه بالصراخ محلقة من شجرة الى اخرى ، فان تيدي يفكر قليلا ثم يختبئ وينتظر ، وبعد ذلك يتفحص المكان بمكر ، ويتطلع الى الاشجار القريبة ، واذا لم ير ملاحقيه اللجوجين يجار بارتياح ويواصل طريقه . ويعد ان عرف خلال فترة وجيزة ذلك القدر من الاشياء والذي لم يعرفه ابان وجوده في المدينة ، وصار قوياً شديد البأس وحذراً ، تحول – كما يمكن ان يتراءى هذا من الجانب – الى حيوان وحشي حقيقي . بيد ان الامر لم يكن كذلك تماما .

وحدث في صباح احد الايام ان جاء تيدي الى جدول لشرب الماء وتوقف ، كما لو ضربته صاعقة : اذ شعر بوجود رائحة دب بالقرب من الجدول ! وكانت تلك الرائحة قديمة ، لربما انصرمت ثلاثة ايام على ذلك الوقت حين جاء الى هنا دب آخر . لكن هذه الرائحة الضعيفة كانت تحمل في طياتها خطراً عظيماً ، مما جعل تيدي ينسى عطشه ويتفحص المكان طويلا ، ولم يعد بمقدور شعر ظهره ان يتهدل ابداً . اذن لم يكن الوحيد الذي ملك الغابات ، بل كان هناك آخر . والآن يتعين عليه الاحتراس منه . ومنذ ذلك اليوم لم يعرف تيدي الطمأنينة .

وصار اكثر فاكثر يرى اعشاش النمل المهدمة وشجيرات توت العليق بعد امتصاص ثمارها وتكسير اغصانها ، ونتوءات عنب البقر المأكول . وعندما التقطت مناخيره من بعيد رائحة حيوان نافق واقترب تيدي من المكان تبين ان الدب الآخر كان في هذا المكان قبله ، ولم يبق من الحيوان النافق سوى الرائحة فعلا . والآن صار يتحسس في كل مكان من الغابة رائحة الدب الآخر ، وجعلت هذه الرائحة تيدي يستشيط غيظا . وتراكم غضبه وصار حاداً ومتواصلا لدرجة انه سرعان مابات واضحاً لديه : ان المكان لايتسع لهما الاثنين ، ويجب على احدهما الرحيل . لكن لو كان الوضع هناك سيئا لانصرف تيدي دون تردد . بيد ان الاحوال هناك كانت طيبة جداً ، وثمة كثير من

الطعام ولهذا عقد تيدي العزم على طرد عدوه ، وصار يجدّ في لقائه .

وفي بعض الاحيان كان يجد اثاراً حديثة العهد لغريمه ، وغالبا ما كان يلتقي الاثار القديمة له . لكن لم يتسن له ابداً رؤية الدب نفسه .

وحدث اللقاء بصورة مفاجئة . اذ كان تيدي يتجول لاختيار في الصباح مكاناً يستلقي فيه طوال يومه ، وعبر فسحة صغيرة وسط اشجار صنوبر مغشية بالطحالب البيضاء الجافة ، حين بلغت منخريه على حين غرة رائحة دب قريبة وكريهة . فرفع تيدي راسه وتطلع الى مصدر الرائحة ، ورأى غريمه في نهاية المطاف . آه ، كيف سيذيق هذا الوقح علقة ساخنة ! وكيف سيحطم عظامه . وتالقت عينا تيدي وتطاير منهما الشرر غضباً . فاختفى غريمه للحظة وراء اشجار الصنوبر ، وخرج الى الفسحة . . .

كان وحشاً هائلا ، حتى ان تيدي جمد في مكانه كالارنب . ومنذ لحظة واحدة فقط كان نفسه حيواناً متوحشاً يتملكه الحنق ويتعطش الى القتال . لكن ماذا تعني وحشيته بالنسبة الى وحشية عدوه ! لقد كان هذا وحشاً حقيقياً اشعث الشعر وذا لحية ومخالب حديدية ، مفتول العضل ، ينظر نظرات قاسية شرسة ، حتى ان تيدي ، وهو وحش كبير ايضا ، قد صعق رعباً .

وقف الدب ، وقد خفض راسه الى الاسفل ، ولهذا بدا احدب ، وقف صامتاً وتطلع نحو تيدي مباشرة . وقبل ان يبدر منه اي صوت ، وتحدث اية حركة ، ادرك تيدي ان عليه بالذات ان يغادر هذا المكان الجميل . وهل كان بمقدوره حتى ولو التفكير في منافسة هذا العملاق الرهيب .

كما ادرك الدب في اللحظة نفسها ما ادركه تيدي . والاكثر من ذلك انه ادرك بان تيدي قد ادرك هذا ، لا ، هو لم ينقض على تيدي من اجل ان يقتله ، بل زمجر بصوت خفيض فحسب . وكانت زمجرته اضعف كثيراً من اضعف زمجرة تنطلق عن تيدي . ويتراءى للانسان دائما ان زمجرة الوحوش واحدة ، لان

اذنه غير قادرة على تمييز ادق التلاوين في الزئير . اما تيدي فقد فهم على التو مراد الدب . اذ ان زمجرته ، المكبوتة ، وحتى التي تنم عن شيء من الاحتقار ، كانت تعني باقتضاب : «اغرب عن وجهي !» . فيما كان يعني عدم اطاعة هذا الامر بالنسبة الى تيدي ان يخرّ بعد لحظة صريعاً فوق الطحالب الجافة البيضاء بعد ان تدق عنقه ويمزق صدره . ولم يبدر عن تيدي اي صوت جواباً عن ذلك . بل استدار على اعقابه ومضى مبتعدا بسرعة . وحين اختفى في الغابة تقريباً التفت لآخر مرة : كان الدب واقفاً بلا حركة كالسابق وبدا بمثابة كومة دريس محدبة امام خلفية جذوع الصنوبر الكثيفة .

رحل تيدي الى الابد من هذا المكان الغزير الموارد ذي النمل الاحمر وعنب البقر القرمزي ، رحل من اجل الا يلتقي في الطريق سيد المنطقة الملتحي . فقد تبين انه الاضعف في الصراع من اجل الحياة وخسر المعركة . علماً ان بوسعه القول عن حق بأن الحظ قد حالفه .

(١١)

تساقطت الاوراق جميعها تقريبا من اشجار البتولا والحور ، وتوسدت الارض كبساط سميك ينبعث منه حفيف . فيما كانت الطيور تتجمع في اسراب ، وانتهى موسم توت العليق ونمت اصناف الفطر بوفرة وبدأت فترات الصقيع الاولى في الفجر حين بلغ تيدي فسحة واسعة في صباح احد الايام بعد ان عبر الكثير من التلال ، واستدار باتجاه يمين نهر كبير على امتداد مجراه .

وكانت مياه الجدول تنساب في الاسفل وتئز بهدوء اشجار الصنوبر الضخمة وتفتحت آخر ازهار الاقحوان متطلعة بنهم نحو اشعة الشمس الخابية . وفي كثير من الاماكن كانت ضفاف الجدول تتالف من رمل ذهبي ناعم ، عليه آثار طيور الطيهوج الاسود ، والمياه تترقرق بانغام عذبة متواصلة ، وادرك تيدي

فجأة بعد ان توقف في الفسحة بانه وجد ارض الميعاد ، وفي نهاية المطاف وصل الى مرتع طفولته . ولم يكن ثمة مايغريه بالذهاب الى مكان آخر ، ولم يرغب في الذهاب الى اي مكان ، وانتهت رحلته .

وكان هنا كل شيء يشبه تماما ما عرفه منذ زمن بعيد ، وحين لم يكن لتيدي إسم بعد ، بل كان دباً صغيراً احمق لا غير ، وحين كان يلتهم حتى التخمة النمل والتوت الفرنجي وتغسله امه طويلا في الجدول ماسكة اياه من تلابيبه ، ومن ثم كانت تلحس بشدة بطنه المنتفخ بلسانها الوردي الطويل . لقد كانت تلك الايام سعيدة الى اقصى حد . والآن بدا وكان تيدي قد عاد اليها . . . بيد ان الامر لم يكن كذلك ، طبعا . لا ، لقد ضاعت الطفولة في مكان ما ، في الضباب العكر للزمان ، ولن تعود ولن ترجع ولن تتالق اشعة الشمس والاعشاب . آه ، لكم يتمنى ان يعود الى طفولته ، وان يجد امه ، وان يبكي عند جنبها الناعم ! لكن هذا مستحيل ، وآسفاه . . .

واصل تيدي التنقل ليلا ونهارا وجاب كافة انحاء هذه المنطقة ، مؤشراً لنفسه حدود ضيعته . ودرس الجداول والمستنقع والوهاد والمراعي النضرة والمرتفعات والاماكن النائية . ولقي جملة من آثار الذئاب والايائل والسناجب وكلاب الماء والارانب . وقد تجاهل بعضها بلا مبالاة ، فيما كانت الاخرى تثير ازعاجه ، وصار يحفر وينثر التراب او ينتزع لحاء الاشجار من اجل الاعلان عن حقه في السيادة على الارض والغابة وحتى الهواء نفسه .

وكانت تحلق أمام عينيه مباشرة طيور القطا والطيهوج الاسود ، مستثيرة الاوراق الجافة ، مولدة صوتاً قوياً غير اعتيادي ، لكن الآن لم يعد يثير عجبه اي شيء ، وتقبل كل شيء كأمر واجب ومألوف منذ زمن بعيد . ولم يتشمم اكثر بقلق وفضول الاثر الذي خلفه حيوان ما ، بل يقول فقط لنفسه بصورة عابرة : «هنا مضت الايائل . وعددها ثلاثة» ، او : «لقد مر ثعلب ، وكان في عجلة من امره كثيرا ويحمل حجلة بين اسنانه» .

واكتسب فراءه لون الجوز ، ونما وصار منفوشاً كثيفاً ولامعاً : ولم تعد يده تؤلمه ، وصار الآن يستخدمها حين يتطلب الامر اجتثاث جذمة او قلب جذع شجرة ثقيلة سقطت في وقت ما . واخذ يمشي كثيراً جداً ، تدفعه شهية شديدة . لكن كان يتوفر هناك كل شيء بما يكفي ، وحتى كان غالباً ما يشعر بالارتياح الكبير شاعراً بكونه حراً وقوياً اكثر من اي وقت مضى !

ان الحرية لشيء عظيم ! فهي كالشمس في السماء الفسيحة المرصعة بالنجوم وكالنسيم الدافئ المعتدل او الماء الرقراق الجاري بسرعة .

ولا داعي للخوف من اي احد ، ولا حاجة لعمل ما لا تريد عمله ! وبوسعك النهوض متى ما تريد ، والمضي الى اي مكان تريد ! وبوسعك التوقف والتأمل طويلا في سرب اوز يحلق فوق النهر ، وبوسعك صعود التل ، المنكشف امام الرياح جميعاً . وهناك تشم جميع الروائح ، فانتق لنفسك اية رائحة منها ، واذهب الى حيث تناديك !

وبوسعك تسلق اجمّة حيث تكثر الاشجار الجافة ، المجوفة والمنخورة بالديدان ، والتمتع بقوتك الطليقة الجبارة ، وجندلة هذه الاشجارة اليابسة والميتة ، فتتساقط مولدة طقطقة بائسة للغاية !

حلّ نوفمبر – شهر الزمهرير الشديد ، – وبدأ الموسم الخريفي لزواج الايائل . وكان تيدي لدى تجواله فوق التلال يصغي بانزعاج الى نهيقها . ورأى عدة مرات من بعيد ايلا عملاقاً كبير القرون . وكان ، قد اضاع كل حذره ، يتمشى في وسط غابة صغيرة متسلقاً المرتفعات الممتدة اليابسة ، ويشخر ويواصل النهيق بلا توقف تقريباً . وصار الدب يضيق ذرعاً شيئاً فشيئاً بهذا الضجيج الى جواره . وكان تيدي ينسى الحذر احياناً ويصخب ، لكنه لم يعد يطيق صخب الغير وسرعان ما حقد عليه كما حقد في زمن ما على الدب .

وحدث مرة ان صادف اثاراً طرية للايائل وادرك على الفور ، بأنها ذاك الايل العملاق واناثه . وفي ذلك اليوم كان مغتاظا جداً ،

واعتملته على الفور الرغبة في طرد هذا الوقح ، فنثر بحنق براز الايائل ومضى في اثرها مسرعاً . وحين تسلق المرتفع فقد الاثر فهبط ثانية ، وقام بنصف دورة كبيرة فاحس مجدداً برائحة الايائل . وسرعان ما وقع بصره عليها . لقد كانت ترعى في وسط اشجار حور متفرقة ، مادة شفاهها المخملية الى الاغصان الواطئة .

فزمجر تيدي واندفع نحوها . وفرت الاناث مبتعدة ومضت نازلة بقفزات كبيرة الى الاسفل ، اما الايل الذكر فقد خرخر فجأة وانطلق لمواجهة الدب . بالطبع ، كان سيمضي في اثر الاناث لو حدث ذلك في وقت آخر . اما الآن ، وبعد الانتصارات الكثيرة ، وقد غلبت عليه حمى الغرام ، فانه اندفع لمواجهة العدو ، وتقابلا في الفسحة .

وزمجر تيدي غاضبا . واجاب الايل بشخير ترافقه انفاس متقطعة . وكان جلده باجمعه يرتجف تعطشاً الى القتال . واحمرت عيناه ، واهتز منخراه ، وحملت الرياح بخار انفاسه الخفيف . كان في عزّ قوته ، وقرناه المسطحان ضخمان وعنقه متين وعجزه خفيف وممتلئ .

لم يتوقع تيدي هذه المواجهة ، فذهل ، لكنه لم يرتعب ، بل توقف فقط ، كما لو كان يتأمل في كيف سيهاجم بصورة مريحة اكثر . لكن الايل فسّر هذه الوقفة على طريقته ، وعلى حين غرة خفض راسه وشخر واندفع نحو الدب . ولم يجد تيدي الفرصة لتفاديه ، فسقط بتأثير الضربة . وفور ذلك جثم الايل فوق غريمه المهزوم ، وكان تيدي سيلقى حتفه عندئذ لو طعنه الايل في راسه . لكن الايل لم يصبه في راسه ، كما كان يهدف ، بل اصابه في كتفه . وصمد عظم الدب المتين للضربة ، ولم ينكسر ، لكن لم يعد ثمة مجال للقتال عندئذ ، وكان يكفيه فقط ان ينجو بجلده !

حين رأى الايل انه لم يصب مرامه كما اراد ، فاندفع نحوه مرة اخرى ، لكن تيدي تراجع ، وعندئذ اخطأ الايل هدفه تماما .

وخفض الايل راسه واندفع كما في المرة الاولى فابتعد تيدي جانباً وهرب الى ماوراء شجيرة ، بينما لم يستطع الايل التوقف

دفعة واحدة . لحظتئذ استدار في اعقاب الدب فيما هرب الاخير بكل قواه وهو يعرج الى الاسفل . نصر ، نصر باهر حققه الايل الوسيم ، لكن هذا لم يعد يكفيه ، فقد اراد ان يقضي على عدوه ، او ان يطرده بعيداً عن المكان . فانطلق في أثره . ولحق به بسهولة ويسر . وافلح في توجيه عدة ضربات اليه في سياق الحركة ، ثم توقف فجأة كما لو تذكر شيئا ما ، فرجع الى اناثه ناخراً بمنخريه . اما تيدي التعيس فقد بلغ مكاناً كثيفاً تراكمت فيه بقايا جذوع الاشجار ، وكان مثخناً بالجراح وصار مدة طويلة يئن ويتمخط ويتنفس بتثاقل ، معانياً من آلام هزيمته . فمنذ فترة وجيزة طرده شر طردة الدب الملتحي ، والآن يطرده الايل . . . وكان اسوأ ما في الامر انه يتعين عليه الآن الاحتراس من جميع الايائل عموما : فما دام قد هزمه أيل ما ، فمعنى ذلك ان بوسع الايائل الاخرى فعل الفعلة ذاتها معه . وصارت حياته لاتطاق منذ ذلك اليوم . ومما زاد الطين بلّة ان آثار الايائل كانت تصادفه طوال الوقت . وسواء كان يمشي لتناول عنب البقر او الى عش النمل او الى النهر لشرب الماء ، تجده لدى مشاهدة الآثار يعود ادراجه ويبتعد .

لكن لم يستمر هذا الوضع الصعب طويلا . اذ استيقظت في اعماقه فجأة جميع الوحوش اجداده ، وصاروا يطالبونه غاضبين بان يجد عدوه ويذبحه . فاخذ يجوب الغابة ملاحقاً الايل ، وينشب مخالبه بحنق في الارض والاشجار معلناً عن سيطرته على المكان ، وينصب الكمائن التي كان يربض فيها بلا حراك تماماً الساعات الطوال . وحدث مرة ان شاهد اثار ايائل كثيرة عند الجدول فجثم وسط الاحراش واخذ ينتظر . كان راقداً ملتصقاً بالارض وعيناه تراقب الدرب من بين الاغصان . ووجدت في كل مكان طبقات ثخينة من الاوراق الرطبة . وكانت الاشجار عارية وتتجلى اشجار الشوح الكثيفة الاغصان والغامقة الالوان بوضوح على الاخص في الغابة التي تلفعت بغطاء شبه شفاف . وفي الصباح كان الصقيع متجمداً اما الآن فاخذ بالذوبان . وكان الجو غائماً وبارداً .

في النصف الثاني من النهار سمع من الاعلى صوت خرخشة

خفيفة وتمخط . فرفع تيدي رأسه واشراب بعنقه متشمماً الهواء . واحس برائحة الايائل . فتوترت اذناه ، وانتصب الشعر في قفاه . والتصق بالارض واستجمع قائمتيه الخلفيتين تحت بطنه . وتوقفت الايائل نحو مرتين . ماذا كانت تفعل — هل كانت تصغى الى الاصوات ام تقطع بعض الاغصان ؟ هذا ما لم يكن يعرفه تيدي . وربض صابراً . وفي نهاية المطاف لاحت من وراء الاغصان في الاعلى قرون ثم الايل نفسه . ومشت وراءه ثلاث اناث . وتوقفت ونظرت الى الاسفل بامعان ، مع تحريك اذانها ، ثم اخذت في النزول : كان الايل يسير في المقدمة ووراءه الاناث . مع هذا شعر الايل بوجود الدب فجمد فى مكانه . واندفع تيدي من مكمنه مطلقاً عويلا مخنوقاً ، وخرخر الايل وهاجم الدب . فافلح هذا في الابتعاد جانباً وتوجيه ضربة بمخلبه الى جنب الايل . وبدا ان ضربة اليد المتعظمة كانت خفيفة وعابرة ، لكن تمزق جلد الجنب فوراً ، وتدفقت الدماء . وحين بلغت تيدي رائحة الدم ازداد شراسة . واراد لاول مرة في حياته ان يمزّق اللحم الحيّ ، وان يسمع حشرجة ضحيته حين تكون في النزع الاخير . وفي هذه اللحظة استدار الايل وهاجم مرة اخرى وكان الدب ثقيلا ، لكن الايل اسقطه ارضاً بضربة من قرونه القوية وكانه قطة صغيرة . فتدحرج تيدي كما في المرة السابقة ، لكن ظهر عندئذ جرح جديد على عنق الايل . واندفع تيدي واطلق اكبر زمجرة له ، جعلت جسده كله يرتجف معها ، وقفز على الايل محاولا الانقضاض عليه من الجانب حيث ادرك ان القرون هي ذلك السلاح الذي يعجز عن مواجهته .

وواصلا القتال مجتثين العشب اللين الجاف والتراب ، محطمين كل ما يوجد حولهما ، لكن بدا واضحاً ان الايل قد اصابه الوهن . وكان الدم يتدفق من جراحه الكثيرة ، والبخار يتصاعد من جسده كله في الجو البارد . وفي نهاية المطاف افلح الدب في الانقضاض على الايل من الجانب وتشبث بقفاه المتين وفي الوقت نفسه مزق جانبي الايل بقائمتيه الخلفيتين . ثم واصل الدب التمسك بالقفا باسنانه وبيده اليسرى والزمجرة عبر اسنانه المزمومة ، ووجه بقوة رهيبة ضربة من يده اليمنى الى عنق الايل

ومدها الى الاسفل محطماً فقراته ، فانهار الايل وسقط . ومزق الدب صدره ، لكن الايل حاول النهوض مع هذا ، وبطنه ممزق ورقبته محطمة ، والتخلص من الدب – فقد كان قوياً جداً ! وصار تيدي يدمدم ويسعل ويبتلع دم غريمه الصريع ، ولم يعد الى صوابه لبرهة من الزمن .

وبعد ذلك ، زمجر الدب للحظة ، واختفى في الغابة . لكنه عاد وحاول جرّ الايل . كان القيام بهذا صعباً وليس مريحاً . وعندئذ اخذ يغطي الايل بالاغصان الساقطة والاوراق . وبعد ان دفن غريمه الميت كيفما اتفق ، وحفر الارض حوله ، انصرف نهائياً . لم يعلمه احد القيام بذلك . وقبل هذا لم يفعل ذلك ابداً . لكنه صار يعرف الآن بوجوب القيام به .

بعد يومين كان تيدي قد نسى امر الايل ، ومر بالمكان صدفة . ونقلت الرياح الى انفه الرائحة الحلوة المذاق . وعلى الفور تذكر كل شيء ، وجاء فاكل حتى شبع . وقبل هذا جاءت الذئاب الى الايل – وقد عرف تيدي ذلك من آثارها . ولهذا لم يذهب الى اي مكان واستغرق في النوم في مكان قريب . واخذ يأتي الى الايل على مدى اسبوع كامل وينام هناك ، متحسساً انه سيد المنطقة كلها ، وان ارضه مصانة مثل ارض الدب الملتحي .

(١٢)

انصرمت فترة من الزمن ، واحس تيدي ، لآخر مرة ، وكأنه جرح قديم ، بالحنين الى الانسان . ودفعته قوة ما ، اكثر جبروتاً من الغريزة ، للخروج من الغابة على حين غرة . وكما كان يبحث منذ فترة وجيزة عن الوحدة والحرية ، صار الآن يبحث عن لقاء البشر .

ومشى اربعة ايام باتجاه جنوب الشرق ، حتى بلغ في نهاية المطاف موضعاً مكشوفاً . ورأى امامه تلا كبيراً منحدراً شيئاً فشيئاً ، وبدت على التل الحقول الخضراء للمحصول الخريفي ، بينما كانت بالقرب من الاجمة التي توقف فيها تيدي ثمة طريق

واسعة ، غالباً ما كانت تنطلق فيها السيارات او تمر العربات ببطء .

وقف تيدي فوق الاجمة منتصباً على قائمتيه الخلفيتين ومتارجحاً في حنينه الى البشر . لكنه لم يكن بحاجة الى انسان فحسب بل الى الانسان الجبار ذي السراويل البيضاء . وكان بحاجة الى ان يدنو هذا الانسان منه وان يحك رأسه وراء اذنيه ، وان يقول له بلطف : «تيدي !» – وان يضع بيده القوية قطعة سكر بين فكيه . . .

وواصل الدب وقوفه هناك طويلا ، ولم يكن البتة تيدي ذاك السابق ، كما لو كان قد ادرك المغزى الغامض العظيم للحياة ، وفي الوقت نفسه يودع الماضي الى الابد . ولم يذهب الى الطريق للقاء البشر ، ولم يقم باية حركة من الحركات البهلوانية المضحكة التي تعلمها في السيرك . كان يشعر بالوحشة صامتاً . ثم حدث كما لو ان شيئاً قد تحول في اعماقه ، كما لو استقط عن كاهله آخر ثقل ، وانقطع آخر خيط يربطه بالبشر ، فانصرف راجعاً الى الغابة .

وبعد مضي اربعة ايام عاد الى منطقته .

صار البرد يشتد يوماً بعد يوم . وكان تيدي يكثر من النوم وقلماً يجوب المكان . وفي الفجر كانت البحيرات الصغيرة والبرك تتغطى بطبقة من الجليد الرنان ، اما الجوع ، الذي كان يسيطر على تيدي دوما فقد تراجع فجاة الى المرتبة الثانية . واخذ يقلقه اكثر فاكثر شيء آخر . وفي السيرك لم يسمح الى تيدي بالسبات شتاء – اذ كان ينبغي عليه المشاركة في عروض السيرك . لكنه اخذ هنا يخضع الى قوانين الغاب . واراد السبات . وواصل المشي كما لو كان يجري مسحاً للمنطقة ، لكن بدا كل شيء له اما غير مريح واما غير مستتر .

وحدث مرة ليلا ان تساقط الثلج ، وفي الصباح غدت الطبيعة بيضاء . اما التلال البعيدة فبدت مضببة ، وشعر تيدي برغبة اكبر في النوم : وحتى اثاره نفسه على الثلج لم تدهشه . واستلقى مرة تحت شجرة شوح فوق الاوراق الجافة ، ونام على مدى ثلاثة أيام . لكنه استيقظ فيما بعد ، وتجول مرة اخرى

في مكان ما ، متطلعاً بكآبة الى الغربان السوداء الكثيرة الحركة فوق الثلج الابيض .

فى نهاية المطاف وجد ما كان يصبو اليه . وكانت عبارة عن حفرة عميقة ، مغطاة بالاوراق وابر الصنوبر المتساقطة . ونمت فوقها الشجيرات ، وعلاوة على ذلك سقطت فوقها شجرة شوح منشورة . وكان الانسان قد نشر جذع الشجرة في وقت ما ، وقطع قمتها بينما ترك الجذع الاسفل . وانهالت ابر اغصان الشجرة في الحفرة ، لكن الاغصان كانت كثيفة جدا ، حتى ان تيدي لم ير السماء تقريبا حين اختبأ تحتها . ومع ذلك شعر بعدم ارتياح ، فخرج منها مرة اخرى ، وصار يجمع ويكوم الاغصان الجافة من الاعلى ، وفي المساء فقط اندس تحتها . وهناك تململ طويلا ، ولم يستطع الرقاد بشكل مريح ، وفي نهاية الامر رقد ، وبدا ان كل شيء على ما يرام ، وبدأ يلحس جسده . وسادت العتمة شيئاً فشيئاً وتساقط الثلج بهدوء ، وحين غمر الظلام المكان تماماً وفقد الثلج في قمم اشجار الصنوبر لونه الليلكي الاخير استسلم تيدي الى السبات .

فماذا كان يرى في احلامه ؟

هل كان يحلم بالسيرك وحياة الفنان الطويلة ، التي يبدو وكانها منقسمة الى عتمة الممر والضوء الساطع في الحلبة ! هل كان يحلم بالسفر والعربات وطقطقة العجلات وروائح الفحم والبنزين ، وبالبشر الضاحكين والصارخين بغضب ، والرجل ذي السراويل البيضاء ؟

أم كان يحلم بالحياة الحرة الجديدة ، وبالنمل الحلو المذاق ، وبالجداول الرقراقة الباردة المياه ، والعاصفة الرعدية الرهيبة ، وبالدب الذي طرده ، وبالقتال مع الايل ؟

وهل كان يحلم بطفولته ؟ وهل كانت تصل اليه في مغارته روائح الغابة اللذيذة والحكيمة والتي تناديه ؟

من يعلم ! لم يستيقظ في اليوم التالي ولا في اليوم الثالث . . . واستمر الثلج في السقوط ، بمرور كل يوم اصبحت الاغصان ناعمة والدروب وعرة غير سالكة واشجار الصنوبر والشوح موشاة بالبياض اكثر ، وبقيت اشجار البتولا وحدها

عارية ، وفي الامسيات كانت تجلس عليها طويلا طيور الطيهوج الاسود . وحل الزمهرير القارس ، واجتاح الغابات الشتاء الروسي الحقيقي .

اما تيدي فكان يغط في سبات عميق أشد ، واصبحت انفاسه اندر ، ولم يعد البخار يتصاعد فوق الحفرة ، وسرعان ما غدا من العسير الحدس بوجود المغارة المغطاة بالثلج الا عن طريق الصدفة ، عن طريق ماسورة جليدية صغيرة ناجمة عن تنفسه وعن طريق الصقيع المشوب بالصفرة فوق الاغصان .

١٩٥٦

أزرق وأخضر



(١)

قالت بصوت ناعم وعميق : «ليليا» ، ومدت لي يداً صغيرة حارة .

فامسكت بيدها بحذر ، وضغطتها واخليت سبيلها . وتمتمت عندئذ باسمي . وبدا انني حتى لم افقه فوراً ، بان من الواجب ذكر اسمي . وتراءت اليد التي تركتها لتوه بيضاء في العتمة . وفكرت في دخيلة نفسي : «يالهـــا من يد رقيقة ناعمة ، وغير اعتيادية !» كنا نقف في قاع فناء طويل . وما اكثر النوافذ في هذا الفناء المربع المظلم : فثمة نوافذ زرق وخضر ووردية ، ومجرد ابيض . وترددت الموسيقى من نافذة عميقة في الطابق الثاني . وقد شغلوا الراديو هناك ، وصرت اسمع الجاز . انني احب الجاز جدا ، لا ، ليس الرقص – فانا لا اجيـــد الرقص – بل احب سماع الجاز الجيد . والبعض لا يحبه ، لكنني احبه . لا اعلم ، فلربما هذا شيء سيىء . وانا اقف واصغي الى موسيقى الجاز من الطابق الثاني ، الصادرة من نافذة عميقة . يبدو ان فيها جهاز راديو ممتاز .

بعد ان ذكرت اسمها حلت فترة صمت مديدة . انا اعلم بانها تنتظر مني شيئا ما . لربما انها تعتقد بانني سابادر بالحديث ، وساقول كلاماً ظريفاً ، ولربما انها تنتظر كلمتي الاولى ، او سؤالا ما ، من اجل مبادلتي الحديث . بيد انني التزمت الصمت ،

وكنت بكل كياني خاضعاً لسلطـــة ذلك الايقاع غير الاعتيادي وصوت البوق الفضي الجرس . شيء جميل ان تعزّف الموسيقى وان استطيع السكوت !

في نهاية المطاف تحركنا . وخرجنا الى الشارع المضيء . كنا اربعة : صديقي مع فتاته ، وليليا وانا . وتوجهنا الى دار السينما . انها اول مرة اذهب فيها الى السينما مع فتاة . واول مرة تعرفت عليها عن طريق الاصدقاء ، فيما مدت هي يدها لي ، وذكرت اسمها . وهو اسم رائع تلفظ به صوت ناعم ! وها نحن نمضي سوية ، وغرباء عن احدنا الآخر تماما ، وفي الوقت ذاته من المعارف الغرباء . ولم نعد نسمع الموسيقى ، ولم يتبق لي ما اتستر به . وتاخر رفيقي مع صديقته . واخذت لفزعي امشي بخطوات بطيئة ، لكنهما كانا يمشيان ابطأ . وانا اعلم بانه كان يفعل هذا عن قصد . وهذا شيء سيىء جدا من جانبه – ان يتركنا لوحدنا . ولم اتوقع منه ابداً مثل هذه الخيانة .

ما الذي يمكن ان اقوله لها ؟ ما الذي تحب ! ورمقتها بنظرة جانبية حذرة : عينان ساحرتان تنعكس فيهما الانوار ، وشعر اسود اظنه قاسياً جداً ، وحاجبان متصلان كثيفان يكسبها مظهراً حازماً للغاية . . . لكن كان خداها متوترين لسبب ما ، كما لو انها تغالب الضحك . فما الذي بوسعي قوله لها ؟

وفجاة سالتني :

– هل تحب موسكو ؟

واخذت تنظر الي بكل صرامة . فيمـــا جفلت انا بسبب صوتها الناعم ، ان كان لدى احد آخر مثل هذا الصوت .

التزمت الصمت برهة مسترجعاً انفاسي . وفي نهاية الامر استجمعت قواي . نعم ، طبعاً ، انا احب موسكو . واحب بالاخص ازقة اربات وبولفاراته . لكنني احب الشوارع الاخرى ايضا . . . ثم لزمت الصمت مجدداً !

وصلنا الى ميدان اربات . واخذت اصفر ودسست يدي في جيبي . دعها ترى ان التعرف اليها ليس شيقاً الى هذا الحد . فتصوروا اية شخصية !

في نهاية المطاف بميسوري الانصراف الى بيتي . فانا اقطن

قريباً من هنا . وليس من الضروري ان اذهب الى السينما حتما ، ومعاناة عذاب رؤية خديها وهما يرتجفان .

لكننا جئنا مع ذلك الى دار السينما . بقي نحو ربع ساعة على بدء العرض ووقفنا في وسط البهو واخذنا نصغي الى المغنية ، لكن غناءها لم يكن يسمع جيداً : اذ كان عدد الناس غفيراً بالقرب منا ، وكانوا جميعاً يتبادلون الاحاديث باصوات خفيضة . وقد لاحظت منذ وقت بعيد ان الواقفين في البهو لا يسمعون الاوركسترا جيداً . ولا يصغي ويصفق سوى الواقفون في المقدمة . اما في الخلف فهم يتناولون الايس كريم والحلوى ، يتحدثون باصوات منخفضة . بعد ان قررت بانني لن اسمع المغنية مع هذا كما يجب اخذت اتطلع الى اللوحات . ولم اكن قد ابديت سابقاً اي اهتمام بها ، لكنني الآن صرت امعن النظر فيها بكل اهتمام . وبدأت افكر بالرسامين الذين رسموها . يبدو انه لم يكن عبثا تعليق هذه اللوحات في البهو . شيء جميل ان تعلق هنا .

كانت ليليا تتطلع الي بعينين رماديتين ساحرتين . ما اجملها !

بالمناسبة انها ليست جميلة البتة ، بل مجرد ان عينيها ساحرتان وخديها ورديين مشدودين . وحين تبتسم تظهر غمازات في الخدين ، فيما ينفصم الحاجبان ، ولا يبدوان صارمين بهذا القدر . كانت ذات جبهة عالية وملساء . ولا تظهر التجاعيد فيها الا احياناً . اظنها تفكر فيّ هذا الوقت .

لا ، لا استطيع الوقوف معها اكثر ! لماذا تراها تتفحصني بهذه الصورة !

وقلت بلهجة متقطعة :

– سأذهب . . لا دخن .

وتوجهت الى غرفة التدخين بلا مبالاة . وهناك جلست وتنفست الصعداء . غريب ، لكن حين يوجد دخان كثير في الغرفة ، ويصبح الهواء اسود تماماً من الدخان ، لا أجد لسبب ما رغبة في التدخين . واخذت اتطلع حوالي : ثمة اناس كثيرون بين جالس وواقف . وكان بعضهم يتحدثون بهدوء ، بينما

الآخرون يدخنون بعجلة صامتين ، ساحبين الدخان بنهم ، رامين باعقاب السجاير قبل اكمال تدخينها ويخرجون بسرعة . الى اين هم مسرعون ؟ طريف ، ان دخن الانسان بنهم تصبح السيجارة حامضة ومرة . ان افضل شيء هو التدخين بلا عجلة وليس كثيراً . ونظرت الى الساعة : لقد بقيت خمس دقائق على بدء العرض ، لا ، اظنني مع هذا احمق . الآخرون يتعارفون بكل يسر ، يتبادلون الاحاديث ، ويضحكون . والاخرون ظرفاء جداً ، ويتحدثون عن كرة القدم واي شيء . ويتجادلون بصدد السيبيرنيتيكا . وانا ماكنت لاتحدث مع فتاة عن السيبيرنيتيكا ابداً . اما ليليا فهي قاسية ، حسب ما اقرر ، وشعرها قاس . اما شعري فهو ناعم . واظن ان هذا السبب في كوني اجلس وادخن ، بالرغم من عدم رغبتي في التدخين ابداً . لكنني مع هذا ساجلس فترة اخرى . وماذا سافعل في البهو ؟ هل سانظر الى اللوحات مرة اخرى ؟ لكنها لوحات رديئة ، ولا يعرف لاي غرض علقت . وحسنا جداً انني لم الاحظها من قبل .

وفي نهاية المطاف دق الجرس . وخرجت من غرفة التدخين متمهلا جداً ، وبحثت عن ليليا في الحشد . ومضينا الى قاعة المشاهدين دون ان ينظر احدنا الى الآخر وجلسنا . ثم اطفأت الانوار وبدأ عرض الفيلم .

وحين خرجنا من السينما اختفى صاحبي تماما . وقد اثر فيّ ذلك تاثيراً بالغاً حتى انني كففت عموماً عن التفكير باي شيء . وصرت امشي والتزم الصمت لا غير . ولم يكن هناك احد تقريبا في الشوارع . والسيارات تنطلق بسرعة . وينعكس صوت اقدامنا عن الجدران رناناً ويسمع من بعيد .

وهكذا وصلنا الى بيتها . ووقفنا في الفناء مرة اخرى . الوقت متاخر ، ولم تعد جميع النوافذ مضيئة ، وازدادت العتمة في الفناء اكثر مما كانت عليه الحال قبل ساعتين . وانطفأت نوافذ بيضاء ووردية كثيرة ، لكن الخضر ما برحت مضيئة . كما تضيء النافذة الزرقاء في الطابق الثاني ، ولكن الموسيقى لاتنبعث منها . ووقفنا برهة من الزمن صامتين تماماً . وكان سلوك ليليا غريباً ، فاذا بها تتطلع الى النوافذ كما لو انها تحصيها ، واشاحت بوجهها

عني تقريباً ، ثم بدأت بتسوية شعرها . . واخيراً قلت بلا مبالاة جداً ، وكما لو كان هذا بالمناسبة ان علينا الالتقاء مرة اخرى غداً . وكنت سعيد جداً لان الظلام يلف الفناء ولم تر اذني الملتهبتين .

فوافقت على ان نلتقي . وبوسعي المجيء اليها ، فان نافذتها تطل على الشارع . ولديها عطلة ، وقد سافر اهلها الى البيت الريفي ، وهي تشعر بشيء من السأم . وسيسرها التنزه .

واخذت افكر هل من الاحتشام ان اصافح يدها لدى التوديع . لكنها مدت نفسها يدها الرفيعة ، التي بدت بيضاء في العتمة ، وشعرت مرة اخرى بدفئها وثقتها بي .

(٢)

في اليوم التالي جئت اليها في النهار . وكان يوجد في الفناء يومئذ كثير من الاولاد . واثنان منهم مع دراجتين : لقد كانا يعتزمان الذهاب الى مكان ما ، او انهما قد رجعا منه ؟ اما الباقون فكان يقفون لمجرد الوقوف . وتراءى لي انهم جميعاً ينظرون الي ويعرفون سبب قدومي . فلم استطع المجيء اليها عن طريق الفناء ، فاقتربت من نوافذها من جهة الشارع . وتطلعت الى النافذة وسعلت .

سالت بصوت عال : – ليليا ، هل انت في البيت ؟ ووجهت السؤال بصوت عال جداً ، ولم يرتجف صوتي . هذا شيء رائع حقاً ، ان لم يتهدج صوتي .

نعم ، انها في البيت . ولديها صديقتها . وهما تتجادلان بصدد شيء ما هام ، ويجب علي المجيء لحسم هذا الجدال .

ودعتني ليليا قائلة : تعال بسرعة !

لكنني لم اكن اطيق المجيء عن طريق الفناء ، وليس بمقدوري ابدا المجيء عبر الفناء .

وقلت بحزم : – سآتي اليكم عبر النافذة ! – وقفزت الى

النافذة . وقد قفزت الى النافذة بكل يسر وجمال ، ومددت ساقي عبر رف النافذة وحينئذ فقط لاحظت الدهشة الساخرة للصديقة وحيرة ليليا . وحدست على الفور بانني فعلت فعلة خرقاء ، وجمدت في مكاني على النافذة : وكانت احدى ساقي في الشارع ، والاخرى في الغرفة . وجلست هناك وانا انظر الى ليليا .

فصاحت ليليا : – هيا ، اقفز اذن ! – وانطبق حاجباها واصطبغ خداها بحمرة أشد .

وتمتمت وانا اتظاهر بالتعالي : – انني لا احب الجلوس في الغرف صيفاً . الافضل ان انتظركما في الشارع .

وقفزت من النافذة وتوجهت الى البوابة . ما أشد ضحكهما سخرية بي الآن ! انا اعرف بان الفتيات قاسيات دائما وهن لا يفهمنا ابداً . ولماذا اتيت الى هنا ؟ وما الذي دعاني الى ان اكون موضع سخرية ! الافضل لي ان انصرف . ولئن جريت الآن ، فيمكن بلوغ نهاية الشارع والانحراف وراء الركن ، قبل ان تخرجا . فهل سأجري ام لا ؟ واستغرقت في التأمل هنيهة : هل سيكون هذا شيئاً مناسباً ؟ ثم التفت فشاهدت ليليا . كانت قد خرجت مع صديقتها من البوابة ، وتطلعت الي ، وبدا الضحك مازال مرتسماً في عينيها ، بينما تلاعبت غمازتان فوق خديها .

ولم انظر الى الصديقة . فلماذا تراها آتية معنا ؟ وماذا سافعل معهما الاثنتين ؟ والتزمت الصمت ، بدأت ليليا بمحادثة صديقتها . واخذتا تتحدثان وانا صامت وحين مررنا بالملصقات الاعلانية ، وقراتها بامعان . ويمكن قراءة الملصقات الاعلانية ، احياناً من النهاية ، وعندئذ نحصل على الفاظ مضحكة صادرة عن الحنجرة . وبلغنا ناحية الشارع ، وعندئذ اخذت الصديقة تودعنا . فرنوت اليها بامتنان . انها جميلة وذكية .

انصرفت الصديقة بينما توجهنا نحو تفيرسكوي بولفار . ما اكثر العشاق الذين تنزهوا في تفيرسكوي بولفار ! وها نحن الآن نتمشى فيه . حقا اننا لسنا من العشاق بعد . لكن ربما نحن عاشقان ايضا ، وانا لا اعرف . وكنا نسير متباعدين جداً عن احدنا الآخر . . بحوالي متر عن احدنا الآخر . وكانت اشجار الزيزفون قد سقطت ازهارها . لكن الازهار كثيرة في احواض

الزهور . وهي بلا رائحة تماما ، واغلب الظن ان ما من احد يعرف اسماءها .

وتحدثنا كثيراً جداً . ولا يجوز ابداً ملاحظة التتابع في احاديثنا وفي افكارنا . لقد تحدثنا عن انفسنا وعن معارفنا ، وانتقلنا من موضوع الى آخر ، ونسينا ما كنا نتحدث عنه قبل لحظة مضت . بيد ان هذا لم يربكنا ، ولدينا الكثير من الوقت ، وامامنا امسية طويلة ، طويلة ، ويمكن ان نستعيد في ذاكرتنا ما نسيناه . كما ان الافضل تذكر كل شيء فيما بعد ، ليلا .

وعلى حين غرة لاحظت ان ازرار فستانها قد انفتحت . كان فستانها طريفاً ، ولم ار مثيلا له لدى اي احد ، فثمة دبابيس دقيقة مثبتة فيه من الرقبة حتى الخصر ، وقد انفتحت عدة دبابيس ، بينما لم تلاحظ في ذلك . لكن لا يمكن لها ان تمشي في الشارع بفستان مفتوح ! فكيف ساابلغها بهذا ؟ ربما اتولى نفسي تثبيتها ؟ فاروي لها شيئا مضحكا واثبت الدبابيس كما لو كان ذلك امرا اعتياديا تماما . لكم سيكون هذا طيبا . لكن لا يجوز القيام بهذا ابداً . هذا مستحيل فحسب . عندئذ أشحت بوجهي عنها في انتظار توقفها للحظة عن الكلام وقلت لها ان من الواجب تثبيت الدبابيس . فصمتت فوراً . بينما كنت اتطلع الى لافتة كبيرة معلقة على السقف . وكتبت فيها عبارة تقول ان بوسع كل فرد ان يكسب مبلغ مائة الف روبل . انها لافتة متفائلة جداً . كم اتمنى لو نكسب نحن هذا المبلغ .

وبعد ذلك شرعت التدخين . واطلت التدخين فترة مديدة جداً . وعموما ان افضل شيء ممارسة التدخين في اللحظات الصعبة جميعاً . فهذا يساعد كثيراً . وبعد ذلك كنت ارمقها بنظرات خالية من الجراة . كان الفستان مزرراً . وخداها متوردان بحمرة قانية ، وعيناها صارتا سوداوين وصارمتين . انها ترمقني ايضاً ، بشكل وكانني تغيرت كثيراً . او انني عرفت شيئاً هاماً يخصها . الآن اخذنا نسير متقاربين اكثر من احدنا الآخر .

تعاقبت الساعة تلو الساعة ونحن نواصل المشي ، ونتحادث ونمشي . ويمكن التجول في موسكو الى ما لا نهاية . وبلغنا ساحة بوشكين ، ومنها توجهنا الى ساحة تروبنايا ، ومنها مضينا عبر

شارع نيجلينكا نحو مسرح البلشوي ، وبعد ذلك الى جسر كاميني . . . كنت مستعداً للمشي الى ما لا نهاية . وانا اواصل الاستفسار منها فقط فيما اذا اصابها التعب . لا ، انها ليست تعبانة . والنزهة ممتعة جداً بالنسبة لها . ثم انطفات الانوار في الشوارع . واخذت السماء ، التي كانت بانتظار حلول الظلام ، تهبط نحو الاسفل وازداد عدد النجوم . ثم بدا الفجر الهادئ . وكان العشاق يجلسون في البولفارات متلاصقين . وهناك عاشقان فوق كل مصطبة . وكنت انظر اليهم بحسد وافكر فيما اذا كنا ، انا وليليا ، نجلس كما يجلسون .

كانت الشوارع خالية من الناس ، وهناك رجال الميليشيا فقط . انهم جميعا ينظرون الينا . وبعضهم يسعل حين نمر بهم سعالا له اكثر من مغزى . اظنهم يودون قول شيء ما لنا ، لكنهم لا يقولون شيئاً . وكانت ليليا تخفض راسها وتسرع في المشي . فيما كان الامر يبعث على الضحك لدي ، ولا اعلم السبب . وبعد ذلك اخذنا نمشي جنبا الى جنب قريباً . وكانت ذراعها تمس ذراعي احياناً . انها لمسات غير ملحوظة تقريبا لكنني اتحسسها . في نهاية المطاف نفترق في فناء بيتها الهادئ الذي تتردد فيه الاصداء . الجميع نيام . ولا توجد نافذة مضيئة واحدة . وخفضنا اصواتنا لحد الهمس تقريباً ، لكن الكلمات كانت تسمع مع هذا عالية ، ويتراءى لي ان هناك من يتصنت الينا .

عدت الى البيت في الساعة الثالثة . وعندئذ فقط شعرت بالتعب في قدمي . اذن ، فالى اي حد بلغ بها التعب . اشعلت مصباح المنضدة وبدأت بالمطالعة . كنت اطالع رواية «قصر برودي» التي اعارتها ليليا الي . وهذا كتاب ممتاز ، وصرت اطالع بيد انني كنت ارى ولسبب ما وجه ليليا دائما واحياناً اغمض عيني فاسمع صوتها الناعم الحنون . واعثر بين الصحف على شعرات طويلة سوداء . انها شعرات راسها ، فهي طالعت «قصر برودي» . ولماذا قررت ان شعرها قاس ؟ انه شعر ناعم جداً وحريري الملمس . وقمت بلف شعرة ووضعتها في احد مجلدات الموسوعة . وبعد ذلك ساخفيها بشكل افضل .

طلع الفجر كاملا ، ولم اعد استطيع المطالعة ابداً . كنت مستلقيا واتطلع الى النافذة . نحن نعيش عاليا جداً في الطابق السابع . وترى من نوافذنا سقوف مباني كثيرة . وفي الافق حيث تشرق الشمس صيفاً ترى نجمة برج الكرملين . وترى نجمة واحدة فقط . انني احب النظر طويلا الـــى هذه النجمة . وفي الليالي حين يسود الهدوء بموسكو اصغي الى دقات ساعـــة الكرملين . وفي الليل يسمع كل شيء جيداً . كنت اصغـــي واتطلع الى النجمة وافكر في ليليا .

(٣)

بعد اسبوع سأسافر مع امي الى الشمال . انني حلمت طويلا بهذه الرحلة – منذ مطلع الربيع . ولكن الحياة في القرية الآن مترعة بمغزى واهمية على الاخص .

انها اول مرة الج فيهـــا الغابات ، الغابات المتوحشـــة الحقيقية ، وتعتملني في كل اعماقي فرحـــة المكتشف . ولدي بندقية صيد – لقد اشتريت لي حين انهيت الصف التاسع – وانا امارس الصيـــد . انني اتجول لوحدي تمامـــا ولا اشعر بالوحشة . واحياناً يصيبني الانهاك ، وعندئذ اجلس واتطلع الى النهر العريض والى السماء الخريفية الواطئة . اغسطس . ان الطقس غالباً ما يكون رديئاً في الشمال . لكنني اغادر البيت في الطقس الرديء والمشمس في وقت مبكر صباحاً واتوجـــه الى الغابة . وهناك اصطاد واجمع الفطر ، او مجرد اتجول من فسحة الى فسحة في الغابة ، وارنو الى ازهار الاقحوان البيضاء التي يكثر وجودها هناك . وما اكثر الاعمال التي يمكن ممارستها في الغابة ! يمكن الجلوس على ضفة البحيرة ، ساكناً بلا حراك . فتاتي البطات طائرة وتهبط قريبة مني تماماً ، مطلقة بطبطـــة مبحوحة . وتراها في البداية تعوم واعناقها ممدودة ، ثم تاخذ في الغوص وطرطشة الماء ، ثم تعـــوم جماعـــات ووحدانـــاً . فاتابعها بعين واحدة دون ان ادير رأسي .

وبعد ذلك تطلع الشمس من وراء الغيوم ، وتخترق اشعتها الاوراق المدلاة فوق رأسي وتمد انامليها الذهبية المرتعشة في اعماق المياه . ولحظتئذ تتجلى السيقان الطويلة الصدئة لزنابق الماء . وتتراءى اسماك كبيرة بالقرب من السيقان . فتتجمد بمكانها تحت اشعة الشمس دون ان تحرك اية زعنفة ، كما لو انها تطلب الدفء او تنام . وتثير مراقبتها عجبي . وحين يرنو المرء اليها يتجمد نفسه ، ويبدو له ان كل هذا يحدث في الحلم .

ما اكثر ما يمكن للمرء ممارسته في الغابة . فيمكن الاستلقاء فحسب ، والاصغاء الى حفيف اشجار الصنوبر والتفكير في ليليا . ويمكن حتى مبادلتها الحديث . فاحدثها عن الصيد وعن البحيرات والغابات وعن الرائحة المدهشة لدخان البندقية ، فيمـــا هي تفهمني بالرغم من ان النساء عموماً لايحببن الصيد ولا يفهمنه .

في بعض الاحيان كنت اعود الى البيت ليلا . فامضي عبر الحقول واحس بشيء من الخوف . انا احمل بندقية صيد محشوة ، لكنني مع هذا غالباً ما التفت الى ورائي . ان الظلام شديد . وفي السماء فقط يمكن ملاحظة نور ضعيف لو امعنت النظر فيها . لكن الظلام دامس جداً على الارض . وتحوم فوق رأسي البوم دون ان يسمع لها صوت . انني اراه . لكن مهما اصغيت فانني لا افلح في سماع حفيف اجنحتها . وحدث مرة ان اطلقت عليها النار . فارتطمت البومة بصوت خافت اصم فوق الارض غير المحروثة بين الحقول . وواصلت طويلا فيما بعد الطقطقـــة بمنقارها .

بعد شهر عدت الى موسكو . ومضيت الى ليليـــا ، حال قدومي من المحطة ، وما كدت اضع الحقيبة في البيت . كان الوقت مساء ، والنور يضيء في نافذتها – معنى هذا انهـــا في البيت . دنوت من النافذة ، وشققت طريقي عبر السقالات – حيث يجري اصلاح البيت – ونظرت عبر الستارة .

كانت تجلس لوحدهـــا وراء الطاولة عند المصباح وقد انهمكت في المطالعة . وبدا على محياها الاستغراق في التأمل . وقلبت صفحات الكتاب واستندت على مرفقها ورفعت بصرهـــا وتطلعت الى المصباح ، وقد لفت على اصبعهـــا خصلـــة من

شعرها . يا لشدة سواد عينيها . لماذا كنت اظن سابقاً انهما رماديتان ؟ انهما غامقتان تماما ، وسوداوان تقريباً . وقفت تحت السقالات ، وحوالي تطغي رائحة الجص والصنوبر . وقد بلغتني رائحة الصنوبر هذه وكانها اصداء بعيدة لجولاتي في الصيد ، وكانها ذكريات عن كل ما خلفته ورائي في الشمال . وسمعت خلفي وقع خطوات المارة . كان الناس يمضون الى مكان ما ، مسرعين ، بخطوات ثابتة فوق الاسفلت ، مع افكارهم وحبّهم ، وكل واحد منهم يحيا حياته الخاصة به . لقد اصابتني موسكو بالصمم بضجيجها وانوارها وروائحها وازدحام الناس الذي نسيته على مدى شهر . واخذت افكر بسعادة وجلة – ما اروع ان تكون لي حبيبة في هذه المدينة الكبيرة .

وناديتها بصوت خافت :

– ليليا !

فجفلت وارتفع حاجباها ، ثم نهضت ودنت من النافذة ، وازالت الستائر ، وانحنت الي ، ورأيتها عن قرب ، عينيها السوداوين المبتهجتين .

قالت ببطء :

– اليوشا !

وظهرت على محياها غمازتان لاتكادان تلاحظان .

– اليوشا ، هذا انت ؟ أهذا انت حقا ؟ سأخرج حالا . هل تريد التنزه ؟ انا اود كثيراً التنزه معك . سأخرج حالا .

ابتعدت عن السقالات وعبرت الى الجانب الآخر وصرت انظر الى نوافذ بيتها . ها قد اطفأ النور ، ومضت لحظة قصيرة ، وظهر شبح ليليا في الفوهة السوداء للبوابة . ولاحظتني فوراً ، وهرعت نحوي عبر الشارع . فتلقفت يدي وامسكت بها بين يديها فترة طويلة . وبدا لي ان وجهها قد لوحته الشمس ، وانها نحفت قليلا وصارت عيناها اوسع . وسمعت كيف يدق قلبها وتتقطع انفاسها .

في نهاية المطاف قالت :

– لنذهب للنزهة .

وعلى الفور لفت انتباهي انها تخاطبني بلهجة «المفرد» .

وكانت لدي رغبة شديدة في الجلوس او الارتكاز على شيء ما اذ اصاب الضعف الشديد ساقي على حين غرة ولم ترتجفا بهذا الشكل حتى بعد اكثر جولات الصيد ضنى .

لكنني شعرت بان من غير اللائق الذهاب معها . فانني جئت فقط لرؤيتها لحظة واحدة . وكنت ارتدي ملابس غير انيقة جداً . فانني بملابس السفر ، وكنت ارتدي بزة التزلج وحذاءين باليين . وعلى البزة آثار الحروق في بعض الاماكن . وحدث هذا بعد المبيت في العراء ابان رحلات الصيد . وعندما يرقد المرء بالقرب من النار غالباً ما تصيب شرارات النار الجاكتة والسراويل . ولا ، ليس بوسعي ابداً الذهاب للنزهة معها .

وقالت بلا اهتمام :

– اي هراء !

وجرتني من يدي . كانت تريد محادثتي . انها وحيدة تماماً ، ولم ترجع صديقاتها ، بعد ، ووالداها في البيت الريفي . انها تحس بوحشة بالغة ، وكانت تنتظرني طوال الوقت . فما علاقة البزة بالأمر . وكذلك ما هو السبب في انني لم اكتب لها رسائل . واغلب الظن انه كان يسرني ان يتعذب الآخرون .

ها نحن نتجول مرة اخرى في ارجاء موسكو . يا لها من امسية غريبة وغير اعتيادية . وبدأ تساقط المطر ، ووجدنا ملاذاً في مدخل بيت تتردد فيه الاصداء ، وصرنا ننظر الى الشوارع وانفاسنا متلاحقة بعد الجري السريع . كانت المياه تتساقط من المرازيب بخرير . وخلت الارصفة من المارة ، وتمضي السيارات مبللة تماماً ، وتنطلق منها باتجاهنا ثعابين حمر وبيض من النور المنعكس فوق الاسفلت المبلل . وبعد ذلك توقف المطر ، وخرجنا وصرنا نتقافز فوق البرك ضاحكين . لكن المطر عاود السقوط بشدة اكبر ، ولذنا مرة اخرى بمكان ما . كانت قطرات الماء تلمع فوق شعرها . لكن لمعان عينيها كان اشد بريقاً ، حين كانت تنظر الي .

وسألتني :

– هل كنت تتذكرني ؟ انني كنت طوال الوقت تقريباً افكر فيك ، بالرغم من عدم رغبتي في هذا . وانا نفسي لا اعرف

السبب . فنحن لانعرف احدنا الآخر كثيراً . أليس كذلك ؟ انني طالعت كتاباً وفكرت فجاة في انه قد يعجبك . ألم تشعر في تلك اللحظة باحمرار اذنيك . يقال ان المرء حين يفكر في شخص ما طويلا تبدأ اذنـــاه بالاحمرار . انني حتى لم اذهب الى مسرح البلشوي ، لقد اعطتني ماما تذكرة ، لكنني لم اذهب . هـــل تحب الاوبرا ؟

– جداً ، لربما ساصبح مغنياً قريباً . لقد ابلغوني بأن لدي صوت (باس) جيد .

– أليوشا ! هل ان صوتك (باس) ؟ ارجوك ، إنشد شيئاً ما ، بصوت منخفض ، ولن يسمعك احد سواي .

في البداية رفضت الغناء ، ومن ثم غنيت مع هذا . اخذت بانشاد اغاني الرومانس والارياء ، دون الاحظ بان المطر قد توقف ، وبدأ المارة بالسير فوق الارصفة ، وهـــم يلتفتون باتجاهنا . كما ان ليليا ايضا لم تلاحظ شيئاً . بل كانت ترنو الى وجهي ، وعيناها متالقتان .

(٤)

انه لشيء سيئ ان يكون المرء شابـــاً . فالحياة تمضي بسرعة ، وانت قد بلغت السابعة عشرة او الثامنة عشرة من العمر ، دون ان تنجز شيئاً . وحتى لايعرف في ما اذا هبتك الطبيعة بايـة مواهب . بينما انت تود ان تحيـــا حياة كبيرة وعاصفة . وانت تود كتابة الاشعار لكي تحفظها البلاد بأسرها عن ظهر قلب . او ان تؤلف سيمفونية بطولية ، وان تاتي فيما بعد الى الاوركسترا مرتدياً الفراك وشاحب الوجـــه وخصلات شعرك متدلية على جبينك . . . وبغيـــة ان تجلس ليليـــا في المقصورة حتما لسماعك . فما العمل ؟ ما العمل بغية الا تمضي الحياة عبثاً ، وبغية ان يكون كل يوم يوم نضال وانتصارات ! انني احيـــا فى كآبـــة ، وتعذبني فكرة انني لست بطلا ولا مكتشفاً . وهل انا قادر على اجتراح مأثرة ؟ لا اعلم . وهل انا

قادر على انجاز الاعمال الشاقـــة ، وهل تكفنيي قواي للقيام باعمال عظيمة ؟ ان اسوأ ما في الامر ، ان ما من احد يفهـــم عذاباتي . والجميع ينظرون اليّ نظرتهم الى صبي ، وحتى احياناً يمسدون شعري كما لو كنت في العاشرة من العمر ! وليليا فقط ، ليليا تتفهمني . وبوسعي ان اكون معهـــا فقط صريحاً حتى النهاية . اننا ندرس في المدرسة منذ وقت بعيد : انها في الصف التاسع وانا في الصف العاشر . وقد قررت ممارسة السباحة ، وان اصبح بطل الاتحاد السوفيتي وفيمـــا بعد بطـــل العالم . وانصرمت ثلاثة اشهر منذ بدات بارتياد المسبح . ان السباحة الحرة هي من افضل اصناف السباحة . فهي من اكثرها سرعة . انها تعجبني كثيراً . لكنني احب في الامسيـــات الاستغراق في الاحلام .

ثمة لحظة قصيرة في الشتاء حين يصبح الثلج فوق السطوح والسماء عند المغيب ازرق قاتماً وحتى بنفسجياً . كنت اقف عند النافذة ، وانظر عبر الكوة المفتوحة الى الثلج البنفسجي ، واستنشق الهواء القارس البارد والرقيق العذب ، ولامر ما تراءى انني اسافر بعيداً الى بلدان مجهولـــة وجبال . . . واعاني من الجوع وتنمو لي لحية حمراء وتلوح وجهي الشمس ، او يتسلل الزمهرير حتى عظامي ، وانني حتى اشارف على الهلاك ، لكنني ساكتشف سراً آخر من اسرار الطبيعة . يا لها من حياة ! لو قيض لي المشاركة في بعثة استكشافية !

بدأت بمراجعة الدوائر والمؤسسات . وعددهـــا كبير في موسكو ، وجميعها ذات تسميات رنانة غامضة . نعم ، هناك بعثات يجري ارسالها : الى آسيا الوسطى ، والاورال والشمال ، نعم ، هناك حاجة الى باحثين . فما هو اختصاصي ؟ آه ، لا يوجد لدي اختصاص . شيء مؤسف ، لكن لا مجال لمساعدتي في تلبيـــة رغبتي . يجب علي ان اتعلم . والعمال ؟ ان العمال يؤخذون في مناطق البعثات . مع السلامة !

ومرة اخرى ارتاد المدرسة ، واعد الدروس . . . اذن يتعين علي التغلب على الظروف . حسنا ، سانهي الصفوف العشرة وحتى التحق بمعهد . الامر سيان لدي الآن . سالتحق بالمعهـــد ، ثم

اصبح مهندساً او معلماً ، لكن الناس سيفقدون عندئذ بشخصي مكتشفاً عظيماً .

حلّ ديسمبر . وكنت اقضي مع ليليا جميع اوقات الفراغ . لقد ازداد حبّي لها اكثر . ولم اكن اعرف بانه قد لاتكون نهاية للحب . لكن هذا الواقع . وبمرور الاشهر صارت ليليا عزيزة لدي اكثر فاكثر ، ولاتوجد من تضحية لا اقدم عليها من أجلها . انها غالبا ما تتصل بي تليفونياً . وفنتحادث طويلا ، وبعد الحديث اجد نفسي غير قادر على مطالعة الكتب المدرسية فترة طويلة . وبدأ البرد القارس والعواصف الثلجية . واعتزمت امي السفر الى القرية ، لكن لم يوجد لديها منديل دافئ . ويوجد لدي خالتي شال عتيق دافئ . انها تقطن في الضواحي . وينبغي علي السفر الى هناك وجلب الشال .

وفي صباح يوم الاحد غادرت البيت . لكن بدلا من التوجه الى محطة القطار مررت على ليليا . وذهبنا سوية الى ميدان التزلج على الجليد ، وبعد ذلك الى متحف تريتياكوف طلبا للدفء . ان متحف تريتياكوف دافئ جداً في الشتاء . وتوجد هناك مقاعد ويمكن الجلوس عليها وتبادل اطراف الاحاديث بهدوء . فتجولنا في القاعات وشاهدنا اللوحات . وتعجبني على الاخص لوحة «الفتاة والخوخ» للفنان سيروف . فهذه الفتاة تشبه ليليا كثيراً . وحين احدث ليليا عن هذا تضحك ويصطبغ وجهها بالاحمرار . وفي بعض الاحيان نحن ننسى اللوحات تماماً ، ونتحدث بهمس ، وننظر الى احدنا الآخر . فيما حل الظلام بسرعة . وسيغلق متحف تريتياكوف قريباً . وخرجنا الى الزمهرير ، وعندئذ تذكرت انه كان ينبغي علي السفر لجلب الشال . واخبرت ليليا بهذا خائفاً . حسناً ، جداً . هيا نسافر الى الضواحي فورا .

وسافرنا مبتهجين لكوننا لن نفترق . ونزلنا الى رصيف المحطة المغطى بالثلج ومضينا في الدرب عبر الحقل . ولاحت امامنا وخلفنا الاشباح السوداء للناس الذين ساروا معنا من القطار الكهربائي . وكانت تسمع اصوات احاديث وضحك ، يرى وميض السجائر . واحياناً يرمي احدهم امامنا عقب سيجارة على الدرب . وعندما نقترب منها يكون مازال مضيئاً . وتتولد بقعة

وردية صغيرة على الثلج حول نار السيجارة . فلا ندوسها وندعها تواصل الاضاءة في العتمة . وبعد ذلك عبرنا النهر المتجمد وسمعنا الصرير الخافت للجسر الخشبي تحت اقدامنا . وكان البرد قارساً . ومشينا في درب قاتم وسط الغابة . وبدت على الجانبين اشجار صنوبر وشوح سوداء تماماً . ان القتامة اشد بكثير هنا مما في الحقل . وكانت تشاهد من نوافذ بعض البيوت الريفية شرائط صفراء من النور فوق الثلج . والكثير من البيوت الريفية تبدو خاوية ومظلمة ، واغلب الظن ان ساكنيها لا يعيشون فيها شتاء . وسادت الرائحة النفاذة لبراعم اشجار البتولا والثلج النقي ، ولا توجد مثل هذه الرائحة بموسكو ابداً .

في نهاية المطاف وصلنا الى بيت خالتي . ولسبب ما بدا لي ان من المستحيل الدخول اليها سوية مع ليليا . فسألت بتردد :

– ليليا ، هل ستنتظرينني قليلا ؟ وساعود حالا .

ووافقت قائلة :

– حسنا لكن لاتتاخر طويلا ، فانا اشعر بالبرد الشديد . وبردت قدماي ، ووجهي ، لا لا تتصور ، ويسعدني ان سافرت معك . لكنك لن تتاخر ، اليس كذلك !

وانصرفت تاركاً اياها في الدرب المظلم لوحدها تماماً . وغمر قلبي شعور ثقيل جداً .

دهشت خالتي وابنة خالي وابتهجتا لرؤيتي . لماذا جئت في وقت متاخر كهذا ؟ ولكم شببت وكبرت !اصبحت رجلا تماماً . يبدو انني سأبقى للمبيت .

– كيف حال ماما ؟

– شكراً ، على خير مايرام .

– وبابا هل يعمل ؟

– نعم ، بابا يعمل .

– في المكان نفسه ؟ وكيف صحة عمك ؟

يا الهي ، آلاف الاسئلة ! ونظرت ابنة خالتي الى الجدول الزمني لحركة القطارات . ان القطار العائد القريب سيتحرك في الساعة الحادية عشرة . ويجب علي ان اخلع معطفي واشرب الشاي . وبعد ذلك يجب ان ادعهما ينظران اليّ ، وان اتحدث

عن كل شيء . فانني لم ازرهما على مدى سنة باكملها . والسنة – فترة طويلة جداً . وارغمتاني على خلع معطفي . وكانت نار الموقد تشتعل والمصباح يضيء والساعة القديمة تتكتك . ان الجو دافئ جداً وكانت لي رغبة شديدة في احتساء الشاي . لكن ليليا تنتظرني في الدرب المظلم !

في نهاية الامر قلت :

– ارجو المعذرة ، لكنني في عجلة من امري لانني لست وحيداً . ففي الشارع ينتظرني صديق .

فانهالتا علي باللوم والتقريع . وقالتا انني لست مهذباً ابداً . وهل من الممكن ابقاء الصديق في الطريق في مثل هذا الزمهرير !

وهرعت ابنة خالتي الى الحديقة وسمعت تحت النافذة قرقشة خطواتها . وبعد هنيهة صار الثلج يقرقش مرة اخرى ، وجاءت ابنة خالتي ووراءها ليليا . وكانت شاحبة تماما . فنزعتا عنها المعطف واجلستاها بالقرب من المدفأة ، ووضعتا في قدميها حذاءين لباديين دافئين .

واخذنا شيئاً فشيئاً نشعر بالدفء ، ثم جلسنا لتناول الشاي . وصارت ليليا محمرة الوجه بسبب الدفء والحياء والارتباك . ولم ترفع عينيها تقريباً عن القدح . وفي لحظات نادرة فقط كانت توجه الي نظرات صارمة جداً . لكن خديها متوترتان وترتجف فيهما الغمازتان . وكنت قد علمت ما يعنيه ذلك ولهذا غمرتني سعادة بالغة ! واحتسيت خمسة اقداح شاي .

ثم غادرنا المائدة . وآن الاوان للسفر . فارتدينا معطفينا ، وتقدم الي الشال . وعلى حين غرة ، ترددتا ، وامرتا ليليا بخلع المعطف ولفتاها بالشال ، والبستاها المعطف فوقه . وغدت عندئذ بدينة جداً . وغطي الشال وجهها كله تقريباً . وكانت عيناها فقط تلمعان .

خرجنا الى الشارع وفي البداية لم نر شيئاً . وتشبثت ليليا بي بقوة . وحين ابتعدنا عن البيت اخذنا نميز الدرب قليلا . وفجأة صارت ليليا تنطلق في القهقهة . وحتى انها سقطت مرتين ، ووجب علي انهاضها وازالة الثلج من الاكمام .

وقالت وهي لاتكاد تتلفظ الكلمات :

– وكيف كانت هيئتك ، كنت تنظر الي مثل النعامة حين جيء لي !

وقهقهت انا ايضا بملء حنجرتي . وفجأة قالت بهلع لذيذ :

– اليوشا ، يمكن ان يتعرض احدهم لنا .

– من ؟

– اي احد ، قطاع طرق مثلا ، وقد يقتلونا .

وقلت بصوت عال :

– هراء .

اظنني قلت ذلك بصوت عال جداً ، ولامر ما بدأت على حين غرة اشعر بالزمهرير في الطريق ، وبدا كما لو انه اشتد ، فيما كنا نشرب الشاي ونتبادل الحديث .

وكررت :

– هراء . لا يوجد احد هنا .

– وماذا لو وجد احد .

وقالت ليليا هذا وهي تتلفت . والتفت انا ايضاً .

ثم سألت بصوت رنان :

– هل تخاف ؟

– لا ! ولو انني . وانت هل تخافين ؟

– آه ، انني جد خائفة . انهم سيسرقون ملابسنا حتما ، وانا اتنبأ بهاجس في نفسي .

– هل تؤمنين بالهواجس ؟

– اؤمن . لماذا جئت معك ؟ ومع ذلك فانني سعيدة بالمجيء .

– نعم ؟

– نعم ! وحتى اذا ما سرقوا ملابسنا وقتلونا ، فمع ذلك لست آسفة . وانت ؟ هل كنت ستوافق على الموت من اجلي ؟

ولزمت الصمت ، واكتفيت بالضغط على يدها . ولو اتيحت لي الفرصة فقط لكي اثبت حبي لها !

– اليوشا . . .

– نعم !

– اريد ان اسالك . . . لكن شرط الا تنظر الي ، لا تجرأ على التطلع في وجهي ! نعـــم . . . ماذا اردت ان اسال ؟ ادر وجهك .

– لقد اشحت بوجهي . ولكن انظري الى الطريق . والا فسنتعثر .

– لابأس ، فانني لابسة الشال ، ولن يؤلمني السقوط .

– نعم ؟

– اليوشا . . . هل تبادلت القبل مع احد في وقت ما ؟

– لا . لم اتبادل القبل ابداً . وماذا ؟

– ابداً ، ابداً ؟

– لقد تبادلت القبل مرة واحدة فقط . لكن حدث هذا في الصف الاول . انني قبلت صبيـــة . وحتى لا اذكر ماذا كان اسمها .

– حقا ؟ الا تذكر اسمها ؟

– لا ، لا اذكر .

– اذن ، هذه لا تحسب ، لقد كنت صبياً آنذاك .

– نعم ، كنت صبياً .

– اليوشا . . . هل تريد ان تقبلني ؟

ولكنني تعثرت مع ذلك . وعندئذ لم اعد اشيح بوجهـــي اكثر ، واخذت اتطلع الى الطريق بانتباه . وسألتها :

– متى ؟ الآن ؟

– لا ، لا . . . اذا ما بلغنا المحطة دون ان يقتلنا احد ، فعندئذ ساقبلك في المحطة .

لزمت الصمت ، وتراءى لي ان الزمهرير قد خفت حدته . ولم اعد اشعر به تماماً . وخداي حارتان جداً . واحسست بحرارة في جسدي . اما اننا كنا نمشي بسرعة كبيرة ؟

– اليوشا . . .

– نعم ؟

– انا لم اتبادل القبل مع اي احد ابداً .

وتطلعت الى النجوم صامتاً . ثم نظرت امامـــي الى الوهج المشوب بالانوار فوق موسكو . وتبعد موسكو مسافة ثلاثين

كيلومترا ، لكن يرى من هناك وهج انوارها . مع ذلك ما اروع الحياة !

– ربما ان تبادل القبل امر مناف للحشمة ؟ وهل شعرت بالخجل ؟

– لا اذكر . لقد حدث هذا منذ وقت بعيد جداً . . . لا اظنه امراً يبعث على الخجل جداً .

– نعم ، حدث هذا منذ وقت بعيد ، ومع ذلك اظنه مخجلا .

واخذنا نمشي عبر الحقل ، وفي هذه المرة كنا وحدنا في الحقل الخاوي . ولم نر اي انسان امامنا ام خلفنا ، ولم يرم احد بعقب السجائر المشتعلة ، ولم يسمع سوى وقع اقدامنا الرنان . وعلى حين غرة اندلع نور ضعيف امامنا ، كان ناراً شاحباً يشبه نار شمعة بعيدة . وكان يومض ويتأرجح هنيهة ثم يخبو . وبعد ذلك يندلع مرة اخرى ، ولكن من مكان اقرب . واخذنا ننظر الى هذا النور واخيراً حدسنا : هذا نور كهربائي . وبعد ذلك لاحظنا اشباحاً صغيرة سوداء . انهم يتوجهون من المحطة نحونا . لربما انهم ركاب القطار الكهربائي الذي وصل ؟ لا ، لم يمر القطار الكهربائي . ونحن لم نسمع اي ضجيج .

وقالت ليليا ، وهي تضغط بجسدها نحوي بقوة :

– هاهي . . . لقد كنت اعرف . انهم سيقتلونا الآن . انهم قطاع طرق .

ماذا كان بوسعي ان اقول لها ! فلم اتفوه بكلمة . ومشينا للقاء الاشباح السوداء . كنا نمشي ببطء جداً . ودنوت وحسبت عددهم فوجدت انهم ستة اشخاص . وتحسست المفتاح في جيبي وعلى حين فجأة احسست بدفقة من الابتهـــاج والجرأة . وكيف ساقاتلهم ! ورحت اتنفس بقوة من شدة انفعالي ، وكان قلبي يدق بعنف . وكانوا يتحدثون بصوت عال عن شيء ما . لكنهم سكتوا حين بلغوا على مسافة نحو عشرين خطوة منا .

وقالت ليليا بحزن :

– كان الافضل لي لو قبلتك . انا آسفة جداً .

ثم التقينا في الدرب وسط الحقل الخاوي . وتوقف الاشخاص الستة واشعلوا المصباح اليدوي فانزلق شعاعة الضعيف المشوب

بالحمرة فوق الثلج وسقط علينا . وضيقنا نحن عيوننا . بينما كانوا ينظرون الينا صامتين . وكان اثنان منهم بمعطفين فكت ازرارهما . وعاجل احدهم في اكمال تدخين سيجارته ، وبصق على الثلج . بينما كنت انتظر صيحة او ضربة . لكن لم توجه الينا كلمة . ومررنا بهم .

ولاحظ احدهم من الخلف بأسف :

– الفتاة لاباس بها . آه ، يافتى ، لاتضيع الوقت والافسنسلبك اياها .

بعد فترة قليلة سألت ليليا :

– هل فزعت ؟ أليس كذلك ؟

– لا ، كنت اخاف عليك فقط . . .

– علي ؟ – وراحت تتطلع الي من الجانب وقد تباطأت خطاها وقالت :

– لكنني لم اخف البتة ، ولو باذن قدر ! بل كنت آسف على الشال فقط .

لم نتبادل الكلام بعد هذا حتى بلغنا المحطة . وعند المحطة توقفت ليليا على رؤوس اصابعها وقد تناثر الثلج عليها ، وقطعت غصن شجرة صنوبر ودسته في جيبها . وبعد ذلك اعتلينا الرصيف . لم يوجد هناك احد . وثمة مصباح واحد ينير عند شباك التذاكر ، والثلج يلتمع على الرصيف كالملح . واخذنا نتقافز في مواضعنا ، فقد كان البرد شديداً جداً . وفجأة ابتعدت ليليا عني واستندت على الحاجز . فيما وقفت عند حافة الرصيف ، فوق القضبان ، ومددت عنقي ، ساعيا الى رؤية نور القطار الكهربائي .

ونادتني ليليا :

– اليوشا . . .

كان صوتها غريبا .

فدنوت مقترباً منها . كانت ساقاي ترتجفان ، وانتابني شعور رهيب . ورجتني ليليا قائلة :

– شدني اليك ، ياليوشا . انا احس بالبرد الشديد .

فاحتضنتها وشددتها الي ، ومس وجهي وجهها تقريباً .

ورأيت عينيها عن قرب . وكانت هذه اول مرة أرى فيها عينيها عن قرب . وقد علق برموشها الصقيع الكثيف ، وتدلى شعرها من تحت الشال وعليه صقيع ايضا . ما اوسع عينيها ، وما اكثر ما في نظراتها من فزع ! كان الثلج يصرّ تحت اقدامنا . ووقفنا بلا حراك ، ومع ذلك كان ينبعث منه صرير . وفجأة انطلقت من الخلف طقطقة رنانة . وتدحرجت فوق الالواح بصوت غليظ كما لو كانت تتدحرج فوق الجليد في النهر ، وخمدت في مكان ما في طرف الرصيف . لماذا وقفنا صامتين ؟ بالمناسبة ، لم تكن لدينا اية رغبة في الكلام .

حركت ليليا شفتيها . وغدت عيناها سوداوين تماماً . وهمست بصوت ضعيف :

– مالك لا تقبلني ؟

وتلاقى البخار المنبعث من انفاسنا . وتتطلعت الى شفتيها . انهما ترتجفان مرة اخرى وتنفرجان قليلا . فانحنيت وقبلتهما قبلة طويلة ، وبدا العالم اجمع يدور بلا ضجيج . انهما دافئتان . وفي اثناء القبلة كانت ليليا ترنو الي وقد خفضت رموشها المنفوشة . كانت تقبلني وترنو الي ، وصرت ارى لحظتذاك مدى حبها لي .

هكذا تبادلنا القبل لاول مرة . وبعد ذلك ضغطت بخدها البارد على وجهي ، ووقفنا بلا حراك ونظرت الى ما فوق كتفها في الغابة المظلمة الشتوية وراء الرصيف . وكنت احس على وجهي انفاسها الطفولية الدافئة واسمع خفقات قلبها السريعة ، بينما كانت كما اظن تسمع خفقات قلبي . وبعد ذلك تحركت ، وحبست انفاسها ، فانحنيت ووجدت شفتيها وقبلتهما مرة اخرى . وفي هذه المرة اغمضت عينيها .

وسمع من مكان بعيد صفير خافت . ولمعت نجمة ساطعة . واقترب القطار الكهربائي . وبعد لحظة ولجنا العربة المضيئة والدافئة واغلقنا وراءنا الباب فاصطفق بصوت عال ، وجلسنا على المصطبة الدافئة . لم يكن عدد الركاب كثيراً في العربة . وكان البعض يطالع ويخشخش بالجرائد ، بينما البعض يستغرق في غفوة ويتأرجح سوية مع العربة . ولزمت ليليا الصمت وتطلعت

من النافذة طوال الطريق ، بالرغم من ان زجاجها قد تجمدت فوقه الرطوبة ، وفي الخارج يسود الليل ، وليس من الممكن رؤية اي شيء .

(٥)

اظن انه ليس من الممكن ابداً ان تحدد بدقة اللحظة التي ياتيك فيه الحب . وانا ايضا لا استطيع الجزم متى احببت ليليا . لربما عندما كنت اتجول وحيداً في الشمال ؟ او ربما في اثناء تقبيلها على رصيف المحطة . او عندما مدت لى يدها في اول مرة ، وذكرت اسمها بعذوبة : ليليا ! انا لا ادري . وما ادريه فقط هو انني لم اعد الآن استطيع الحياة بدونها . وصارت حياتي بأسرها تقسم الآن الى شطرين : قبلها ومعها . وكيف كنت ساحيا وما هو مغزى وجودي بدونها ؟ انني حتى لا اريد التفكير بهذا ، كما لا اريد التفكير باحتمال وفاة ذوي .

انقضى شتاؤنا بشكل رائع . وكان كل شيء لنا ومشترك : الماضي والمستقبل ، والبهجة والحياة كلها حتى النفس الاخير . اية اوقات سعيدة ، واية ايام ، واي دوار في الراس !

لكن في الربيع اخذت الاحظ بعض الامور . لا ، لم الاحظ شيئاً ، بل شعرت بالم ان شيئاً ما جديداً قد بدأ . ومن الصعب حتى التعبير عن هذا . ومجرد اننا اكتشفنا تباينـــاً في الطباع الشخصية . فلم تعجبها افكاري وارائي وكانت تسخر من احلامي ، تسخر بقسوة وتشاجرنا عدة مرات . ثم : ثم مضت الامـــور بسرعة ، وبسرعة اكبر ، وبصورة فظيعة . اذ صارت غالبا ما تغيب عن البيت . وغالبا ما صارت احاديثنا تغدو مرحة بشكل مصطنع وفارغة . واحسست كيف انها تبتعد عني اكثر فاكثر في كل مرة . . .

ماهو عدد الفتيات في العالم اللواتي بلغن سن السابعـــة عشرة ! لكنك تعرف واحدة منهن ، وتنظر الى عيني واحدة منهن فقط ، وترى تألقها وعمقها ورطوبتها ، وصوتها فقط يؤثر فيك

بالغ التأثير ، وتخاف حتى تقبيل يدها فقط . انها تتحدث اليك وتصغي اليك وتضحك وتصمت وانت ترى بانك الوحيد الذي تحتاجه هي ، وانها تحيا بك فقط ، ومن اجلك ، وانها تحبك انت وحدك فقط كما انك تحبها وحدها .

ولكنك تلاحظ بفظاعة ان عينيها اللتين كانتا تهبـــا اليك سابقاً حنانهما وتألقهما وحياتهما ، قد اصبحتا الآن تنمان عن اللامبالاة . وانغلقتا على ذواتيهما ، وانها بكل كيانها قد ابتعدت عنك الى افاق بعيدة جداً ، حيث لاتستطيع بلوغهـــا ، لا يمكن اعادتها من هناك . ان اقدس انطلاقاتك وافكارك الدفينة والابية ليست لها ، كما انك نفسك بكل تعقيداتك وجمال روحك لست لها ايضا . انك تلاحقها ، وتوتر اعصابك ، وتجهد في تقويـــة نفسك ، لكن هذا كله يمر جانبا وجانبا . . . وليس ما هـــو المفروض .انها انسلت ، وذهبت واستقرت في مكان ما بذاتها ، في عالمها المدهش الفذ . بينما لا يسمح لك بالدخول اليه . انت خاطئ ، والجنة ليست لـك . فـاي يأس وغيظ وآسف وفاجعة تداهمك . انك تشعر بالخواء وجرى خداعك وتدميرك وحلت بك التعاسة ! لقد ولى كل شيء بينما انت تقف خالي الوفاض ، وآن الاوان لكي تسقط وتعول وتنادي الرب الذي لاتراه شاكيا اليه آلامك ، وعجزك . وحين تسقط وتعول ترمقك بنظرة – ويتراءي في عينيها الخوف والدهشـة والشفقة – كـل شيء ، فيما عدا ما تحتاجه انت ، انه لن يتراءى . ولن تحصل منها على النظرة الوحيدة المرجوة ، ان حبها وحياتها ليسا لك . ولربما حتى تصبح بطلا وعبقرياً ورجلا تفتخر به البلاد ، لكنك لن تحصل ابداً على النظرة الوحيدة . ما اشد ما يؤلم هذا وما اصعب الحياة .

ها قد حلّ الربيع . . . ثمة وفرة من الشمس والضوء ، والسماء زرقاء . وبدأت اشجار الزيزفون في البولفارات تولد عبيراً خفيفاً . وتبعث حيوية في الجميع ، والجميع يعتزمون لقاء شهر مايو . وانا كالجميع اعتزمت هذا ايضا . وقد وهبوني بمناسبة مايو مبلغ مائة روبل – انني الآن من اغنى الرجال . وتنتظرني ثلاثة ايام عطلة كاملة . ثلاثة ايام ساقضيها مع ليليا ،

فلن تعمد الى التحضير للامتحانات في هذه الايام ايضا ! لا ، لن اذهب الى اي مكان ، ولست بحاجة الى جماعة من الاصدقاء ، بل ساكون في هذه الايام سوية معها . فاننا لم نكن معا منذ وقت بعيد . . .

لكنها لاتستطيع ان تكون معي . فينبغي عليها السفر الى البيت الريفي لزيارة عمها المريض . فهـــو مريض ، ويشعر بالوحشة ، ويريد لقاء عيد اول مايو بين الاهل – وهاهي تسافر مع والديها الى هناك . رائع ! شيء جميل لقاء عيد اول مايو في البيت الريفي . لكنني اود جداً ان اكون معها . . . اذن لربما في الثاني من مايو ؟

الثاني من مايو ! استغرقت في التفكير وقد قطبت جبينها . واصطبغ محياها بحمرة خفيفة ، نعم ، لربما ستجد مجالا للانفلات من هناك . . . طبعا ، انها تريد ذلك جدا ! فنحن لم نلتق منذ وقت طويل جدا . وهكذا ففي مساء الثاني من مايو سنلتقي عند مبنى التلغراف في شارع غوركي .

وقفت في الساعة المحددة عند التلغراف . ما اكثر الناس هناك ! وبدا فوق راسي نموذج للكرة الارضية . لا زال الوقت في بداية الغسق لكنه كان مضاءا – وهو ازرق والقارات صفر – ويدور ببطء . كما تتالق انوار الزينة : سنابل ذهبية وشرارات زرق وخضر . وبدت وجوه الجميع جميلـــة جداً في ضوء انوار الزينة . وكنت احمل في جيبي مائة روبل . ولم انفقها يوم امس . وانها معي – فقـــد نذهب الى مكان مـــا . الى المتنزه ام الى السينما . . . وقفت انتظر بصبر ، والجميع حوالي متنرفزون . لكنني هادئ بشكل عجيب .

كانت حشود الناس تمضي في وسط الشارع تماما . وما اكثر الفتيات والفتيان ! وجميعهم يغنون ويصيحون بعبـــارات ما ويعزفون على آلات الاكورديون . ورفعت فوق جميع الابنية الاعلام وعلقت انوار كثيرة . وكانوا ينشدون الاغاني ووددت انا ايضا الغناء ، فلدي صوت جيد ، ان صوتي من صنف (باس) . وفي وقت مـــا كنت احلم بان اصبح مغنياً ، وحلمت بامـور كثيرة . . .

وفجأة رايت ليليا . انها تشق طريقها نحوي وتصعـــد السلالم ، والجميع يتطلعون اليها – انها في غاية الجمال . ولم ارها ابداً بمثل هذا الحسن . وصار قلبي يخفق في صدري . والقت على الجميع نظرة سريعة ، وعيناها تتناقل في الوجوه باحثة عن احد ما . لقد كانت تبحث عني . وخطوت للقائها ، خطوة واحدة فقط . وفجأة شعرت بالم حاد في قلبي وجف الريق في بلعومي . انها لم تكن لوحدها ! اذ وقف الى جانبها شاب يرتدي قبعة وهو ينظر الي . كان هذا الشاب وسيماً ، ويتابط ذراعها . نعم ، كان يتابط ذراعها ، في حين انني لم اجرأ على هذا الا في الشهر الثاني .

قالت ليليا :

– مرحباً اليوشا – كان صوتها متهدجاً قليلا . وعيناهـــا تنمان عن الارتباك . شيء من الارتباك فقط . . . شيء ضئيل جداً من الارتباك ، – هل انت تنتظر منذ وقت طويل ؟ اظننا قد تاخرنا . . . وتطلعت الى الساعـــة الكبيرة تحت نموذج الكرة الارضية وعبست قليلا . ثم ادارت راسها ونظرت الى الشاب . كان جيدها يبدو رقيقاً جداً لدى النظر اليه . فهل كانت تنظر الي بهذه الصورة ؟

– تعارفا رجاء !

وتعارفنا ، وصافحني بقوة . وتدل مصافحتـــه على الثقـــة بالنفس .

– اتعرف اليوشا ، لن نستطيع قضاء الامسية معا اليوم . فنحن ذاهبـــان الآن الى مـــسرح البلشوي . . . هـــل ستزعل ؟

– لا ، لن ازعل .

– هل ترافقنا قليلا ؟ فالامر سواء لديك ، وليس لك مـــا تعمله الآن .

– سارافقكما ، ليس لي فعلا ما اعمله .

واندمجنا مع سيل الناس وتحركنا مع السيل هابطين نحو شارع اخوتني رياد . لماذا انا ذاهب ؟ ما الذي يحدث لي ؟ الجميع حوالي يرددون الاغاني ، ويعزف على الاكورديون . وتهدر

مكبرات الصوت فوق سطوح المباني . وفي جيبي مائة روبل ! انها ورقة بنكنوت جديدة ذات قرقشة من فئة مائة روبل . ولكن لماذا انا ذاهب ؟ والى اين انا ذاهب ؟

– كيف حال العم ؟

– العم ؟ اي عم ؟ . . . آه ، قصدك يوم امس ! – وعضت شفتها ، ورمقت الشاب بنظرة خاطفة – ان عمي يتماثل للشفاء . . . اننا احتفلنا باول مايو أبهى إحتفال . وكان الجو بهيجاً للغاية ! ورقصنا . . . وانت ؟ هل احتفلت به جيداً ؟

– انا ؟ باحسن حال .

– انا سعيدة ، اذن .

واستدرنا باتجاه مسرح البلشوي ، وسرنا ثلاثتنا سوية . والآن لست من يتابط ذراعها . بل هذا الشاب الوسيم . وهي لم تعد معي ، بل معه . انها بعيدة عني الآن بآلاف الفراسخ . ولماذا يحكّني بلعومي ؟ كما تحكّني عيناي ؟ هل اصابني مرض ام ماذا ؟ ووصلنا الى مسرح البلشوي وتوقفنا . ولزمنا الصمت . لم يكن لدينا ما نتحدث به البتة . ورايت كيف ضغط الشاب على معصمها برفق :

فقالت ليليا مبتسمة لي :

– حسناً ، نحن ذاهبان . الى اللقاء !

يالها من ابتسامة تعبر عن الشعور بالذنب وفي الوقت نفسه عن التفكير في امور اخرى !

شددت على يدها . مع هذا ان يدها رائعة . واستدارا وتوجها نحو اعمدة المبنى بخطى وئيدة . اما انا فقد وقفت وتابعتها بنظراتي . انها كبرت كثيراً في خلال هذا العام . فقد بلغت سن السابعة عشرة . انها ممشوقة وخفيفة القدّ . اين رأيت قوامها لاول مرة ؟ آه ، نعم ، في الثقب الاسود للبوابة حين عدت من الشمال . آنذاك اذهلني قوامها . وبعد ذلك تمتعت بمرآه في قاعة الاعمدة وفي الكونسرفتوار . ثم في الحفلة الساهرة المدرسية . . . لقد كانت حفلة شتوية بديعة . والآن انها انصرفت دون ان تلتفت وقبل ذلك كانت تلتفت دائما حين

تنصرف . وفي بعض الاحيان كانت حتى تعود وترنو الي بانتباه وتسالني :

– هل تريد ابلاغي امراً ما ؟

– لا ، لا شيء .

وكنت اجيبها ضاحكا ، سعيداً بعودتها .

وكانت تتطلع حواليها بسرعة وتقول :

– قبلني !

وكنت اقبلها برائحة الزمهرير المنبعثة منها ، في الساحة ام في ناصية الشارع . وكانت تحب هذه القبلات الخاطفة في الشارع .

وكانت تقول عن الناس الذين قد يرون قبلاتنا :

– من اين لهم ان يعرفوا . انهم لا يعرفون شيئاً ! لربما نحن شقيق وشقيقة حقاً ؟

اما الآن فلم تلتفت . ووقفت والناس يمرون بي ، ويلتفون حولي مثل عامود كهرباء او شيء ما وبين الفينة والفينة اسمع اصوات ضحكات . كانوا يسيرون ازواجا وثلاثة واربعة ، وجماعات . ولم يكن هناك افراد وحيدون ابداً . فالفرد الوحيد لايطاق في الشارع بايام الاعياد . اغلب الظن ان الافراد الوحيدين يلزمون بيوتهم . كنت اقف وانظر . . . ها هما اختفيا في المدخل المضاء بالانوار . وسيصغيان طوال الامسية كلها الاوبرا ويتمتعان بوجودهما بالقرب من احدهما الآخر . وبدت فوق راسي في السماء البنفسجية اربعة جياد مندفعة تريد التحليق لكنها لا تستطيع التحليق ، بينما قبعت في جيبي مائة روبل . ورقة البنكنوت الجديدة التي لم انفقها يوم امس .

(٦)

إنصرم عام . ولم يتهدم العالم ، ولم تتوقف الحياة . ونسيت ليليا تقريباً . نعم ، نسيتها ، بالاحرى انني حاولت عدم التفكير فيها . ولماذا افكر ؟ وقد التقيتها مرة في الشارع . حقاً ، ان

القشعريرة سرت في ظهري ، لكنني حافظت على رباطة جاشي . وفقدت الاهتمام كليا بحياتها . ولم اسالها كيف تعيش . كما لما تسالني كيف اعيش انا . بالرغم من وقوع احداث جديدة كثيرة في حياتي ابان هذه الفترة . ان فترة عام طويلة جدا !

انني ادرس في المعهد . وادرس بصورة جيدة جداً ، ولا يلهيني احد عن الدراسة ، ولا يدعوني احد للنزهة . ولدي اعمال اجتماعية كثيرة . وامارس السباحة ، وبلغت الدرجة الاولى في المهارة . واخيرا اتقنت السباحة الحرة . اذ هذا الاسلوب في السباحة من اكثر الاساليب سرعة . وبالمناسبة ، هذا لا يهم .

ومرة تلقيت رسالة منها . كان الوقت ربيعاً مرة اخرى ، وحل شهر مايو مرة اخرى ، وغمرني مزاج رائق . انا احب الربيع . وكنت اقدم الامتحانات ، وانتقل الى السنة الدراسية الثانية . فتلقيت رسالة منها . وكتبت فيها انها تزوجت ، كما كتبت بانها ستسافر مع زوجها الى الشمال ، وترجوني كل الرجاء ان آتي لتوديعها . ووصفتني فيها «عزيزي» ، وكتبت في نهاية الرسالة : «صديقتك القديمة القديمة» .

جلست طويلا وانا احدق في ورق الجدران . ان ورق الجدران في بيتنا جميل وذو نقوش معقدة جداً . وانا احب التطلع الى هذه النقوش . طبعا ساودعها ما دامت تريد ذلك . ولم لا ؟ فانها ليست عدواً لي ، ولم تقترف اي سوء بحقي . ساودعها ، ولاسيما وانني نسيت كل شيء منذ وقت بعيد . فما اكثر ما يحدث في الحياة ! وهل يذكر المرء كل ما وقع له منذ عام مضى .

ذهبت الى محطة القطار في اليوم والساعة المذكورين في رسالتها الي . وبحثت عنها طويلا على الرصيف ، واخيراً وجدتها . وقد رايتها على حين غرة وحتى جفلت . كانت تقف في رداء فاتح بذراعين عاريتين ، وقد لوحت الشمس بصورة مبكرة ذراعيها ووجهها . وكانت ذراعاها ناعمتين كالسابق ، لكن طرأ تغير على وجهها ، اذ صار وجه امراة . ولم تعد فتاة ، لا ، ليست فتاة . . . ووقف معها الاهل وزوجها ، ذلك الشاب نفسه . وكانوا جميعا يتحدثون بصوت عال ويطلقون الضحكات ، لكنني لاحظت كيف كانت ليليا تتلفت بنفاد صبر : انها تنتظرني .

دنوت منها فتابطت ذراعي لتوه . وقالت لزوجها وعلى فمها ابتسامة رقيقة :

– ساتركك للحظة .

واومأ زوجها براسه ونظر الي ببشاشة . نعم ، انه يتذكرني . ومد لي يده بترحاب . ثم ابتعدت انا وليليا .

– ها انذا سيدة متزوجة ، مسافرة ، ووداعا يا موسكو .

قالت ليليا هذا ونظرت بحزن الى برج المحطة .

– انا سعيدة بمجيئك . كل شيء يبدو غريبا لي . . . انت كبرت كثيراً . كيف احوالك ؟

فاجبتها محاولا الابتسام :

– طيبة . . .

لكنني لم افلح في الابتسام بصورة طبيعية ، فلسبب ما اصاب وجهي الجمود . ورنت ليليا الي باهتمام ، وتجعدت جبهتها . ويحدث لها ذلك دائماً حين تستغرق في التفكير .

وسالت :

– ماذا بك ؟

– لاشيء . انا مجرد سعيد من اجلك . . . هل تزوجتما منذ وقت طويل ؟

– منذ اسبوع فحسب . انها سعادة حقة .

– نعم ، انها سعادة .

وضحكت ليليا .

– ومن اين لك ان تعرف ؟ مهلا ، ان ملامح وجهك غريبة جداً .

– هذا ما يبدو لك . وهذا بسبب الشمس ، كما انني تعب قليلا . فان اقدم الامتحانات . اللغة الالمانية . . .

– اللغة الالمانية اللعينة ؟ – وضحكتْ – اتذكر كيف ساعدتك ؟

فحركت شفتي وابتسمتْ :

– نعم ، اذكر .

وسالت ليليا بقلق ، وهي تقترب مني :

– اسمع ، اليوشا ، ما المسالة ؟

ورأيت مرة اخرى عن قرب وجهها الجميل الذي فقد شيئاً ما .
نعم ، انه تغيّر ، واصبح غريباً تقريبـــاً بالنسبة لي . ولا استطيع القول فيما اذا اصبح افضل .
– انت تكتم شيئاً ما ؟ – قالت هذا معاتبة – لم تكن كذلك سابقاً !
وقلت بقناعة .
– لا ، لا ، انت على خطا . انني لم انم ليلتي فحسب .
نظرت الى الساعة ، ثم تلفتت حواليها . وهز زوجها راسه بايماءة . وصاحت مخاطبة اياه :
– الآن ، – وامسكت بذراعي مرة اخرى – لو تعلم كم انا سعيدة ! فابتهج من اجلي . اننا نسافر الى الشمال ، للعمل . . . اتتذكر كيف حدثتني عن الشمال ؟ اذن . . . هل انت مسرور من اجلي ؟
لماذا هي تسالني عن ذلك ! وفجاة صارت تضحك .
– اتعلم ، انني تذكرت . . . اتذكر كيف تبادلنا القبلات شتاء على رصيف المحطة ! انا قبّلتك ، بينما انت ارتجفت بشكل جعل الرصيف يصرّ . ها ، ها . . . كان مظهرك آنذاك يوحي بالبلاهة .
وضحكت . ثم نظرت الي بعينين رماديتين مرحتين . ان عينيها رماديتان فى النهار ، وتبدوان سوداوين فى المساء فقط . وارتجفت غمازتان على خديها .
قالت بلا اهتمام :
– لكم كنا حمقاوين !
وتطلعت الى زوجها ، وكانت نظراتهـــا تنم عن الحنـــان . ووافقتها بالقول :
– نعم كنا حمقاوين .
– لا ، لسنا حمقاوين . . . بل كنا مجرد طفلين حمقاوين . اليس كذلك ؟
– نعم كنا طفلين حمقاوين .
اضاء امامنا النور الاخضر لمصباح اشارة المرور . وتوجهت ليليا الى العربة . وكان الاهل فى انتظارها .

وقالت :
– اذن ، وداعاً ! لا ، الى اللقاء! ساكتب اليك حتماً !
– حسناً .
كنت اعلم انها لن تكتب . ولماذا ؟ هي ايضاً تعلم ذلك . ورمقتني بنظرة جانبية واصطبغ محياها بحمرة خفيفة .
– انا مع ذلك مسرورة بمجيئك لتوديعي . وطبعا بدون ازهار ! فانت لم تقدم لي زهرة واحدة !
– نعم ، انا لم اقدم لك اية هدية .
وتركت يدي ، وتابطت ذراع زوجها ، وصعدا الى منصـــة العربة . بينما بقينا نحن تحت على الرصيف . وسالني اهلها عن امر ما ، لكنني لم افقه شيئاً . وصفرت القاطرة فى الامام صفيرا مديدا وحادا . وتململت العربات متحركة . ان القاطرة الكهربائية تحرك العربات برفق عجيب ! وكان الجميع يبتسمون ويلوحون بالمناديل والقبعات ويصيحون ويمشون الى جانب العربات . وعزفت آلتان او ثلاث الات ارمونيكـــا مرة واحدة فى مواضع مختلفة ، وفى احدى العربات انطلق البعض بالغناء بصوت عال . لابد وانهم طلبة . وكانت ليليا قد صارت بعيدة ، وكانت تمسك بيد كتف زوجها وتلوح لنا بالاخرى . وكان يرى حتى من بعيد مدى نعومة ذراعها . كما وترى ابتسامتها السعيدة للغاية .
رحل القطار . فدخنت ودسست يداي في جيوبي ، ومضيت مع سيل المودعين نحو المخرج الى الساحة . كنت اضغط بالسيجارة بين اسناني ، واتطلع الى اعمدة المصابيح الفضية . انها تلمع بشدة تحت الشمس ، وحتى ان العيون تحس بالالم . فخفضت عيني . وبوسعي الآن الاعتراف : طوال العـــام كان يراودني الامل . اما الان فقد انتهى كل شيء . لا بأس ، فانا سعيد من اجلها ، سعيد حقاً . لكن لسبب ما يؤلمني قلبي كثيرا .
انها مسالة اعتيادية . فقد تزوجت الفتاة ، فهـــذا يحدث دائما . ان الفتيات يتزوجن . وهذا شيء طيب جدا . والسيء هو انني لا استطيع البكاء . فقد بكيت آخر مرة حين كنت فى الخامسة عشرة من العمر . اما الآن فقد بلغت التاسعـــة عشرة . وقلبي منحصر فى بلعومي ، ويصعد اعلى فاعلى ، وسرعان ما ساتمكن من

مضغه ، بينما انا لا استطيع البكاء . شيء طيب جدا ان تتزوج الفتيات . . .

خرجت الى الساحة ، ووقع بصري على وجه الساعة فى محطة قطار قازان . ثمة اشكال غريبـــة بدلاً من الارقام – انني لم استطع ابداً فك رموزها . واقتربت من بائعة المياه الغازية . فى البداية طلبت قدح ماء مع شراب ، ثم غيرت رأيي وطلبت ماءا خالصا . ليس من اللائق احتساء الماء مع الشراب حين يبلـــغ القلب البلعوم . وامسكت بالقدح البارد ، ونهلت الماء فى فمي لكنني لم استطع ابتلاعه . وفي نهاية المطاف بلعت بشكل ما جرعة واحدة . وبدا لى ان الوضع صار أفضل .

ثم نزلت الى مترو الانفاق . لقد حدث شيء ما لسحنتى . فقد لاحظت ان الكثيرين كانوا يتفرسون فى وجهي بالحاح . وفى البيت بقيت افكر في ليليا بعض الوقت . وبعد ذلك اخذت مرة اخرى اتطلع الى نقوش ورق الجدران . ولئن رنوت اليها فيمكن ان ترى الكثير من الاشياء الطريفـــة . فيمكن ان ترى الادغال والافيال رافعة خراطيمها . او اشكال بشر غريبين يرتدون قبعات البيريه ومعاطف المطر . او وجوه معارفك . سوى ان وجه ليليا غير موجود على ورق الجدران . . .

لابد وانها تمر الآن بذلك الرصيف الذى تبادلنا فيه القبلات اول مرة . سوى ان الرصيف الآن تلفه الخضرة . فهل ستنظر الى هذا الرصيف ؟ وهل ستفكر في ؟ لكن ، ما حاجتها للنظر اليه . انها تنظر الآن الى زوجها . انها تحبه . وزوجها وسيم جدا .

(٧)

لا يوجد شيء فى هذا العالم باق الى الابد ، وحتى المصيبة . والحياة لا تتوقف . كلا ، لا تتوقف الحياة ابداً ، وتلج روحك متسلطة ، فتتبدد جميع احزانك ، كالدخان ، الاحزان البشرية الصغيرة ، الصغيرة جدا قياسا الى الحياة . هكذا وبهذه الصورة الرائعة شيد العالم .

انني الآن اتخرج من المعهد . لقد انتهت فترة فتوتى ، ومضت بعيدا – بعيدا ، الى الابد . وهذا شيء طيب : فانا رجل بالغ وبميسوري القيام بكل شيء ، ولا يمسد احد شعري وكانني طفل . وعما قريب سأسافر الى الشمال . ولا ادري ، ما الذى يدعونى دوما الى الشمال . لربما لانني مارست الصيد هناك فى وقت ما وكنت سعيدا . وقد نسيت ليليا تماما ، فما اكثر ما انصرم من اعوام ! ان الحياة كانت ستغدو صعبة جدا ، اذا لم ينس شيء . لكن لحسن الحظ هناك امور كثيرة قابلة للنسيان . طبعا انها لم تكتب لي ابدا من الشمال . اين هى – لا اعرف ، كما اننى لا اريد ان اعرف . انني لا افكر فيها البتة . وحياتي على ما يرام . حقا ، انني لم اصبح شاعرا ، ولا موسيقيا . . . لكن ما الحيلة ، فلا يغدو جميع الناس شعراء ! اما المباريات الرياضية والمؤتمرات والاعمال التطبيقية والامتحانات فانها تشغلني كثيرا ، ولا اجد لحظة فراغ . علاوة على ذلـــك لقد تعلمت الرقص ، وتعرفت على كثير من الفتيات الجميلات والذكيات ، وانا التقى بهن ، واقع فى غرام بعضهن ، وهن يقعن فى غرامى . . .

لكنني ارى ليليا فى احلامى احيانا . انها تزورنى فى الحلم ، فاسمع مرة اخرى صوتها ، وضحكتها الناعمة ، وامس يدها ، واتحدث معها . وتبدو احيانا حزينة ومتعبة ، واحيانا مبتهجة ، والغمازتان تتراقصان على خديها ، انهما صغيرتان جدا ، ولا تلاحظهما عيون الغرباء تماما . ولحظتئذ انتعش ، وحتى اضحك ، واشعر بانني فتى وخجول ، كما لو انني عدت كالسابق الى سن السابعة عشرة واعشق لاول مرة فى حياتي .

انني استيقظ صباحا ، واذهب الى المعهد لسماع المحاضرات ، وامضي فترة المناوبة فى اللجنة النقابية او القي كلمة فى اجتماع الكمسمول . لكن ينتابنى في هذا اليوم لسبب ما شعور ثقيل واود البقاء وحيدا ، والجلوس في مكان ما مغمض العينين .

بيد ان هذا نادر الوقوع : نحو اربع مرات فى السنة . كما ان هذه جميعا احلام . احلام ، احلام . . . ثقيلة !

انني لا اريد الاحلام . وانا احب عندما احلم بالموسيقى . يقال ان المرء يكف عن مشاهدة الاحلام اذا ما رقد على جنبه

الايمن . وسارقد منذ الآن على جنبى الايمن . وساستغرق فى نوم عميق وانهض صباحا منشرح الصدر . فما اجمل الحياة !

آه ، الهى ، لكم لا اريد الاحلام !

١٩٥٦

كلب الصيد ار كتوروس*



(١)

بقيت مجهولة قصة ظهوره في المدينة . فقد جاء من مكان ما في الربيع واخذ يعيش هناك .

ويقال ان الغجر المارين بها قد تركوه هناك .

ياللغجر من اناس غريبين . انهم يشدون الرحال في وقت مبكر من الربيع . ويركب بعضهم القطارات ، بينما يستقل البعض الآخر المراكب او الاطواف ، ويجوب فريق ثالث الطرق في عربات ، ناظرين الى السيارات المنطلقة المارة بهم نظرات عدائية . انهم الناس الذين تسري في عروقهم دماء اهل الجنوب ، فيما يبلغون انأى الاصقاع الشمالية . وعلى حين بغتة تجدهم ينصبون مخيماً في ضواحي المدينة ، ويتسكعون في السوق على مدى بضعة ايام ، فيتلمسون الحاجيات ، ويساومون ، ويرتادون البيوت ويطالعون البخت ويطلقون الشتائم ويضحكون — انهم سمر الوجوه ، يتسمون بالجمال ، وتتدلى الاقراط من اذانهم ، ويرتدون الملابس الزاهية . ثم يتركون المدينة . ويختفون منها بصورة مفاجئة كما ظهروا فيها ، وبعد ذلك لن يراهم احد هناك ابداً . وسياتى آخرون ، اما هؤلاء فلن

---

* اسم نجمة « السماك الرامح » . المعرب .

يعودوا ، ان العالم مترامي الاطراف ، وهم لا يحبون ارتياد الاماكن التي زاروها مرة .

اذن ، كانت القناعة تساور الكثيرين بان الغجر تركوه في الربيع .

وقال آخرون انه جاء عائماً فوق كتلة جيلد ابان ذوبان الثلوج في الربيع . وكان يقف ، اسود وسط فتات الثلج البيضاء المشوبة بالزرقة ، وحيداً ساكناً وسط الحركة العامة . فيما كانت تحلق طيور التم فوقه وتصرخ : «كلينك – كلانك !» .

ان الناس ينتظرون طيور التم بقلق دائماً . وحين تاتي ، وتنهض عند الفجر من الاماكن التي تغمرها مياه الفيضانات مرددة هتافها الربيعي العظيم «كلينك – كلانك» يتابعها الناس بابصارهم ، وتبدأ الدماء بالخفقان في افئدتهم ، وساعتئذ يعرفون ان الربيع قد جاء .

مضى الجليد عائماً في النهر ، وصارت تنبعث منه خرخشة ويتكسر بصوت مكتوم ، وتصرخ طيور التم ، فيما كان ينتصب هو فوق كتلة جليد ، وقد لوى ذنبه ، وبدا عليه الحذر والتردّد ، وكان يتشمم ويصغي الى ما يدور حواليه . وعندما اقتربت كتلة الجليد من الضفة تململ ، وقفز بحركة خرقاء ، فسقط في الماء ، لكنه صعد الى الضفة بسرعة ، ونفض عن جسده الماء ، ثم اختفى وسط أكوام الخشب والحطب .

على اي حال ، لقد ظهر في الربيع حين كانت الايام مترعة باشعّة الشمس الساطعة ، وبخرير الماء في الجداول ورائحة لحاء الشجر ، وبقي للعيش في المدينة .

ويمكن التخمين فقط بصدد ماضيه . ويبدو انه ولد في مكان ما تحت شرفة ، وعلى القش . وعندما حان الموعد اختفت امه – الكلبة الاصيلة من صنف الكلاب السلوقية في كوستروما ، والمنخفضة القوائم والطويلة البدن – تحت الشرفة لكي تؤدي عملها العظيم بمنأى عن الانظار . وجرى استدعاؤها ، بيد انها لم تردّ ولم تاكل شيئاً ، وقد انطوت على نفسها تماماً ، شاعرة بانه سيتم بعد لحظات ما يعد اهم شيء في العالم ، وحتى اهم من الصيد والبشر . . .

ولد أعمى ، شأنه شأن جميع الجراء ، فلحسته أمه توّاً ، وقربته الى بطنها الدافيء المتوتر العضلات أكثر بسبب آلام الوضع . وفيما كان راقداً ، آخذاً في الاعتياد على التنفس ، صار يظهر الى الوجود المزيد من الاشقاء والشقيقات . فأخذت تتحرك وتئن وجربت الوصوصة – انها جراء شبيهة به رمادية اللون وذوات بطون عارية واذناب قصيرة مرتجفة . وسرعان ما انتهى كل شيء ، ووجد كل واحد منها حلمة وأخلد الى الهدوء . ولم يسمع سوى صوت غطيط للام وتمطقها وانفاسها الثقيلة . وهكذا بدأت حياة الجراء .

وفي الوقت اللازم تفتحت عيون جميع الجراء ، فادركت بفرح وجود عالم اكبر من ذلك الذي عاشت فيه حتى ذلك الحين . وقد تفتحت عيناه أيضاً ، لكن لم يقيض له ابداً ان يرى النور . اذ كان أعمى وكانت تغطي بصره غشاوة رمادية سميكة . وبدأت بالنسبة له ، وهو الاعمى ، حياة مريرة وشاقة ، وكانت حتى فظيعة ، ما امكن له ادراك عماه . لانه لم يعرف انه أعمى ، ولم يقدر له ان يعرف هذا . فتقبل الحياة كما هي ، وكما وهبت له .

وحدث ان لم يعمد الى اغراقه وقتله ، وهو طبعاً يشكل رحمة حيال جرو ضعيف لا يحتاجه البشر . فبقي ليعيش وعانى الكثير من البلايا والويلات التي صلبت عوده وقسته قبل الاوان .

ولم يكن له صاحب قد يمنحه المأوى ويطعمه ويعنى به ، عنايته بالصديق . فاصبح كلباً مشرداً عابساً واخرق وعديم الثقة بالغير . وفقدت امه ، بعد ان بلغ هو سن الفطام ، كل اهتمام به وبأخوته أيضاً . فتعلم العواء كالذئب عواءاً مديداً وبائساً وحزيناً . وكان قذراً وغالباً ما يصيبه المرض ، وينبش القمامة بالقرب من المطاعم ، ويتلقى الضربات وبراميل المياه القذرة سواء بسواء كالكلاب المتشردة والجائعة الاخرى .

وما كان قادراً على الجرى ، ولم يحتج الى ارجله القوية في جوهر الأمر . وبدا له طوال الوقت انه يمضي للقاء شيء ما حاد وقاس . وحين كان يتشاجر مع الكلاب الأخرى – وقد تشاجر

مرات كثيرة في حياته – فلا يـــرى أعداءه ، ويعض ويهاجم ، معتمداً في التوجه على لغط الأنفاس ، والزمجرة والعويل وخشخشة التراب تحت أرجل أعدائه ، وغالباً ما كان يهاجم ويعض عبثاً .

ولا يعرف الاسم الذي أطلقته أمـــه عليه لدى ولادته – فكان بلا اسم بالنسبة للبشر . ولا يعرف أيضاً فيما لو بقـــى للعيش في المدينة ، أو رحل عنها أو نفق في مكان مـا بوهدة ، لو لم يتدخل الانسان في مصيره ، فاختلطت الأمور جميعاً .

(٢)

في ذلك الصيف كنت أعيش بمدينة شمالية صغيرة ، تقع على ضفة النهر . وكانت تمخر مياه النهر سفن بيضاء ، وصنادل رمادية-وسخة ، واطواف طويلة ومراكب شراعية لطخت جوانبهـا بالقطران الأسود . فيما يمتد على الضفة رصيف تفوح منه روائح قماش الهباية والحبال والعفونة الرطبة والسمك المجفف . ونادراً ما كان أحد يأتي الى هـــذا الرصيف ، باستثناء الفلاحيـــن الكولخوزيين من الضواحي في يوم افتتاح السوق وكذلك المبعوثين في مأموريات ذوي المعاطف الرمادية ، الذين يأتون من مركـــز المقاطعة الى مصنع الأخشاب .

واندحت حول المدينة فوق التلال الواطئة المنحدرة تدريجياً غابات ، جبارة ، لم تمتد اليها يد : اذ كان يجري قطع الأشجار في أعالي النهر . وقد تـــرى في الغابات مروج واسعة وبحيرات نائية مقفرة تنمو على ضفافها أشجار صنوبر ضخمة عتيقة . وكان ينبعث مـــن أشجـــار الصنوبر حفيـــف هادئ باستمـــرار . وحين يهب من المحيط المتجمد الشمالي نسيـــــم بارد رطب ، طارداً الغيوم ، ينبعث من أشجار الصنوبر لغط مشوب بالتهديد وتتساقط أكواز الصنوبر ، التي تدق الأرض بقوة .

وقد استأجرت غرفة في الأطراف ، في أعلى بيت عتيق . وكان صاحب البيت ، طبيباً ، ورجلاً مشغولاً دوماً ، قليل الكلام . وعاش سابقاً مع عائلة كبيرة ، لكنـــه فقد ولديه في الجبهة ،

وتوفيت زوجته ، وسافرت ابنته الى موسكو ، وصار الطبيـــب عندئذ يعيش وحيداً ويعالج الأطفال . وقد اتسم بصفة غريبة هي عشقه للغناء . فكان يطلق عقيرته بالغناء مردداً شتى المقاطـع من الأوبرات بصوت رفيع جداً ، ويتوقـــف بتلذذ عند الأنغام العالية . وكانت لديه في الأسفل ثلاث غرف ، بيد أنه قلمـــا يدخلها ، ويتناول وجبات طعامه وينام في الشرفـة ، فيما تسود الغرفة العتمة ، وتفوح منها روائـــح الغبار والصيدلية وورق الجدران العتيق .

وكانت نافذة غرفتي تطل على حديقة مهملة ينمو فيها عنـب الثعلب وتوت العليق ونبات راعي الحمـــام والقراص بمحاذاة السياج . وفي الصباح تتقافز العصافير وراء النافذة ، وتطيـر أسراب الشحارير لأكل حبات عنب الثعلب ، فلم يكن الطبيـب يطردها كما أنه لم يجمع هذه الثمار . وتعتلي السياج أحيانـاً دجاجات الجيران مع الديك . فيصيـــح الديك بصوت عال ، مشرأباً بعنقه ، ويهز ذنبه ويتطلـــع الى الحديقة بفضول . وفي نهاية المطاف لا يطيق صبراً ، فيهبط الى الأرض وتتبعـــه الدجاجات ويشرع بعجلة في نبش التربة بالقرب من جذور عنب الثعلب . كما كانت ترتاد الحديقة القطط ، التي تكمن عند نبات راعي الحمام ، وتتابع العصافير ببصرها .

عشت في المدينة قرابة أسبوعيـــن دون أن يتيسر لي أبداً اعتياد الشوارع الهادئة ذوات الأرصفة الخشبية والتي ينمـــو العشب بين ألواحها ، ودرجات السلم ذوات الصرير ، والصفير المتقطع للبواخر في الليالي .

لقد كانت المدينة غير عادية . فالليالي البيضاء تسودها في فترة الصيف كله . والكورنيش والشوارع فيها هادئة وغارقة في التأملات . وفي الليالي يسمع بالقرب من البيوت بجلاء وقـــع أقدام – إنهم العمال العائدون من الوجبة الليلية . ويسمـــع النائمون طوال الليل خطوات وضحكـــات العشاق . وبدا أن جدران البيوت مرهفة السمع وأن المدينة ، الهاجعة ، تصغي الى خطوات ساكنيها .

وفي الليالي تفوح من حديقتنا رائحة عنب الثعلـــب وقطرات

الطل . ويسمع من الشرفة الشخير الهادئ للطبيب . بينما يهمهم زورق بمحرك وينشد بصوت نشاز : «دو – دو – دو . . .» .

حدث مرة ان ظهر في البيت ساكن آخر . واليكم كيف جرى ذلك . اذ رأى الطبيب الكلب الأعمى ، حين كان عائداً من نوبة العمل . وقد ربض وفي عنقه قطعة حبل ، محصوراً بين الألواح ، وهو يرتجف . وكان الطبيب قد رآه سابقاً أيضاً مرات عديدة . أما الآن فانه توقف وتفحصه من جميع الجوانب ، وتمطق بشفتيه ، ثم امسك بالحبل وجر الأعمى الى بيته .

وفي البيت قام الطبيب بغسله بالماء الدافئ والصابون واطعمه . وكالعادة كان الكلب يرتعش ويلوى جسده في اثناء تناول الطعام . واكل بنهم وبعجلة واختنق . وكانت تغطى جبهته واذناه دمامل مشوبة بالبياض .

وقال الدكتور حين شبع الكلب :

– والآن ، إذهب !

ودفعه من الشرفة .

لكن الكلب أبدى عناداً وارتجف . وبدرت من الطبيب لفظة : – إحم ! . .

وجلس في الأرجوحة .

حل المساء ، واظلمت السماء ، لكنها لم تحلولك تماماً . وتالقت اكبر النجوم . فرقد كلب الصيد في الشرفة واستغرق في غفوة . كان هزيلاً ، واضلاعه ناتئة ، وظهره محدباً وعظما الحوض بارزين . وكان يفتح احياناً عينيه الميتتين قليلاً ، ويرفع اذنيه باحتراس ويدير براسه حواليه متشمماً . ثم يضع راسه بين قائمتيه ويغمض عينيه مجدداً .

فيما كان الطبيب يرنو اليه ويتحرك في الأرجوحة مبتدعاً اسماً له . كيف يسميه ؟ أم الأفضل ان أتخلص منه قبل فوات الأوان ؟ فما حاجتي الى الكلب ؟ ورفع الطبيب عينيه مستغرقاً في التأملات ؛ كانت نجمة كبيرة تومض فوق الأفق ببريق أزرق .

وتمتم الطبيب :

– اركتوروس .

فحرك الكلب اذنيه وفتح عينيه .

وقال الدكتور مرة أخرى وقد اشتد خفقان قلبه :

– اركتوروس !

فرفع الكلب راسه وحرك ذنبه بعدم اطمئنان .

وناداه الطبيب عندئذ بلهجة آمرة وبابتهاج :

– اركتوروس ! تعال الى هنا ، يا اركتوروس !

نهض الكلب واقترب ودس أنفه بحذر بين ساقي سيده . فضحك هذا ووضع يده على راسه .

تختلف الكلاب كاختلاف البشر . فهناك كلاب فقيرة ومتسولة ، واخرى متشردة طليقة وعبوسة ، وهناك كلاب حمقاء تنبح بلا سبب . وثمة كلاب ذليلة تتوسل في طلب الهبات ، وتهرع الى كل من يصفر لها . انها تلوى اذنابها وتهزها تملقاً ، وتتزلف كالعبيد ، وتهرب مبتعدة بعويل ينم عن فزع اذا ما ضربت أو حتى مجرد أن وجهت لها ضربة دون أن تصيبها .

اننى رأيت الكثير من الكلاب الوفية ، والكلاب الخانعة ، والنزقة ، والمتكبرة ، والمتملقة واللاابالية والماكرة والحمقاء والبلهاء . لكن اركتوروس لم يكن شبيهاً باى واحد منها . فشعوره نحو سيده كان غير اعتيادى ورفيع . اذ أحبه حباً جماً وبشاعرية ، ولربما أكثر من حياته . لكنه كان حكيماً ونادراً ما يسمح لنفسه بالكشف عن اغوارها حتى النهاية .

ووجدت لدى صاحبه لحظات مزاج عكر ، وفي بعض الأحيان يغدو عديم الاهتمام ، وغالباً ما تفوح منه رائحة ماء الكولونيا المزعجة – وهي رائحة لن تجدها في الطبيعة ابداً . لكنه في اكثر الأحيان يكون طيب القلب ، وعندئذ يذوب اركتوروس حباً ، ويغدو شعره منفوشاً ، ويبدو كما لو أن الابر توخز جسده . ويتمنى أن ينطلق ويجري ، ويعوى عواءاً مفعماً بالفرح . لكنه يضبط نفسه . وتتدلى أذناه ، ويتوقف ذنبه عن الحركة ، ويغدو جسده ناعماً وساكناً ، سوى أن قلبه يخفق بقوة وبسرعة . وحين يشرع صاحبه في دفعه ودغدغته ومسحه بيده واطلاق ضحكات متقطعة تشبه قرقرة الطيور ، يشعر بأعظم لذة ! وتكون ترجيعات صوت صاحبه وقتذاك مديدة وقصيرة ، أو كالبقبقة

والهمس ، انها تشبه في آن واحد خرير الماء وحفيف الأشجار أو لا تشبه شيئاً على الاطلاق . وكان كـــل صوت يولد شرارات وروائح غامضة ما ، كمـــا تولد القطرة الاهتزازات في الماء ، فيتراءى لاركتوروس بأن هذا كله قد حدث له من قبل ولم يكن بمقدوره تذكر أين ومتى .

(٣)

سرعان ما اتيحت لي الفرصة للتعرف على حيـاة اركتوروس عن كثب وعرفت اشياء طريفة كثيرة . واعتقد الآن بانه كـان يتحسس عاهته بشكل ما . ومظهره يدل على انه كلب بالـغ تماماً ، بأطراف قوية وظهر اسود وبقع شقراء على بطنه وبوزه . كان قوياً وكبير الحجم بالنسبة لعمره ، لكن اتسمت جميع حركاته بالتردد والتوتر . زد على ذلك أن بوزه وجسده بأجمعه كانـا ينمان عن التساؤل المشوب بالارتباك . فقد كان يدرك كـل الادراك بأن جميع الكائنات الحية المحيطة به هي اكثر انطلاقـا وسرعة منه . انها تجري بسرعة وبثقة ، وتمشي بخفة وبثبات ، دون ان تتعثر او تصطدم بشيء . وخطواتها تختلف في الصوت عن خطواته ، اذ كان نفسه يتحرك دائماً بحذر ، وببطء وبصورة جانبية لحد ما — فثمة اشياء كثيرة تسد عليه طريقه . علماً أن الدجاج والحمام والكلاب والعصافير والقطـط والبشر وحيوانات اخرى كثيرة كانت تعـدو بجراة فوق السلالم ، وتقفز عبر السواقي ،و تنعطف في الأزقة ، وتطير ، وتختفي في اماكن حتى ليس لديه صورة عنها . وكان ديدنه عـدم الثقة والاحتراس . ولم اره ابداً يمشي او يعدو بحرية وبهدوء وبسرعة . فيما عدا في الطريق الواسعة ، وفي المروج او على شرفة بيتنا . . . ولئن كانت الحيوانات والبشر كائنات مفهومة لديه ، واغلـب الظن ، بميسوره مطابقة نفسه بها ، فان السيارات والجرارات والدراجات النارية والعادية لم تكن مفهومة ابداً لديه وخطيرة بالنسبة له . اما البواخر والزوارق المزودة بمحركات فانها كانت تثير لديه فضولاً كبيراً في الفترة الأولى . ولم يكـف عن الاهتمام بها إلا

بعد أن أدرك عجزه عن كشف هذا السر ابداً . كما لم يبد اى اهتمام بالطائرات .

لكن لئن كان لا يستطيع رؤية اي شيء ، فان أي كلب آخر لم يضارعه في رهافة الحس . فقد درس شيئاً فشيئاً جميع روائح المدينة . ولم يحدث له أن ضاع وضلّ طريقه الى البيت . فلكل شيء رائحـة ! وكانت الروائح كثيرة ، ولهـا جميعاً انغام ، كالموسيقى ، وتعلن عن نفسها بصوت عال . ولكل شيء رائحته الخاصة به : فبعضها كريهة ، وبعضها غير متميزة ، وبعضهـا الآخر حلو . ويكفي أن يرفع اركتوروس راسه ويتشمم ، لكي يتحسس فوراً القمامة واماكن الأوساخ والبيوت ، الحجريـة والخشبية ، والأسيجة والعنابر والبشر والخيل والطيور جلية الى درجة ، كما لو انه رآها بنفسه جميعاً .

وكان هناك على ضفة النهر ، وراء المستودعات ، حجر رمادي كبير ، غاص في الأرض تقريباً ، يحب اركتوروس كثيراً تشممه . اذ كانت تنبعث من الشقوق والمسامات فيه اعجب الروائـح واغربها . واحياناً تبقى على مدى اسابيع عديدة ، ولا يمكن أن تبددها سوى الرياح الشديدة . وكـان اركتوروس في كل مرة يمر بمحاذاة الحجر يعرج عليه وينهمك في دراسته طويلاً . وكان يتمخط ويستثار ويبتعد عنه ثم يعود اليه مجدداً ، بغية استيضاح بعض التفاصيل الاضافية .

كما كان يسمع أدق الأصوات التـي لا نسمعها نحن ابداً . فتجده يستيقظ ليلاً ، ويفتح عينيه ، ويرفع اذنيـه ويتصنت . وكان يسمع اي حفيف ، وعلى بعد فراسخ عديدة . كما ويسمع طنين البعوض والدندنة في وكر زنابير في علية البيت . ويسمع كيف يخرخش فئر في الحديقة ويمشي القط الهوينا فوق سطح العنبر . ولم يكن البيت بالنسبة له صامتاً وغير ماهول ، كمـا يتراءى بالنسبة لنا . فالبيت يحيا ايضاً : انه يطلق الصريـر والخشخشة والطقطقة ويرتجف من البرد دون أن يلحظـه أحد . وتسيل قطرات الطل من المرزاب ، متجمعة في الأسفل ، ثـم تتساقط على حجر مستو بهيئة قطرات قليلة . وترد من الاسفل الطرطشة المبهمة للماء في النهر . وتتحرك الطبقة السميكة مـن

الجذوع في خليج صغير بالقرب من مصنع الأخشاب . ويسمع الصرير الخافت لمجذاف – اذ كان أحد ما يعبر النهر بزورقه . فيما تصيح الديوك في أفنية البيوت بقرية بعيدة جداً . لقد كانت هذه الحياة خفية ولا تسمع من قبلنا ، لكنها مألوفة ومفهومة لديه .

وكان يتمتع بخاصية اخرى : فلا يزعق ولا يهر أبداً ، طلباً للشفقة ، بالرغم من قساوة الحياة حياله .

حدث مرة أن كنت ماشياً في الطريق من المدينة . وقد احلولكت السماء وكان دافئاً ، كما هي الحال عندنا فقط في امسيات الصيف الوادعة . وتصاعدت في الطريق بعيداً سحب الغبار ، وتناهى الى سمعي خوار بقر وصرخات حادة ومديدة ، وفرقعة وخضعة السياط . كان يجري اقتياد القطيع من المراعي .

وفجاة لاحظت كلباً يعدو بجد في الطريق باتجاه القطيع . وعرفت اركتوروس من اسلوبه الخصوصي والمتوتر وغير الواثق في العدو . قبل هذا لم يكن يغادر حدود المدينة أبداً . وفكرت في دخيلة نفسي : «الى اين هو ذاهب ؟» وعلى حين غرة لاحظت لدى اقتراب القطيع حالة اضطراب بالغة . ان البقر لا تحب الكلاب . فمن طباع البقر الغريزية الخوف من الذئاب والكلاب . وحين شاهدت الكلب الذي يعدو باتجاهها توقفت صفوفها الأولى فوراً . ثم تقدم الى الأمام حالاً ثور عريض الجسم اشقر تتدلى من منخره حلقة . فنشر قوائمه وشرع قرنيه نحو الأرض ، واصدر خواراً وهو يتجشأ ويشد جلده ويؤبؤ عينيه المحمرتين تتدحرجان .

وصاح احدهم من الخلف :

– جريشكا ! اهرع بسرعة الى الأمام ، فقد توقفت الأبقار .

ومضى اركتوروس في طريقه ، دون ان يشتبه بشيء . وكان قد اقترب من القطيع عن كثب . ففزعت ناديته . وواصل المشي عدة خطوات في عدوه ، وتوقف بحدة وجلس قليلاً ، بعد ان استدار باتجاهي . وفي اللحظة ذاتها جار الثور واندفع بسرعة غير عادية نحو اركتوروس وطعنه بقرنيه وقذفه في الهواء . فومض جسد الكلب الأسود فوق وهج شمس المغيب وسقط

وسط حشد البقر . وولد سقوطه انطباع انفجار قنبلة . وتفرقت الأبقار جانباً ، وهي تشخر وقرونها تصطفق . واندفعت الأبقار الخلفية نحو الأمام ، واختلطت فيما بينها وتصاعد عمود من الغبار . وكنت انتظر وأتوقع بالم سماع خشرجة النزع الأخير ، لكنني لم اسمعها . وفي تلك اللحظة هرع الرعاة الى المكان ، وفرقعوا باسواطهم . وصرخوا صائحين بأصوات متباينة . وتم تطهير الطريق ورايت اركتوروس . كان مستلقياً وسط التراب ، وبدا نفسه مثل كتلة ترابية ، او خرقة عتيقة القيت في الطريق . ثم تململ قليلاً ، ونهض ومشى متأرجحاً نحو قارعة الطريق . ولاحظه كبير الرعاة ، فصاح بشماتة :

– آه ، كلب !

واطلق شتيمة ، وضرب اركتوروس بسوطه ضربة شديدة . فلم يعول اركتوروس بل جفل فقط ، وادار نحو الراعي للحظة عينيه العمياوين ، وبلغ الساقية وتعثر وسقط فيها .

كان الثور يقف في وسط الطريق وهو ينبش الأرض ويعول . ولسعه الراعي بالسوط ايضاً بخفة . وبعد ذلك هدأ الثور فوراً . كما هدأت الأبقار ، وواصل القطيع التحرك على مهل ، مثيراً حواليه سحابة من الغبار مشوبة برائحة الحليب ، وخلفت في الطريق اقراص الروث .

دنوت من اركتوروس . كان ملطخاً بالأوحال ويتنفس بصعوبة وقد مد لسانه ، واضلاعه تتحرك تحت الجلد . وبدت على جنبيه خطوط ما مبللة ، ورجله الخلفية مسحوقة وترتجف . فوضعت يدي على رأسه ، وتحدثت اليه . فلم يرد عليّ . كان كيانه بأجمعه يعبر عن الألم والاستغراب والاستياء . ولم يكن يفهم السبب في الدوس عليه وضربه . وعادة تنشج وتعول الكلاب بشدة في مثل هذه الحالات . اما اركتوروس فلم ينشج .

(٤)

مع ذلك فان اركتوروس كان سيبقى كلباً بيتياً ، ولربما سمن وكسل ، لولا المصادفة السعيدة التي اكسبت حياته اللاحقة بأجمعها مغزى سامياً وبطولياً .

وحدث ذلك كالتالي : توجهت صباحاً الى الغابة للنظر الى ومضات الوداع الصيفية التي حسب علمي انها ستبدأ بالخمود قريبا . فلحقني اركتوروس . وقد طردته عدة مرات . فكان يجلس بعيداً عني وينتظر فترة وجيزة ثم يواصل ملاحقتي . وسرعان ما ضقت ذرعاً بعناده غير المفهوم ، ولم أعد ألق بالاً اليه .

اذهلت الغابة اركتوروس . ففي المدينة كانت جميع الأشياء مالوفة . وهناك توجد ارصفة خشبية ، وشوارع عريضة ، والواح على ضفاف النهر ، ودروب ملساء . أما هنا فصار يلقي في كافة الجوانب اشياء غير مالوفة لديه : أعشاب طويلة وصلدة ، وشجيرات شائكة ، وجذم أصابتها العفونة ، وأشجار مجندلة ، واشجار شوح فتية مرنة ، واوراق ساقطة ذوات خشخشة . وكان يمسه شيء ما من كافة الجوانب أو يوخزه أو يلطمه كما لو انها تآمرت ضده لطرده من الغابة . ثم هناك — الروائح . . . الروائح ! وما اكثرها من روائح غير مالوفة ورهيبة ، خفيفة وقوية ، وما كان يفقه مغزاها ! وكان اركتوروس حين يتعثر بجميع هذه الأشياء ذوات الروائح والحفيف والطرطقة والشائكة . ويجفل ويتمخط بأنفه ويلتصق بقدمي . كان مرتبكاً وخائفاً .

وكنت اقول له بصوت خافت :

— آه ، اركتوروس — يالك من كلب مسكين ، فانت لا تعرف بأن هناك في العالم شمس ساطعة ، ولا تعرف مدى خضرة الأشجار والشجيرات في أوقات الفجر ، ومدى تألق قطرات الطل على الأعشاب ، ولا تعرف بأن حوالينا تكثر الأزهار — بيضاء وصفراء وزرقاء وقرمزية ، وبأن هناك وسط أشجار الشوح الشائبة واوراق الأشجار المصفرة تبدو حمراء شفافة عناقيد الغبيراء وثمار الورد البري . ولو شاهدت في الليالي القمر والنجوم فلربما كنت ستنبح نحوها بكل لذة . فمن اين لك ان تعرف أن الخيل والكلاب والقطط تختلف جميعاً في الألوان ، وان الأسيجة قد تكون بنية وخضراء او مجرد رمادية ، وان زجاج النوافذ يتألق بشدة لدى غياب الشمس ، وان النهر

يغمره عندئذ بحر من لهيب النار . ولو كنت كلباً عادياً معافى لكان سيدك أحد الصيادين ، ولسمعت عندئذ في الفجر صوت النفير الجبار والأصوات الغريبة التي لا تصدر أبداً عن الناس العاديين . وعندئذ لكنت تطارد وحش الغاب نابحاً باختناق وناسياً نفسك ، وكنت ستخدم سيدك الصياد بهذا الجري المحموم في أعقاب الآثار الحديثة العهد ، ولما كان لديك من خدمة اسمى من هذه . آه ، اركتوروس ، يا لك من كلب مسكين .

واصلت الحديث معه هكذا ، بهدوء ، بغية الا يساوره الخوف الشديد ، وتوغلت في الغابة . فأخذ اركتوروس يهدأ بالاً شيئاً فشيئاً ، وبدأ يدرس الشجيرات والجذامير بجراة اكبر . وما اكثر الأمور الجديدة وغير العادية التي اكتشفها . وما أكثر البهجة التي اعتمت قلبه ! والآن صار لا يلتصق بي بعد أن انهمك في عمله الهام . وفي أوقات نادرة كان يتوقف وينظر باتجاهي بعينيه البيضاوين الجامدتين ، ويتنصت للتحقق مما اذا كان ما يفعله صائباً ، وفيما اذا كنت أسير في اعقابه . ثم يشرع مرة أخرى في القيام بدورات بأرجاء الغابة .

وسرعان ما بلغنا المرج ومضينا عبر الأحراش . وغلبت اركتوروس حالة من الاضطراب الشديد . فكان يعض العشب ويتعثر بالنتوءات الصغيرة ويمضي مسرعاً عبر الأحراش . وغدا يتنفس بصوت عال ، ويمشي بعيداً عن الدرب ، دون أن يلقي بالاً الىّ أو الى الأغصان الشائكة . في نهاية الأمر لم يطق صبراً ، واغمض جفنيه ، وانطلق مندفعاً وسط الأحراش محطماً الأغصان ، وغاب فيها ، وانهمك في عمل شيء ما وهو يتمخط . . . وفكرت في دخيلتي «ماذا وجدت ؟»

وانطلق من الأحراش :

— عوو . . عوو . . عوو ! . .

وصحت وقد أصابني القلق :

— اركتوروس .

لكن في هذه اللحظة وقع امر ما . فان اركتوروس اندفع بضجيج في أعماق الأحراش ، وهو يعوي ويزمجر . وسرعان ما

تحول عويله الى نباح عنيف ، وكنت ارى من اعالي الأحراش المتحركة كيف كان يقاتل هناك . فخفت عليه واندفعت للقائه ، وانا اناديه بصوت عال . لكن صياحي جعله ، كما يبدو ، يزداد هياجاً . فاخذت اتعثر واتوقف وسط الأغصان الكثيفة وقد احتبست انفاسي . واركض من فسحة في الغابة الى اخرى ، ونزلت الى الوهدة ، وعدوت الى مكان خال من الأشجار فرأيت اركتوروس فوراً . كان قد خرج من الاحراش واندفع يجري نحوي . ولم اتعرف عليه . اذ كان يجري بشكل مضحك ، ويتقافز عالياً ، ليس كما تجري الكلاب العادية ، لكن مع هذا كان يطارد بثقة وبحماس وينبح بلا توقف وبانفاس متقطعة ، وصار نباحه حاداً رفيعاً مثل نباح جرو .

وصرخت :

– اركتوروس !

فتوقف ، وافلحت في الركض نحوه وامساك طوق رقبته . فيما اندفع هو للتخلص مني وزمجر ، وكاد ان يعضني ، واحتقنت الدماء في عينيه ، ووجدت صعوبة بالغة في تهدئته والهائه . كان اشعث الشعر ومخدش الجسد كثيراً ، واذنه اليسرى متدلية نحو الأرض : لا بد وانه اصطدم بشيء ما مرات عديدة ، لكن حماسه كان شديداً جداً ، وانفعاله بالغاً ، مما جعله لا يتحسس هذه الاصابات .

(٥)

ومنذ ذلك اليوم اتخذت حياته منحى آخر . فكان منذ الفجر يجوب الغابة ، ويذهب الى هناك لوحده ، ويعود احياناً مع المغيب ، واحياناً في اليوم التالي ، وفي كل مرة يكون معذباً منهكاً تماماً ، ومصاباً بكدمات وبعينين مخضبتين بالدماء . وقد شب كثيراً ابان هذه الفترة ، وغدا عريض الصدر وقوي الصوت ومتين الارجل المفتولة العضلات ، وكانها لوالب فولاذية . وليس بمقدوري ان افهم كيف كان يعدو هناك لوحده ، دون ان تدق

عنقه . ومع هذا فاغلب الظن كان يشعر بغياب أمر ما في جولات القنص الفردية التي يقوم بها . لربما كان ينتظر استحسان ودعم الانسان ، وهو شيء لا غني عنه بالنسبة الى اي كلب صيد .

ولم اره مرة واحدة عائداً من الغابة شبعان . فكان جريه ، جري كلب اعمى اخرق الحركات ، بطيئاً وغير واثق طبعاً . لا ، لم يكن ابداً يظفر باعدائه وينهشهم بانيابه ! وكانت الغابة بالنسبة له عدواً صامتاً ، فهي تلطمه على بوزه وعينيه ، وترتمي تحت قدميه ، وتقف امامه حجر عثرة . ولم يتبق لديه سوى الرائحة ، الوحشية والباعثة على الانفعال دوماً ، والتي تناديه اليها ، الرائحة الرائعة اللذيذة بشكل لا يحتمل ، والمعادية . ولم يكن يقوده قدماً الى الأمام سوى اثر واحد من بين جميع آلاف الآثار الأخرى .

وكيف كان يجد طريق العودة الى البيت ، بعد أن يثوب الى رشده في اعقاب الجري المحموم وراء الاحلام العظيمة ؟ وما هو شعور الرحابة والتوجه في المكان الذي وجب توفره فيه من أجل الوصول الى البيت بعد أن يعود الى صوابه منهكاً تماماً ومحطماً ومحتبس الانفاس ، وبصوت متحشرج ، من مكان ما في الغابة القاصية على بعد فراسخ عديدة ، مع حفيف الاعشاب ورائحة الوهاد الرطبة ؟

ان كل كلب صيد يحتاج الى استحسان الانسان . فالكلب يطارد الوحش ، وينسى كل شيء في الدنيا ، لكنه حتى في لحظة اقصى الانفعال يعلم انه في مكان ما ، امامه ، يتقافز سيده فوق دروب الغابة منفعلاً بالقدر ذاته ابان توجهه للقنص ، وانه عندما يحين الحين تكون الكلمة الفصل الى رصاصته . وفي هذه اللحظة يستثير صوت السيد وحشية الكلب . ان السيد يمضي ايضاً عبر الاحراش ويعدو ويصيح بصوت اجش متحشرج داعياً كلبه الى الهجوم ، ويساعده في ايجاد الأثر . اما عندما ينتهي كل شيء ، ويقتنص الوحش ، يرمي السيد الى الكلب باحشاء الفريسة ويتطلع اليه بعينين قريرتين سعيدتين ويصرخ مبتهجاً : «ها انت ، يا حلو !» ، ويمسد الكلب في اذنيه .

ومن هذه الناحية كان اركتوروس يشعر بالوحدة ، ويعاني ،

لأن حب السيد لديه يضارع حمية الصيد . وقد رأيت مراراً كيف كان اركتوروس يخرج من تحت الشرفة ، المكان المفضل لديه للنوم . وبعد أن يعدو في أرجاء الحديقة يجلس تحت نافذة سيده ، وينتظر لحظة استيقاظه . هذا ما كان يفعله سابقاً دائماً . ولئن استيقظ الطبيب بمزاج رائق ، ونظر من النافذة ودعاه : اركتوروس ! – فماذا يحدث للكلب لحظتئذ . فتراه يدنو من النافذة بوقار ، ويرفع رأسه وبلعومه المرتجف ، ويتارجح في مكانه رافعاً رجلاً تلو الاخرى . ثم يلج البيت ويبدأ هناك لغط ما ، وتسمع أصوات سعيدة ، ومقاطع من اغاني الاوبرات ينشدها الطبيب ، ووقع اقدام تمشي في ارجاء الغرف .

وتراه الآن ايضاً ينتظر لحظة استيقاظ الطبيب . بيد أن امراً ما آخر كان يثير قلقه البالغ الآن . فهو يتململ بعصبية ، ويرتج ويمشط شعره باسنانه ويرنو الى اعلى وينهض ثم يجلس مرة أخرى ويشرع في النشيج بصوت خافت . وبعد ذلك يبدأ بالجري حذاء الشرفة ، ويقوم بدورات اكبر ، ثم يرقد تحت النافذة مرة اخرى ، وحتى ينبح نباحاً قصيراً لنفاد صبره ، وتنتصب اذناه احتراساً ويميل رأسه تارة في هذا الاتجاه وتارة في ذاك ، مصغياً لفترة مديدة . وفي نهاية المطاف كان ينهض ، ويتمطى بعصبية ، ويتثاءب ، ويتوجه الى السياج ويتسلل في الفتحة متردداً . وبعد هنيهة كنت اراه بعيداً في الحقل ، يعدو بحركته المنتظمة ، والمتوترة نوعاً ما وغير الواثقة . انه يتوجه الى الغابة .

(٦)

حدث مرة ان كنت أمشي فوق الضفة العالية لبحيرة ضيقة حاملاً بندقيتي . وكان البط في ذلك العام قد سمن بصورة غير عادية ، وعدده كبيراً ، وفي المنخفضات غالباً ما ألقى طيور البكاشين ، وكان الصيد يسيراً وبهيجاً .

ووقع اختياري على جذمور مريح ، فجلست لأخذ قسط من

الراحة ، وحين هذا النسيم الخفيف الذي هبّ منذ لحظة وجيزة وحلّت لحظة الصمت العميق الباعث على التامل ، تناهت الى سمعي من بعيد اصوات غريبة . وبدا كما لو ان احداً ما يقرع جرساً فضياً باستمرار ، ويتناقل هذا الرنين الناعم الحلو ، فيخمد وسط اشجار الشوح ويشتد وسط اشجار الصنوبر ، ويجتاح الغابة بأسرها ، مولداً في كل مكان مشاعر البهجة . وشيئاً فشيئاً صارت الاصوات اكثر وضوحاً وبعد ان ركزت انتباهي ادركت بان كلباً ينبح في مكان ما . كان صوت النباح المنبعث من الجانب الآخر للبحيرة ، من اعماق غابات الصنوبر ، صوتاً نقياً وضعيفاً وبعيداً . وفي بعض الاحيان كان يختفي تماماً ، لكنه يشتد مرة أخرى من مكان اقرب وبقوة أشد .

كنت أجلس على الجذمور واتطلع حوالي الى اشجار البتولا التي تساقط قسم من أوراقها ، فغدت شفافة ، والى الطحالب التي شابها البياض ، واوراق اشجار الحور الارجوانية المتساقطة فوقها ، واصغي الى النباح الرقيق الجرس ، وبدا لي انه يصغي اليه سوية معي السناجب المختبأة وطيور الطيهوج واشجار البتولا ، واشجار الشوح الكثيفة الخضراء ، والبحيرة في الأسفل ، وترتجف خيوط العنكبوت . وسرعان ما تراءى لي وسط ذلك النباح الموسيقي الرائع انني اسمع شيئاً مألوفاً . وعلى حين غرة ادركت بأن هذا اركتوروس يطارد قنيصة .

هكذا تسنى لي سماعه وقتذاك ! فكان الصدى الرنان الضعيف يرتد من اشجار الصنوبر ، ولهذا بدا لي ان النباح صادر عن عدة كلاب . ومرة واحدة صمت اركتوروس ، ويبدو انه فقد الاثر . واستمر صمته لحظات طويلة . وعلى الفور اصبحت الغابة خاوية وميتة . وتراءى لي انني اشاهد كيف يدور الكلب ، محركاً عينيه البيضاوين ، دون ان يركن سوى الى احساسه المرهف . او لربما اصطدم بشجرة ، ولربما يرقد الآن بصدر محطم ، وغير قادر على النهوض ، والدم ينزف منه وقد غلبته الوحشة والالم ؟

لكن المطاردة استمرت بقوة أشد ، وفي مكان اقرب من البحيرة . وموضع البحيرة هذا يجعل كافة الدروب تقود اليها ،

ولابد من المرور بها ، وقد رايت اشياء ممتعة كثيرة بالقرب من هذه البحيرة . اما الآن ، فقد اخذت اهبتي ، وانتظرت ايضاً . وسرعان ما ظهر ثعلب فوق مرج صغير اصطبغ بحمرة نبات الحماض ، النامي فيه ، على الضفة الاخرى للبحيرة . كانت رمادية وسخة ذات ذنب رفيع متهرئ . فتوقف الثعلب هنيهة ، رافعاً رجله الامامية ، منتصب الاذنين ، واصغى الى نباح الكلب المطارد القريب . ثم عبر المرج بحركات وئيدة وصعد الى الاجمة ، ونزل الى الوهدة واختفى وسط الاحراش القصيرة . وعلى الفور اندفع الى المرج اركتوروس ايضاً . كان يمضي في موضع بعيد نوعاً ما عن الاثر ، وينبح باستمرار ، وكعادته دوماً يقفز في جريه عالياً وبحركة خرقاء . واندفع في اثرالثعلب الى الوهدة ، وتسلل الى الاحراش القصيرة ، وزمجر وهرّ هناك . ثم صمت ابان خروجه من موضع صعب هناك ، وبعد ذلك صار ينبح مرة اخرى نباحاً اجش وبصورة منتظمة كما لو ان جرساً فضياً يقرع .

مرقت امام ناظري كما في مسرح غريب الكلب والوحش المتعاديان الى الابد . فاختفيا ، ومرة اخرى بقيت وحيداً ، اصغي الى السكون والنباح البعيد .

(٧)

سرعان ما ذاع في المدينة والانحاء القريبة بأجمعها صيت كلب الصيد غير العادي . فقد رآه البعض عند نهر لوسفا البعيد ، وفي الحقول وراء التلال المتلفعة بالغابات ، وفي دروب الغابة النائية . وصارت تتناقل اخباره القرى ومضارب الماشية وعلى المعابر ، ويجري الجدال بشأنه ابان احتساء قدح بيرة بين عمال عوم الاخشاب وعمال مصنع الاخشاب .

واخذ الصيادون يرتادون بيتنا . انهم ، عادة ، لا يصدقون الاشاعات – اذ يعرفون بخبرتهم قيمة روايات الصيادين . فكانوا يتفحصون اركتوروس ويناقشون فيما بينهم موضوع اذنيه وارجله ، وقدرته على اقتفاء الاثر ، وصفاته الاخرى ككلب صيد ، كما ويبحثون

أمر عيوبه الاخرى ، ويحاولون اقناع الطبيب بأن يبيع الكلب لهم . وكان بودهم كثيراً تلمس عضلات اركتوروس ، وتفحص ارجله وصدره . بيد ان اركتوروس كان يجلس عند قدمي الطبيب عابساً وحذراً جداً ، لذا لم يتجرأ احد على مد يده اليه . اما الطبيب ، الذي كان يصطبغ وجهه حمرة ويعتمله الغضب ، فكان يؤكد للمرة العاشرة ان الكلب ليس للبيع . وآن الاوان لكي يعرف الجميع ذلك . فينصرف الصيادون مكدرين ، ويأتي آخرون بدلاً منهم .

ومرة كان اركتوروس ، الذي أصيب في الغداة اصابة شديدة ، راقداً تحت الشرفة حين ظهر شيخ عجوز في الحديقة . وكانت عينه اليسرى منبعجة ويابسة ، ولحيته التترية المدببة قليلة الشعر . ويعتمر قبعة فرو مدلاة الطرفين ، وينتعل جزمتي صيد عتيقتين . وحين رآني الشيخ غمز بعينه السليمة ، ونزع قبعته ، وحكّ رأسه وتطلع الى السماء .

وقال كيفما اتفق :

– الجو في هذه الايام . . . الجو . . .

ثم سعل وسكت .

وقد حدست مراده فسألته :

– هل جئت بصدد الكلب ؟

– نعم ، طبعاً . . .

وبدت عليه الحيوية والنشاط ، ووضع قبعته على رأسه .

– وماذا تدور هنا من أمور ! وما حاجة الطبيب الى الكلب ؟ لاحاجة له اليه . بينما انا بأمسّ الحاجة الى الكلب . وعما قريب سيبدأ موسم الصيد وغير ذلك . . . انا لديّ كلب صيد ، لكنه ليس جيداً : فهو أبله ولا يكتشف الاثر ولا يجيد النباح . اما هذا ؟ هو اعمى ، أليس كذلك ! لكن ما اعجبه في اقتفاء الاثر . انه كلب ملوك ، بحق الصليب المقدس !

فنصحته بالتحدث الى صاحب الكلب . فتنهد ونظف منخريه وولج البيت . وبعد خمس دقائق خرج أحمر السحنة ومرتبكاً جداً . وتوقف الى جانبي ، واطلق تنهدة ، وجر انفاساً طويلة من سيجارته . ثم تجهم وجهه . وسألته عارفاً بالجواب مقدماً :

– هل رفض اعطاءك اياه ؟

فصاح بكدر :

– بالضبط والتمـــام ، وماذا بوسعي ان أقول له . انني صياد منذ نعومة اظفاري . انظر ، انني فقدت عيني . كما ان اولادي ايضاً يمارسون الصيد ، وما الى ذلك . نحن نحتاج الى الكلب من أجل المهنة . من أجل المهنة ! لا ، هو لا يعطيه . لقد عرضت عليه خمسمائة روبل – اي ثمن هذا ، ها ؟ – لكنه رفض ، ولا يريد اعطاءه ! وكاد ان ينتحب ، ها ! انا الذي يجب ان انتحب . وموسم الصيد على وشك البدء ، بينما انا بدون كلب .

تفحص الحديقة والسياج حائراً ، وفجأة ومض على محياه شيء ما . شيء ما ينم عن المكر والذكاء . وعلى الفور غدا اكثر هدوءاً .

واستفسر الشيخ بلا مبالاة :

– واين ينام الكلب ؟

وغمز بعينه . فيما سألته :

– هل تريد سرقة الكلب ؟

ارتبك الشيخ ونزع قبعته ، ومسح وجهه ببطانتها ، ونظر اليّ بامعان .

فقال : – ليسامحك الرب ! – وضحك – بهذه الصورة انت تدفعني لاقتراف خطيئة . وانت تتصور ! وما حاجته الى الكلب . خبرني انت !

واراد ان ينصرف لكنه توقف في طريقه ورنا اليّ بسعادة :

– وصوته ، صوته ! أتفهـــم انت – صوتـــه ! صاف كالينبوع ، هذا ما اقوله لك !

ثم رجع ، ودنا مني وهمس غامزاً ومشيراً الى نافذة البيت :

– انتظر ، سيكون الكلب من نصيبي . فمـــا حاجته الى الكلب ؟ انه رجل علم ، وليس صياداً . . . وسيبيعني اياه . اقسم بحق الصليب المقدس ، سيبيعه . ان عيد شفاعة العذراء بعيد . وسندبّر شيئاً ما . فيما انت تقول . . . ايه !

وما كاد الشيخ ينصرف ، حتى خرج الطبيب الى الحديقة . وسأل بقلق :

– بماذا حدثك ؟ آه ، اي عجوز بغيض . وعينه ، هـــل لاحظتها ؟ انه يشبه قاطع طريق تماماً ! ومن اين عرف بأمر الكلب ؟

مسح الطبيب يده بعصبية ، واحمرّت رقبته ، وتدلت خصلة شعر بيضاء على جبينه . وعندما سمع اركتوروس صوت صاحبه خرج من تحت الشرفة ، واقترب منا وهو يعرج .

– اركتوروس . انك لن تخونني ابداً .

فاغمض اركتوروس عينيـــه ، ودس انفـــه بين ركبتي الطبيب . وما كان يستطيع الوقوف لضعفه ، فجلس . كان رأسه يتدلى ، وبدا نائماً تقريباً . ونظر الطبيب اليّ بسعادة ، وضحك ، ومسد اركتوروس وراء اذنيه . ولم يكن يعرف ان كلب الصيد قد خانه فعلاً ، وخانه منذ اللحظة التي ولج فيها الغابة سوية معي .

(٨)

شارف اغسطس على نهايته ، واعتزمت الرحيل حين فقـــد اركتوروس . فقد انطلق صباحاً الى الغابة ولم يرجع في المساء ، ولا في اليوم التالي ، ولا بعد يوم .

حين يخرج الصديق ، الذي تعيش معه وتراه في كل يوم وغالباً ما تبدي حتى العناية به ، حين يخرج هذا الصديق ولا يرجع بعد هذا ، لا يتبقى من نصيبك سوى الذكريات .

فاستعدت في ذاكرتي جميع الايام التى امضيتها سوية مع اركتوروس ، وتردده ، واضطرابه ، وركضه الاخرق ، وباتجاه جنبه لحد ما ، وصوته وعاداته ، والامور الصغيرة الحلوة ، وحبّه لصاحبه ، وحتى رائحة الكلب النظيف المعافى . . استعدت هذا كلـــه في ذاكرتي وأبديت أسفـــي لانـــه لم يكن كلبي ، ولانني لم امنحه اسمه ، ولم يحبني انا ، ولم يرجع الى بيتي حين

حول الاماكن الواسعة المغمورة بالمياه التي كانت تنعكس فيها السماء واشجار البتولا العارية والنجوم .

وحين قمت بحركة التفاف حول هذه الاماكن فوق اجمة صغيرة لاحظت امامي فجأة شيئاً فاتح اللون ، وفي البداية فكرت بأن هذا من آخر بقايا الثلج ، لكنني حين اقتربت رأيت عدة عظام كلب متناثرة هنا وهناك . فصار قلبي يخفق بشدة ، واخذت اتفحصها ورأيت الطوق ذي الابزيم النحاسي الذي شابته الخضرة . . . نعم ، لقد كانت هذه تمثل رفات اركتوروس .

وبعد ان استقصيت كل شيء بامعان حدست تماماً كيف حدث ذلك . اذ كان يوجد عند شجرة شوح غير عتيقة لكنها جافة ، غصن سميك منفرد ، وقد اصابه الجفاف شأنه شأن الشجرة بأسرها ، وتدلى وتكسر ، حتى تحول الى عود مدبب املس . وقد ارتطم اركتوروس بهذا العود حين كان منطلقاً في تتبع اثر ساخن تنبعث منه رائحة شديدة ، ولم يدرك ويعرف شيئاً باستثناء هذا الاثر الذى كان يناديه للمضي الى الامام . . . وفقط الى الامام .

واصلت طريقي في الظلام الدامس ، وبلغت طرف حرش ، ومن هناك مضيت الى الدرب وأنا اطبطب بقدمي فوق الارض المبللة ، لكن افكاري كانت تعود الى هناك ، الى الاجمة الصغيرة التي تنمو فيها شجرة الشوح الجافة المكسورة .

ثمة ولع غريب لدى الصيادين باطلاق الاسماء الفخمة الرنانة . وما اكثر الاسماء لدى كلاب الصيادين ، ومنها ديانا وانيتوس وفيبا ونيرون وفينوس وروموﻻ . . . لكن يبدو ان ما من كلب مثله كان جديراً باسمه الفخم الرنان ، اسم النجمة الزرقاء التي لا يخمد بريقها !

١٩٥٧

شيخان



(١)

يقوم كوخ الحارس الى جانب المستودع . واذا ما صعد المرء اليه فيبدو له أن المستودع أعلى مكان في المدينة . فالمبني الحجري الطويل الذي غاص في الأرض بمرور الأعوام يقوم بصورة مائلة على منحدر التل ، الذي نمت فيه الاعشاب الدقيقة المعفرة بالغبار . ويقال ان هذا الجبل كان ساترا ترابيا في غابر الأزمان . وتمتد من المستودع الى النهر في الأسفل منحدرات شديدة فيها حدائق قديمة ووهاد وشوارع ملتوية . وترى من الأعلى ابراج الاجراس في الكنائس ، وسطوح بيوت التجار القديمة ، ذوات الأروقة والواجهات المزينة بالنقوش المحفورة ، والرفوف والعليات تحت السقوف ، وميدان السوق ، وصفوف دكاكين الباعة وساحة الملعب الرياضي الخضراء ، وترسانة إصلاح السفن ومداخن معملين صغيرين أبيضين ، والمرساة والخلجان الضحلة والنهر ، وتنداح وراء النهر الحقول الى الافق المتزعزع ، وحيث تهب الرياح طوال الصيف وتجوب ظلال السحب القاتمة .

يغمر المدينة في الصيف غبار يشوبه البياض ، يتصاعد من وراء السيارات المنطلقة في الطريق العام . والجو قائظ . وغالباً ما تهب رياح ساخنة ، والنهر يتألق فيغشي الابصار ، اما في الامسيات فتتوهج في السهب شمس المغيب الحمراء القاتمة لفترة طويلة . وفي الصيف تاتي السيارات الى المستودع

ومحركاتها حامية للغاية ، واطاراتها ساخنة ، امـــا المستودع فتفوح منه رائحة الصابون والواح خشب الصنوبر ، وقماش الهباية ، والبنزين ، والغبار الجاف .

اما في الشتاء فتغطي الثلوج كل شيء . وفي الليالي تتكوم الكثبان في الشوارع ، وفي الصباح تمشي الخيل فيها باجهاد . وتصبح المدينة اكثر نظافة واناقة وبهجة . وتنطلق الزلاجات في الزمهرير وينبعث منها الصرير . وتئز السيارات بسلاسلها . وفي ميدان السوق تصبح الارض صفراء بسبب روث الخيـــل وسوداء بمعاطف الفرو القصيرة التي يرتديها الناس ، وحمراء بجثث الماشية المذبوحة . وفي الشتاء يغدو المستودع منخفضاً اكثر ، وعابساً اكثر ، وتضعف روائحه في الزمهرير ، ويغمر الثلج المبنى حتى النوافذ ذوات الشباك المزخرفة ، ويزال الثلج بفعل حركـــة السيارات فقط بالقرب من البوابتين المكسوتين بالحديد والمنخفضتين .

ان المدينة قديمة ونائية . وعاش فيها منذ ازمان قديمة المنشقـــون والانقساميـــون والرافضـــون لرجـــال الدين والكولوغوريون ، وشيدوا في وسط الغابات الاديرة المنعزلة ، واحدها اكثر توحداً من الآخر ، وابتعدوا عن الدنيا . اما في المدينة فكان الناس يغلقون نوافذ البيوت بالدرف ، وينعزلون في غرف الصلاة ، ويضعون الاقفال الحديدية الثقيلة على اغطية الآبار . وكان منذ القدم يسافر الى موسكو وبطرسبورغ من هناك اكثر التجار جهلاً وقلة ادب ، فيتاجرون هناك ويعقدون الصفقات ويتصفون ويولمون ويفسقون . لكن كان لدى كل واحد منهم بيت في المدينة ، ويعود كل واحد منهم للموت في مسقط راسه . ولم يكن يشيد هناك منذ القدم اي مبنى بـــاستثناء الكنائس . كما لم يكن ينتج فيها سوى قدر من الزهر والملاعق والعلب المصنوعة من لحاء شجر البتولا . وكانت المدينة متوحشة للغاية وكئيبة ومغبرة ومنسية .

وما برح الحراس حتى اليوم يقرعون المدقّات في الليالي ، ويدفنون الشيوخ وفق الطقوس القديمـــة وتبرز فوق الروابي عجلات ضخمة غريبة للآبار التي ليس لها قرار ، والتي حفرت

في زمن يكاد يقارب عهد الأمير يوري دولغوروكي . وما برحت النساء حتى اليوم يهرعن الى الســـوق ، ويصغين ذاهلات الى تنبوءات كوليا الأبله – وهو وسخ وملوح بالشمس وما ينفك يضحك او يذرف الدموع . . .

لكن بدأ في موضع يبعد عشرين فرسخاً عنه في أسفل النهر بناء سدّ كبير ، وصارت الشاحنات القلابة تنقل الحجارة من المقالع ليلاً ونهاراً . بينما نشأ في أعلى المدينة في فترة نحو عشرة أعوام ، وفجأة ، كولخوز غني عملاق ، ويأتي اليه الاجانب باستمرار في سيارات «زيم» فيتوقفون في المدينـــة حتمـــاً ، ويخرجون حتماً للمشي قليلاً بعد طول جلوس ، وهم يرتدون السراويل الضيقـــة ، والجزم الكبيرة ، والمعاطف الواسعـــة والقصيرة ، والقبعات العالية . فيبدون دهشتهم ويطقطقون بآلات التصوير ، وفي بعض الأحيان يشاهدون بعجلة احدى الكنائس القريبة ، ولم يعد الناس يلقون بالاً الى الاجانب – اذ اعتادوا عليهم .

(٢)

كان عامل المستودع يقف في كوخ الحارس في النهار مرتدياً معطف قطني ويضع القفافيز الخالية من الاصابع ، ويحرر الوثائق والقسائم ، فيما يتدفأ ويدخن سائقو الشاحنات القادمون من الاطراف . وقد صقلـــوا حتى اللمعـــان الجدران على امتداد المصاطب ، وكذلك المصاطب نفسها بالزيت . وفي الزاوية ثمة كومة من خشب أشجار الحور ذات الرائحة المرّة ، والذي يحمله الى هناك من الضاحية فيودور الاعضب اليـــد ، مناوب الحارس الليلي تيخون . وثبت رف فوق الطاولـــة ، وعليه علب ملح وشاي ، وصمولات سوداء مزيّتة واعيرة ميزان المستودع ، وعلب تبغ وسجائر مفتوحة والتي ينساها السائقون هناك .

وكان الهبـــاب يغطـــي سقف كوخ الحارس ، وتتناثر على الارضية الاوساخ وشظايا الخشب . فان كلا الحارسين يتكاسلان ،

ولا ينظفان الغرفة . ويطن بصوت عال الموقد الصغير الملطخ بالطين الأسمر الداكن ، وغير المطلي بالطلاء الأبيض ، وتوجد عليه صفيحة من الحديد الزهر متوهجة حتى الاحمرار ، وينبعث من فتحة الموقد الصغيرة ضوء ذهبي حار . وفي أوقات الزمهرير تغطي الشقوق في باب كوخ الحراسة بالصقيع المجعد ، وينمو الجليد على النوافذ بسمك اصبعين . اما لدى حلول الدفء فيسيل الماء على رفوف النوافذ وتفوح رائحة الرطوبة وروائح ما أخرى كما هي العادة في الأماكن غير المأهولة . امـــا الباب فينتفخ بشكل مما يجعل من الواجب دفعه بكل جسدك لكي ينفتح .

وتوجد في الركن بالقرب من الباب بندقية عتيقة ، ذات عقب ممسوح من كثرة الاستعمال ، وفقدت ماسورتها لمعانها الأسود بسبب القدم ، وسدت فوهتها بخرقة لحمايتها من الرطوبة . وفي بعض الاحيان يقوم تيخون بتنظيف البندقية حين لا يجد مـــا يعمله ، ويستخرج الخراطيش من الخزان . والخراطيش محشوة بخرادق كبيرة الحجم ، وتلمع بالزيت الأصفر عليها ، وثقيلة وتولد برودتها شعوراً لذيذاً في راحة اليد .

كان تيخون من هواة التأمل ، لدى الجلوس على جذمـــور بالقرب من فوهة الموقد المفتوحة والتطلع الى النيران . وعندئذ يغدو وجهه الكبير جامداً ، ويضيق بؤبؤا عينيه ، فتصفوان . وأفكاره ثقيلة ، متأتية عن شيخوخته ، وفي هذه اللحظات يكثر من التدخين ، فيدخن حتى يبدأ قلبه بالخفقان ، ويبصق ببطء على قطع الفحم المتألقة التي تبعث منها الشرر .

وفي أيام الشباب كان تيخون قوي البنية للغاية وبصورة غير عادية . وكان يحمل لدى عمله حمالاً ، بخطوات واسعة من ساقيه الضخمتين ، الحزم البالغ وزنها عشرة بودات * . كما أن أفعاله غريبة وغير عادية : وكان يأكل اللحم النيء مثل الحمالين التتر القصيري القامـــة ، ذوي الوجوه المسطحة ، والشوارب الشفافة القليلة الشعر .

---

* البود يعادل ١٦،٣٨ كيلوغراما . **المعرب** .

فكان يشتري في المسلخ نحو رطلين من لحم البقر ، ويرش عليه الملح ، ويقتطع أجزاءه باسنانه البيضاء المرصوصة ، مضيّقا عينيه ، وتنطلق خرخشة من فمه لدى قضم الغضاريف ، ويسيل على لحيته لعاب وردي – ومظهره عندئذ رهيب !

امضى تيخون شبابه كله وحيداً منغلقاً على نفسه ، ولم يكن لديه أصحاب ، ولم يفتح لأحد مغاليق نفسه ، وعاش صامتـــاً وعابساً دائماً . وحدث مرة أن اختفى من المدينة ، وضاع أثره في فترة عامين تقريباً . ثم عاد ملفح الوجه حليق الرأس تماماً ، وبلحية كثة مشوبة الاحمرار ، ويرتدي قميصاً حريرياً شرقياً ، وجزمتين ممزقتين من جلد السختيان . ولم يتفوه بكلمة واحدة الى أي أحد عن كيف عاش وماذا فعل في غضون هذين العامين – وقال فقط انه سافر الى بلاد فارس . واستمر طويلاً بعد هذا يستخدم في أحاديثه ألفاظاً أعجمية حادة ، وينظر الى الجميع بعبوس وغموض اكثر .

ان الناس عندنا يحبون كل مـــا هو غير اعتيادي وقوي ومقتدر ، – لكنهم لم يحبوا تيخون ، بل كانوا يخافونه ويدهشون منه . وقد ذاع صيته ، بيد انه – صيت غريب ، قاتم . وحين يكون صاحياً لا يخيف ، ولا يثير الاهتمام على الاخص ، الا أنه في حالة السكر – يغدو شريراً ولا يتورع عن اقتراف الافعال المتوحشة والشرسة .

وما كان يشرب في احيان كثيرة ، لكنه يفرط في الشرب ولا يسكر ، بل يفقد عقله ويغدو طائشاً : ويقطب حاجبيه ، وتصبح نظراته ثقيلة ومجنونة وزجاجية . ويطلق عقيرته في الغناء ، ملقيا برأسه الى الوراء ، وهازا تفاحة آدم المغطاة بالشعر ، مردداً أغاني غير معروفة ولا كلمات وبلا الحان . بالاحرى ، انه حتى لا يغني ، بل يعول بصوت ناشز ، بينما صوته جهوري ورنّان .

في بعض الأحيان ، وعندما يبدأ بالشرب منذ الصباح ، يغادر الحانة عند منتصف النهار ، متهدل الكتفين منحني الظهر ، وينظر شزراً الى من يلقاه ، ويدس يديه في جيبي السراويل القذرة المتدلية بشكل مسطح من الخلف . ثم يمضي الى السوق . ويسير في أثره الفضوليون ، مقهقهين بعصبيـــة . وفي السوق ينتزع

عوارض مرابط الخيل ، وقد اصطبغ وجهه بالحمرة البنفسجية ، صامتاً وبوقار ، فيثير فزع الجياد التي تطلق شخيراً . ثم يقترب والعرق يتصبب منه ، وعيناه بيضاوان ، تنمان عن الجنون ، وعلى فمه ابتسامة شبه مخبولة ، من احدى العربات هناك . ويأخذ صاحب العربة يتمتم ووجهه آخذ في الشحوب «ماذا بك ، ماذا بك – اتسمع ، يا اخوان ، يا ارثوذكس ، ماذا الذي يفعله» . فينحني تيخون ويمسك بالعجلة ويوتر ظهره العريض والمحدودب لما حمله من حزم واكياس ، ويقلب العربة مع الحصان . يمسح راحة يده الملطخة بزيت التشحيم بسراويله ، وانفاسه تتلاحق ، ويرنو ببصره حانقاً الى الرجال الهاربين منه ، ويعود أدراجه الى الحانة . وتسمع تمتمة في اعقابه : «احمق ! شيطان مجنون» . كان الناس يخافون الصياح بصوت عال .

تزوج تيخون في حالة سكر . وفي حفل الزفاف حاول فترة طويلة أن يتمسك برباطة الجأش ، والعرق يتصبب منه ، وكان يقبل زوجته عندما تتكرر نداءات «غوركا» * ، وبعد ذلك يزمجر ، ويحلق بعينيه ، ودفع المائدة ، وهرب الضيوف السكارى الى الشارع متدافعين ، وسط اللغط والضجيج . وفي الليل اقتربوا من البيت وجزمهم تدوس صفوف المزروعات في الحديقة ، وضربوا بخازوق اطار نافذة الغرفة التي كان ينام فيها تيخون مع عروسه ، فاسقطوه ، واطلقوا الصفير وحطموا السياج المضفور وتفرقوا هاربين في شتى الاتجاهات وقضى تيخون الليل كله مطارداً احداً ما في الضاحية وهو يعول .

ثم رزق بطفلين . لكنهما توفيا . احدهما – الصبي – توفي بالكوليرا ، والآخر – وقد اصبح فتى بالغاً – غرق حين غاص تحت صندل .

ومال تيخون الى الشيخوخة ليس كالآخرين ايضاً : ليس دفعة واحدة بل شيئاً فشيئاً وبين حين وآخر . وفي نحو نصف عام شاخ حوالي خمسة أعوام ، وظهرت تجاعيد حادة وتغطت

---

* لفظة يرددها الضيوف الروس في حفلات الزفاف داعين العروسين الى تبادل القبلات . **المعرب** .

ساقاه بالنتوءات واصبحتا مقوستين اكثر . ووخط الشيب شعر لحيته . ثم بقي على هذه الهيئة حوالي عشرة أعوام ، وجاء وقت – فابيضت لحيته مجدداً واصابه الترهل وتساقط شعر راسه .

وفي احيان نادرة كان يتذكر بلاد فارس ، وعندئذ يغمض عينيه – كانت الشمس البيضاء محرقة بشكل لا يطاق ، والضجيج يسود في السوق ، وتفوح رائحة حارة من الغبار والاوساخ في الازقة الضيقة والمعتمة ، بينما يتصاعد الدخان الازرق من شحم الضن المتساقط فوق الفحم المتوهج المتقد .

ويجلس الرحال في المقاهي فوق سجاجيد متآكلة متهرئة الخيوط ، ويمضغون الارغفة المتوترة ، ويحتسون القهوة والشاي الاخضر المرّ ، ويدخنون وينظرون جانباً كاشفين عن بياض العيون المشوب بالصفرة . تلمع وجوههم السمر التي يسيح منها العرق . وفي الامسيات كانت اللوحات الحجرية القديمة المتآكلة تنفث انفاساً حارة ، بعد أن حميت في اثناء النهار . ويحلولك الافق المائل الى المغيب القصير غير الروسي ، وتميل الى اللون الوردي قمم المنائر في السماء البنفسجية . بينما يصيح المؤذنون بنحيب حزين بالاصوات المنبعثة من حناجرهم . ويسجد المؤمنون ويعاودون السجود بجباههم ويضغطون بها على الحجر الملفع بالتراب .

عندما يتذكر تيخون هذا كله ، كما ويتذكر مياه الخليج القاتمة الممزوجة بالزيت ، ورائحة القرفة والحديد الصدئ والظلمة الداوية في عنابر السفن ، ورحاب البحر الواسعة الزرقاء اللازوردية ، وحشد الخمالين الذين تنبعث منهم رائحة حيوانية نفاذة : من فرس ويونانيين وارمن وآذربيجانيين وروس – كان تيخون يضغط على شفتيه بقوة ، ويضع يده على قلبه ويغوص في افكاره بكآبة : «كم اتمنى لو اسافر ! . .» .

لكن عرفت حياة تيخون لحظات حلوة ورائعة . ففي كل عام وقبل اسبوعين من عيد القديس بطرس كان يستخرج من الدولاب المناجل المشحوذة منذ وقت بعيد والملفوفة في الجنفاص ويرتدي خفين جديدين مصنوعين من لحاء الشجر وصلبين

كالشقافة ويأخذ كيساً فيه خبز ويسافر للعمل في الحصاد .

كان يسافر بعيداً ، الى الاماكن النائية تماماً ، عند مصب النهر ويقطن فيها جماعة الكنيسة السلفية . ومايكاد يتخذ مكانه في العنبر الاسفل الحديدي الداوي للسفينة الى جانب حطب الوقود ، الذي تفوح منه رائحة الغاب والوهاد والفطر ، والى جانب قسم الماكينات التي تطلق انفاسها بانتظام وتدس صماماتها الحديدية في الزيت الاصفر . وما يكاد يتحسس فقط زبط ولغط وطرطشة الارياش بانتظام خارج سطح السفينة ، والاهتزاز والسرعة والعجلة ، حتى تولى حياته القديمة لفترة قصيرة ويطويها النسيان ، وتدعوه مغرية بالم ولذة الدروب المترية التي لا نهاية لها ، وكذلك المجاري المستقيمة للانهار ، والاجمات الهادئة ذات الروائح القائظة – انها جميعاً امور معروفة منذ أمد بعيد ، وعزيزة لديه منذ نومة أظفاره .

ويصبح تيخون حلو المعشر متسامحاً مع الناس ، ولا يشرب أبداً طوال موسم الحصاد . فينهض قبيل الفجر ، فيبدأ بالحصاد فوراً ، ما دام الندي ما زال موجوداً والجو بارداً ، ويحصد بهمة ونهم وبحركات عريضة دون أن يصيبه التعب ، بل يتأجج حماساً فقط ، ويلتقط أنفاساً عميقاً فتبلغه روائح النضرة لحد الضني للحشائش والدريس والرطوبة الكثيفة للارض في المروج .

انه يحب المراتع الرحبة ، وقرقرة القبرة الوحيدة ، في السماء القرمزية المشوبة بالخضرة عند الفجر . ويرتجف فرحاً لمجرد رؤية مهر ، يجرى خببا بسواعده المبللة بالندى ، ويدق حوافره في الارض بطرقات صماء ، ويبدو ذنبه القصير الكثيف منتصبا ابان جريه . وكان يحب الاولاد بشعورهم التي لفحتها اشعة الشمس ، واقدامهم الحافية ، الذين يصيبهم الفزع ويصمتون ، وينطلقون راكضين من القرية حاملين الى الحاصدين طعام الغداء . ولكن لعل اكثر ما كان يحبه هو سويعات المغيب الطويلة في الصيف ، والاعشاب النضرة الرطبة التي تتساقط بخرخشة تحت ضربات المناجل المنتظمة . وكان يحب التأمل في شيء ما مبهم ورائع ، وسماع رنين الاجراس المديد الحزين الآتي من بعيد ، وصهيل الخيل في المروج ، والاصوات الرفيعة

الرخيمة للنساء الآتية من القرية ، وكذلك كان يحب الغفوة القصيرة في الصيف في الاجران الدافئة ذوات الاريج العطر ، ورؤية تالق النجوم التي لا حصر لها في السماء بعد ان يستيقظ من النوم لتوه ، والتي تومض في نورها بغموض سنابل الشعير البادئة بالنضوج .

لكن انتهى الحصاد ، وقفل تيخون عائداً الى غبار وقيظ المدينة ، والى الروائح الكريهة للضاحية واوساخها . ومرة اخرى توترت فقرات ظهره حتى الاجهاد ، ومشى فوق السلالم المنحنية للمراكب ، ومرة اخرى بدأ صراخ المأمورين وفاحت روائح قماش الهباية والقطران من الصندل ، وانبعثت من النهر رائحة العفونة والطمى ، ومن السوق – من اعلى – رائحة الروث والبول ، من الحانات والمقاهى ، ومرة اخرى بدأ تيخون بالشرب وبفقدان عقله وبالشجار وباطلاق الشتائم ، ومرة اخرى صار الجميع يدعونه بالمسعور ، ومرة اخرى شعر بالحنين الى بلاد فارس . . .

* * *

ترمل تيخون منذ وقت بعيد ، ويعيش وحيدا ، واستسلم للقدر ، وصار طيب القلب . وغدا ابسط في التعامل واكثر صراحة ، واطلق لحيته الرسولية السوداء التي وخطها الشيب ، لكنه ما برح قوى البنية كالسابق ، ولم يفقد قوته الرهيبة ، ولا عافيته الصلبة الحديدية ، ومابرحت ترافقه شهرته كرجل قوي اسطوري .

واصبح من معالم المنطقة ، واحبه الناس ، واخذوا يفتخرون به ، ويتحدثون عنه الى الزائرين ، واكتشفوا فيه على حين غرة العقل والفطنة الروسية وصاروا ينتخبوه على مدى عشرين عاماً عضواً في مجلس بلدية المدينة ، ويوقف سكرتير لجنة الحزب في المنطقة سيارته لدى رؤية جسده الضخم ، ويخرج بعجلة ويبادله التحية ويسأله باعجاب عن صحته ، شاكياً مقدماً بصدد العمل والمشاغل والهموم والخطط ، ولكنه لا ينسى التفاخر

بالانجازات أيضاً . وقد اعجب تيخون هـذا الاهتمام بشخصه ، وهذه العناية المشوبة بالاحترام ، فيعبس عن عمد ويرمش بجفنيه دمعة عجوز تنبجس في عينيه ، ويمسد لحيته بيده الضخمة الرمادية المائلة للزرقة ، ويتنفس بعمق وبحرية ، ويتطلع حواليه بتلذذ – الى الشارع والى الناس والى السماء والى النهر في الاسفل .

وبعد ان يتمتع السكرتير بمرأى تيخون ، والتحدث معه عن الشئون الادارية ، ويغدو مرحاً وكما لو اكتسب عافية اكثر ، ويجلس في سيارته من طراز «جازيك» ، فيما يواصل تيخون طريقه ، مزرا المعطف الفرو القصير في البرد القارس ، متطلعاً في الناس بانشراح ووجهاً لوجه . ويتبادل الناس التحيات والاحاديث معه ، ويتوقفون ويدعونه الى المقهى . ويجيب تيخون الجميع بدماثة وبصوت رنان وعال ، لكنه لا يذهب الى المقهى الا مع اصدقائه القدامى . وهناك ينزع قبعته ، ويفتح معطفه الفرو القصير اوسع ، ويمد تحت الكرسي ساقيه بحذاءي اللباد العاليين اللذين لا ينطويان ، ويطلب ربع قنينة فودكا وقدحي شاي . ويصنع لنفسه مشروب «بونش» . ويدنو منه الشباب ، من عمال التركيب والعتالين في السفن من الترسانة النهرية ، ويرجونه ان يشرب معهم . ويحملون اليه قدحاً فيشرب بكل ارتياح بدون تناول المازّة ، مظهراً لهم قليلاً صلابته وقوته .

كما يحب تيخون التصويت . وقبيل الانتخابات يكاد يرتاد يومياً تقريباً مركز الدعاية الانتخابية ، ويطالع المجلات والجرائد ، ويصغي السمع لدى القاء التقارير والخطب . ويصوت الاول دائماً بين الناخبين ، واذا ما كانت لديه نوبة عمل في ذلك اليوم يحمل اليه الصندوق قبل غيره . فيضع العوينات ويطالع ويتفحص القسائم الانتخابية طويلاً ، ومرة اخرى يستفسر عن النائب – من هو ، من اين ، من هو ابوه وامه – ويأمر قائلاً : «اخرجوا» – ويضع القسائم في الصندوق بعناية باصابعه الثخينة .

(٣)

ان النهار قصير في الشتاء . وتذبل بسرعة شمس المغيب الباهتة الضوء ، وتخمد الثلوج الوردية ، وتلمع نوافذ البيوت لآخر مرة بنور ذهبي ، وتصطبغ السطوح وابراج الاجراس بلون ارجواني ، ويزحف الظلام على النهر والمدينة .

يأتي تيخون الى النوبة الليلية عند الساعة التاسعة . فيقوم سوية مع مدير المستودع باختبار الاختام ، ويتثاءب ، ويستعد لليل الطويل . وبعد ان يشعل النشارة في الموقد يتناول البندقية ويخرج الى الشارع ويتطلع حواليه كالعادة . والسماء مظلمة وصافية ، وتضيء نجوم متفرقة صغيرة بلون يميل الى الاخضرار . ويمشي تيخون في الدائرة التي يولدها مصباح الشارع ، وينظر الى النهر الواسع المعتم . ويتألق الثلج تحت قدمي تيخون ويخز العيون ويولد صريفاً . وتنبعث رائحة الجليد من النهر ، والحديد البارد ومعطف الفراء . وحين يمر تحت المصباح يبدو ظله قصيرا ومتماسكا . ثم يطول بعد كل خطوة ، ويزداد سمنة ، ويغدو ضخماً ومترنحاً ، ويضيع في مكان ما على سطوح البيوت في الاسفل .

يقيد الزمهرير كل شيء هناك ، فيبدو ساكناً وجامداً . ولا يتصاعد سوى الدخان الشفاف من مدخنة كوخ الحارس نحو السماء القاتمة ، ويترك فوق سطح المستودع المغطاة بالثلج ظلا باهتاً ومتارجحاً . وتضيء المصابيح بعيداً في الاسفل ، على ضفة النهر ، بالقرب من المرسى والارصفة . فتبدو كبقع مضيئة متفرقة فوق الثلج . ونادرا ما تمر شاحنات «ماز» الاخيرة ، فينزلق النور الشفاف لمصابيحها فوق السطح ، وعلى الطريق ، ويرتعش بعيدا في النهر ويسمع بجلاء ضجيج المحركات المرتفع . المدينة هاجعة ، ملفعة بالثلج ، وحتى في العتمة يضيء كل شيء بلون معدني مغبش : الشوارع والوهاد والافنية والعنابر والحدائق – فيما تبدو نوافذ البيوت القريبة والابواب الواطئة للمستودع فقط سوداء اردوازية .

وفجاة تنطلق من غابة الشوح الصغيرة في الاعلى زحافة

صغيرة مصحوبة بزعيق ، وبعد ان تتدحرج الى الاسفل ، تتوقف بالقرب من مصباح الشارع . وحدق تيخون في القادم ، وعرف حين دنا منه ، رجل الميليشيا الشاب للمنطقة . وكان حصانه صغيراً ، وقويا ، وجانباه المجعدان رماديين ، فاطرق برأسه على الفور ، واستغرق في تاملاته . واراد رجل الميليشيا ، وحتى انزل ساقه ذات جزمة اللباد ، لكن لامر ما تردد مفكراً ، وترك العنان ، ونزع القفاز ومد يده الى جيبه لاخذ السجائر .

فقال بحيوية وبصوت رنان مشددا على «تش» :

– مرحباً ، تيخون يغورويتش ! الم يقع حادث ما ؟

ورد تيخون ساخراً :

– اية حوادث يمكن ان تقع لدي !

– لا تقل هذا ، فالحوادث عندنا كثيرة ! – قال رجل الميليشيا هذا بوقار وباعتزاز – مثلاً ، اليك ما حدث الآن . . . – وصمت ساحباً الانفاس من سيجارته ، ثم اطلق نحو الاعلى سحابة كبيرة من الدخان والبخار وبصق . . . وانا آت بالذات من واقعة كهذه .

– حقاً ، من اين انت قادم ؟

– من بونداريفو – لقد ذبحوا فتى يعمل ميكانيكيا . تسع طعنات ، انزل به بن الكلبة .

وسال تيخون بتاثر :

– هل توفى ؟

– ما زال حياً . في حالة هذيان ، يهذر باشياء مضحكة .

وسال تيخون باهتمام :

– وهل القى القبض على الجانى ؟

– نعم . احتجز في مجلس القرية ، وغداً سنطلب سيارة لنقله .

فقال تيخون بعد لحظة سكون :

– لقد احسنتم العمل ، ولماذا حدث هذا لهما ؟

– بسبب فتاة – قال رجل الميليشيا هذا وهو يرتدي القفاز – هناك فتاة ، يقال انها حسناء ، وقد حدث ذلك بسببها . . .

– وماذا سيكون مصير هذا الجاني ؟

– انني لا اشفق عليه . اذا بقي المجنى عليه حياً ، فسيحكم على ذلك بالسجن عشر سنوات ، اما اذا فارق الحياة فسيحكم عليه بالاعدام رمياً بالرصاص ! حسب القانون .

– نعم . . . – قال تيخون ذلك رافعاً قدميه الواحدة تلو الاخرى ، ومعدلاً وضعية البندقية ، والثلج يصر من تحته – وكل هذا بسبب امراة . ما اكثر الرجال الذين يهلكون بسببها ، شيء لا يقبله العقل !

فعارضه رجل الميليشيا بابتهاج :

– اوه ، لا ، هذا غير صحيح – وجلس في وضعية مريحة اكثر – هذا غير صحيح . السبب هو غباء الرجال وفسادهم لا غير . اما المراة فهى تعنى بالنسبة لحياتنا . . . انا مثلاً تزوجت .

وقاطعه تيخون :

– حقاً ؟ انا سمعت بانك تزوجت . هل من زمن بعيد ؟

– قبل اسبوعين ، وبدأ الاسبوع الثالث .

– مع بائنة ؟

– اية بائنة ! انها يتيمة . . . انتظر حين ساتقاضى المكافاة عن تلك القضية ، سنقيم عرساً . انني ، ياتيخون ايغوريتش ، اردت ان اسالك منذ وقت بعيد . والآن مررت عن قصد الى هنا . . . هل توافق على ان تكون عراباً لي في حفلة العرس وغير ذلك .

وسال تيخون باهتمام متزايد :

– هل هي جميلة ؟

وعاجل بالتدخين ايضاً ، وولع سيجارته لدى رجل الميليشيا .

– وماذا كنت تظن !

قال رجل الميليشيا هذا بسرعة ، متطلعاً الى الوجه الدائري لتيخون الذي اقترب منه لاشعال سيجارته . ثم فتح ازرار معطفه ، ومدّ يده في الجيب الجانبي .

– لا ، لقد تركتها في البيت . انني اردت ان اريك صورتها

الفوتوغرافية ، انني كنت اعيش وحيداً ، اما الآن فحين ارجع من المناوبة اوجد النار موقدة في الشقة ، وحساء الملفوف جاهز في الموقد ، وتنسدل على النافذة ستائر من الدنتلا . فيما انا قادم من الزمهرير ، ومتجمد من البرد ، وحتى منخراى يتجمدان ، اليس كذلك ؟ فتقوم هي بنزع معطفي فوراً ، اقول انها تنزع معطفي .

كان صوته يرن فرحاً ، ويمط الكلمات ويكررها ، ساعياً الى اطالة متعته من حديثه نفسه . فيتلغظ كلمة معطف مثل لفظة «موعطاف» .

– وتجلب لي الماء للاغتسال ، وتلاطفني ، وتدغدغني .

ويأخذ رجل الميليشيا بالضحك ، ويغدو عاجزاً عن مواصلة الحديث . اما تيخون فانه يبتسم ايضاً لكن بشيء من اللامبالاة ، – ويحرك جزمتيه اللباد ويسحب انفاسه متشمماً . وكانت الزحافة مليئة بالتبن ، وقد تدلت جدائله فوق زلاجات الزحافة ، ويمس الثلج – وبدت اطراف الجدائل بيضاء اللون . وتسود الهواء البارد رائحة الصيف العذبة .

وانهى رجل الميليشيا كلامه بصوت متحشرج قائلا :

– هكذا نعيش ، بينما انت تقول – امرأة !

ثم سعل ، متطلعاً الى وهج الانوار البعيدة فوق السد الجارى تشييده . ولاحظ بصوت آخر اعتيادى بقوله :

– انهم منهمكون في البناء . وما اكثر القادمين ، انهم بدأوا اعمالاً كبيرة عندنا كما في الاماكن الهامة .

ولاحظ تيخون مبتسماً :

– سيزداد عدد اللصوص .

– آه ، تيخون يغوريتش ، المسالة لا تكمن في هذا !

وانحنى رجل الميليشيا والتقط العنان . – اننا سنلقى القبض على اللصوص ، لكن الحياة ستكون اكثر متعة . حسناً ، انا ذاهب . وهكذا ، بوسعي ان اعتمد عليك في موضوع العرس .

عدل رجل الميليشيا جراب المسدس ، ونظف منخريه الواحد تلو الآخر مطلقاً صوتاً قوياً وحاداً بصورة غير عادية ، وشد الاعنة . وتحرك الحصان بفرح ، بعد ان وقف طويلاً واصابه

البرد ، ببوزه الاشعث الذى غطاه الصقيع ، وانبعث من تحت الزلاجات صريف حاد ، وسمعت صلصلة الزحافة الرفيعة التى صارت تخمد شيئاً فشيئاً ، وخشخشة «جيك . . . جيك . . . جيك !» تحت حوافر الحصان . ومضى رجل الميليشيا دون ان يرفع ساقه المتدلية من الزحافة ، التي كانت تحفر الارض بعقبها على حافة الطريق .

انهمك تيخون مجدداً السير تحت مصباح الشارع ، مفكراً في زوجة رجل الميليشيا الشابة ، ضاحكاً بسخرية ، ومتطلع الى المدينة تحته ، ومتوقفاً بين الفنية والفينة مصغياً السمع .

وسرعان ما شعر بالبرد ، ومضى الى كوخ الحارس لشرب الشاي ، ويداه تطبطبان على كتفيه .

(٤)

وكان يعيش في البلدة ، في الاسفل ، بمحاذاة النهر رجل عجوز آخر . كان مليونيراً سابقاً ، من اصحاب السفن والمطاحن ، لقبه كروغلوف . وتراه يرتدى صيفاً وشتاء في معطف فراء قصير متهرئ ، متشقق لقدمه ، من اصناف المعاطف التى كان يرتديها الناس فى زمن القياصرة آل رومانوف ، دون ان يخلع قبعته وجزمتى اللباد صيفاً وشتاء ، ولا تفارق يديه عصاه القديمة ذات المقبض الفضي .

وكروغلوف من اقران تيخون ، وكان فى شبابه ذائع الصيت ايضاً فى روسيا كلها . لكن شهرته من نوع آخر : عربات «الترويكا» المنطلقة بجنون ، والغجر ، واللهو الغريب والمتفنن فيه ، الذى لا يمكن ان يمارس الا فى مثل هذه الاصقاع المتوحشة النائية . كان كروغلوف يشبه الغجر فى سحنته ، اعجف البنية ، وعيناه سوداوان متألقتان ثاقبتان ، وشعر رأسه كثيف وفاحم السواد . كما لم يعرف حدوداً فى اللهو والتصف والفسق والفساد ، كما لم يعرف حدوداً فى اقباله على العمل بعد السكر والعربدة . وكان يسافر للهو الى موسكو وبطرسبورغ ،

ويبلغ حتى باريس ، مثيراً دهشة الفرنسيين المتحضرين بعربته «الترويكا» ، والمبالغ الضخمة التى كان يبذرها يومياً فى المطاعم وبيوت الدعارة ، وكذلك يثير العجب بكآبته الغبية ودموعه ورقصه وولعه بالملاعبة والمشاكسة الطائشة .

لكن بالرغم من كل افعال اللهو والقصف هذه فان كروغلوف الراسمالى ربّ عمل قاسياً وذكياً وبارد الدم . وكاد يفرض سيطرته على الاقليم كله ، وعاش عن قصد في هذه المدينة المنعزلة النائية ، وكان يأتى اليه لابداء ضروب الطاعة المحافظون والتجار وحتى رجال الدرك لاعنين دروب روسيا .

وحين تزوج تيخون اخذ لقاء زوجته بائنة صغيرة ، وفكر في الاستقرار للعيش في القرية ، واشترى طاحونة في ضواحى المدينة وانتقل للعيش هناك ، وبدأ بالعمل ، لكن في العام نفسه جعله كروغلوف يفقد كل ماله . ولم يبق له قرشاً واحداً ، وعاد تيخون الى المدينة مكبلاً بالديون ، وقد ازداد غيظاً وشراسة . اما كروغلوف فكان حين يلتقى تيخون على المرسى ينزع فى كل مرة قبعته العالية ، ذات البطانة الحريرية الناصعة البياض ، وينحني مطاطئ الراس مع ضحكات المأمورين ، ويسأل : «كيف صحتك ايها السيد التاجر ؟» ، فيما كان تيخون ينظر اليه شزراً فحسب .

كانت الثورة بالنسبة الى كروغلوف مفاجأة وبمثابة هزيم الرعد فى السماء الصافية ، وكان قد بلغ وقتذاك نحو الاربعين من العمر ، وقد جنح يومئذ الى الاعتدال فى تصرفاته نوعاً ما ، وصار رب عمل اكثر تشدداً وقسوة وحريصاً على ماله بلا هوادة ، وشاع بين الناس ان راسماله يقدر بمليون روبل . وادرك في لحظة خاطفة بحاسته كموجيك ان العودة الى الماضى امر في حكم المستحيل ، وان ما جرى يتسم بنطاقات واسعة وعميقة ، وان من الواجب عليه السفر ، والهرب . واوشك على الهرب . وحصل على جوازات سفر (بريطانية) ، وملأ صندوقاً من صناعة اهل فيليكى اوستوج بالذهب والمجوهرات ، لكن زوجته صارت تثرثر ، وكانت امرآة بسيطة يعوزها الذكاء ليست أهلاً لكزوجة . فجاء رجال الحرس الاحمر وصادروا الذهب واخرجوا

عائلة كروغلوف من بيتهم ، بينما احتجزوه فى السجن فترة ثلاثة اشهر . وخرج كروغلوف من السجن شخصاً آخر تماماً ، فقد هزل وغدا اسمر الوجه ووديعاً وذا مظهر بسيط ، لكنه اشد نقمة وحقداً في كوامن نفسه . ولم يستطع ان يغفر لزوجته حتى الموت ما حل به من ارزاء ، ففى غضون خمسة عشر عاماً لم يقل لها كلمة طبيعية واحدة ، وحين توفيت زوجته ودع جثمانها فى الكنيسة ولثم المتوفاة حسب الطقوس في جبينها ، لكنه لم يذهب الى المقبرة لمواراتها التراب . وفيما حين كان يأتى الى المقبرة في ايام السبت لزيارة قبرى ابويه ، لم يعرج مرة واحدة على قبرها ، كما لم يعرف موضعه .

وحين بلغ كروغلوف من العمر ارذله أصبح من أتباع الطائفة الانجيلية ، وصار يعيش منعزلا وحيدا ونسيه الجميع . وكان فى ايام السبت يرتاد دار الصلاة ، ويقرأ الانجيل بورع ، ويجد فيه ، وقد غمره شعور من السعادة والظفر ، المزيد من علامات اقتراب يوم الاخرة . وبقى كالسابق يكن اشد العداء للسلطة السوفييتية ، ويرفض كالسابق المشاركة فى الانتخابات . «كان المحافظون يقفون امامى طائعين ! انا من رعايا بريطانيا !» – كان يقول هذا بانفة وبسخرية مخاطبا الدعاة للانتخابات ، وعندما يلح هؤلاء عليه كثيراً يدق الارض بعصاه ويشحب وجهه غضباً .

ثم اصابه الشلل ، واخذت رموش عينيه ترتجفان بلا انتظام . ففى البداية يتهدل الجفن الايسر بسرعة كما لدى الطيور ، وبعد ذلك تغمز العين اليمنى ببطء . اما لحيته الوسخة الهيئة فتهتز باستمرار ، ورأسه الاصلع المتعظم ذو الصدغين المقعرين يبدو لامعاً وشاحباً مثل راس الميت . وكان سيء الهندام قذراً كحال امثاله من الشيوخ ، وحتى تنبعث منه رائحة كريهة في اثناء البرد القارص . لكن كروغلوف لم يفقد حتى الآن طبعه العنيف وكان حتى الآن ، وهو الشيخ المهان ، والهياب ، والهرم ، يفتح على سعتهما عينيه الزائغتين المتصلبتين فجاة ، ويهز راسه ، ويرتجف جسده الضعيف غضباً في لحظة خاطفة – ولحظتئذ يغدو من العسير الصمود امام نظراته .

يبدو عجيباً احياناً ثبات الانسان ! ثمة رجل في المدينة يكن له كروغلوف الحقد على مدى عشرات السنين ، وليس بمقدوره سماع اسمه بدون ان يشعر بالحنق العارم ولكن بلا فائدة . وكان كروغلوف مستعداً لكى يهب ويفعل اي شيء من اجل فقط ان يرى عدوه ذليلاً مهاناً ، وان يتلذذ بادراك علو مكانته وتفوقه عليه ! وغالباً ما يعذبه كروغلوف ويعدمه ويصليه بنيرانه في لياليه المسهدة ، وهذا العدو ، ويالغرابه الامر ، لم يكن سوى – تيخون .

ان كروغلوف يبغضه ويحتقره كل هذه الفترة الطويلة وبهذا العنف ، حتى ان شعوره ذاك قد تحول الى ما يشبه الولع ، النشوة الروحية ، ولم يعد بميسوره عدم التحدث مع تيخون واهانته . وفى الشتاء حين تكون الامسيات لدى كروغلوف طويلة وكئيبة جداً ، يسمع تيخون نحو ثلاث مرات في الشهر الوقع السريع لعصا كروغلوف على الارض ، وبعد لحظة يرى الشكل المألوف والمكروه لديه أيضاً . فيدنو كروغلوف ويتوقف تحت مصباح الشارع .

فيسأل تيخون بانفاس متثاقلة :

– ماذا تريد ؟

ويقول كروغلوف منحبس الانفاس ويحرك يديه على صدره تحت معطفه :

– عند حف . . كنت عند حفيدي . وفي الطريق الى البيت وجعنى قلبي . . . وظننت انني سأموت . واحسست بحلاوة بالغة في فمي .

اما تيخون فيلتزم الصمت عابساً ، ومتطلعاً الى كروغلوف بنظرات جانبية : فهو لم يكن يحب المرضى ، ويخشى ان يحس بالاشفاق عليهم .

وقال كروغلوف بعد ان استرجع انفاسه :

– ساقاى ترتجفان ، ساقاى الضعيفتان . انها المرة الثانية ! لابد وان نهايتي قريبة . . . لمن سأنقل تحياتك يا تيخون هناك ؟

فقاطعه تيخون بفظاظة :

– ماذا تفعل بالقرب من القاعدة ؟

وقال كروغلوف بتواضع وبلهجة بسطاء الناس ، وعن قصد :

– لا شيء . . . هكذا . . . انني اقف فحسب . . . أتذكر اموالي . فهذا المستودع انا الذي بنيته . هذا المستودع لي .

– لك ؟ – قال تيخون بسخرية وهو يتمطق . هكذا انت . . . يالها من امور !

وصرخ كروغلوف بصوت مبحوح :

– صه يا حمقاء !

وصار يغرز عصاه حانقاً في الثلج .

صمت تيخون . وبعد ان هدأ كروغلوف قليلا سأل :

– الا تفكر في الانتقال الى الدنيا الاخرة ؟ – وراح يتفحص جسد تيخون الضخم . – نعم ، لديك ما يكفى للحياة نحو عشرين عاما . اما انا فاخاف ، – ويقول هذا بغموض ويغمز بعينيه – انا اخاف الموت . ها انذا اقف معك بالرغم من انك صعلوك . اما انا فقد كانت روسيا باجمعها تعرفنى بينما انا واقف معك . فلماذا ؟

وضحك تيخون ساخراً وقال :

– كانت تعرفك روسيا ثم نسيتك ، هذا هو السبب في وقوفك معى .

– حمقاء ، انت تكذب . . . انا اخاف العودة الى البيت . فساعود ، وارقد ، والافكار متصارعة في راسي ، واحس بثقل على صدري . ثقل على صدري . كما لو ان هناك من يهيل التراب علي . معنى هذا ان بوادر الموت آتية ! اننى اؤمن بالله فاشعل السراج تحت الايقونة ، وافكر «يا الهي !» . في النهار انشغل بهذا الامر او ذاك ، لا بأس ، اما في الليل . . . تجدني راقداً ومصغياً . . . الساعة تدق . . . مرة واخرى . . . والطيور تتململ في القفص ، فلدي غنادر ،والحياة ممكنة .

– اذن تحب الحيوانات ؟

– بالضبط . . . بالضبط . انا احب ان اجد كائنات حية الى جانبي . وحين كانت العجوزة على قيد الحياة تراها

تشخر . . . اما الآن فانا وحدي . لا اسمع اية انفاس ، واسمع دقات قلبي فقط . انه يخفق بحشرجة قوية . آه ، ما اكثر ما تعذب قلبي . لقد تعذب حقا ! انا لا احب الاصغاء الى خفقان قلبي . كما انني فكرت ، اى حيوان آخر اقتنى ؟ القطة ، مثلا ؟ انا لا احب القطط ، ولا اطيقها . انها تتسم بالغموض ، والتوحش . ولندعها وشانها ! وكانت لدى كلبة اسمعها دامكا ، وقد لاذت ببيتي ، اخذها الشيطان ! كانت كلبة قوية ونهمة ، وكانت تلتهم من الطعام ملء صندل ، لكنني قتلتها .

– قتلتها ؟

– خنقتها ! – احسن كروغلوف الحقد الدفين في سؤال تيخون وضحك – «هاهي البداية» ! لقد طردتها من بيتي ، لكن بلا فائدة ، اذ اعتادت عليه . لكن بم ساطعمها ؟ انني لا استطيع ان اطعم نفسي مع سلطتكم هذه ! ليس بمقدوري اطعام الكلبة هذه . فدعوتها الى العنبر وصحت «دامكا !» ، لنذهب . . . وجاءت ، فاخذت حبلاً ، وصنعت فيه انشوطة ، فيما نظرت الكلبة الىّ ، ويبدو انها ادركت المسالة فعوت ، وعندئذ اجهزت عليها . . .

وقال تيخون ، وهو يرنو بتثاقل الى وجه كروغلوف البشوش بصورة غير عادية :

– اذن ، لم تاخذك بها شفقة ؟

فرد كروغلوف بارتياح :

– حمقاء : فكر ، لم الاشفاق عليها . اعلم ان اى كلب لا ينفق لوحده . اي لا بد وان يقع له امر ما : كان يدهس ويغرق ويصيبه السعار او يجرى اقتناصها وقتلها . . . هذا ما قدره لها الله .

ولاحظ تيخون بلا مبالاة :

– يالك من شرير ! انك صغير الحجم مثل صرصور ، لكن لديك من الحقد ما يعادل حصاناً كبيراً . ان روحك عفنة . . .

– آها . . .

واخيرا حقق كروغلوف مراده ، والسبب الذي جاء من اجله ، وعلى الفور اخذ يهتز من الحقد الجارف .

– آها . . . لقد تذكرت الروح ! وعندما سلبتنى كل ما املك هل فكرت فى روحى ؟ ها ؟ مالك تعيس ، يا نذل ، يا صعلوك متشرد ! لقد كان كروغلوف يعيش ويوفر العيش للاخرين ، وما اكثر ما اطعمتكم واشربتكم ، يا حقراء . والملجأ الذي تحول الى مدرسة مهنية الآن من افتتحه ؟ والكنيسة التي هدمتموها من شيدها ، ها ؟ والحمولات التى كنت تنقلها ، من كان صاحبها ؟ والعشيقات ، عشيقاتى كن من بنات المدينة ، هل حصلن مني على القليل من المال ؟ كنت اهجرهن ، لكنني لم اتركهن لحالهن ، بل شيدت لهن البيوت . بينما كنا سابقاً نعيش ، وليس مثلكم من الكافرين بالمسيح ، ومن الكلاب المتشردة . وكان يحدث ان اعمل حتى يصبنى الوهن ، والشرر يتطاير من عينى .

فاضاف تيخون بعبوس وبهجة :

– كان الشرر يتطاير منك بسبب السكر .

– بسبب السكر ! او تدرى متى يغدو الاحمق ذكياً ؟ حين يمسك لسانه عن الكلام . خير لك ان تسكت ، بسبب السكر ! كنت اشرب ، فيما تكسب المدينة باجمعها من ثروتي . وما اكثر الالاف التى انفقتها ، اين هي ؟ اننى لا انام الليالى ، وافكر طوال الوقت ، لماذا سلبونا أمولنا ، وافكر هل حقا ان الحياة سابقاً اسوأ مما هي عليه الآن ؟ وعندما ابدأ باستعادة الذكريات يقشعر بدني . فانا اتذكر كل يوم ، واذرف الدموع !

وقال تيخون مماحكا :

– تفكر . . . – وصار يضحك منتقما ، مطبطبا على جنبى معطفه الطويل – وتذرف الدموع . اذن صارت القطة تذرف الدموع على الفئران . وغير هذا ، الا تفكر فى شىء آخر ؟

فقال كروغلوف ، وهو يرفع يدا مرتجفة :

– افكر فى شىء آخر ايضا . ستحل قريبا نهايتكم جميعا . لم يتبق لكم وقت طويل تشربون فيه الدماء . ان ما جار فى الكتاب المقدس سيتحقق ، سيتحقق ! آوه ، وعندئذ ستحرقكم نار جهنم جميعا ، اوه ، اى عذاب اليم ستلقون . . . او تظن ان الذرة شىء لا مغزى له ؟ هكذا ، اتظن ذلك ؟ لا ! لقد قيل فيه :

سيقوم الاخ ضد اخيه ، والاب ضد ابنه ، وستنهال المصائب ، وستنشق السماء ، وستحترق الارض والسماء . . . نعم ! وسيأكل احدكم لحم الآخر ، مثل الضباع فى الصحارى العربية . انكم صنعتموها من اجل تداهمكم مصائبها ، وستحترقون بها انفسكم ، عليكم اللعنة ! ولتتذكروا عندئذ كروغلوف ! ولتتذكر يا يهوذا من كان يقدم لك الطعام والشراب ، ومن خنت مع الكلاب السائبة العفنة ! لقد سرقتم مال كروغلوف ، حسنا ! ان مكانى جاهز . . . !

وزمجر تيخون صارخا ، وقد انفعل واهتاج فى نهاية الامر لما قاله كروغلوف :

– مكانك جاهز فى سعير جهنم ! انك تأسف على اموالك ؟ وكيف كسبتها ، ها ؟ من قدم سم الزرنيخ الى ابيك ؟ ومن اغرق ابن اخيك ؟ انت تسكت ، ايتها الافعى الغادرة ؟ ما اكثر الناس الذين افقدتهم مالهم . وما اكثر دموع اليتامى التى ذرفت بسببك . وما السبب الذى كان يدعونى الى شرب الخمر ؟ انه بسبب من صيرنى احمق ! لقد كنا «نحيا» ، اتمنى لك ان تحيا هذه الحياة فى الدنيا الاخرة ! انت تذكر الباريسات ، بينما لا تذكر الجوع والكوليرا – فاطفالك لم يموتوا بهما . وهل كنت عن رضا احني هامتى واجهد نفسى فيما امتلأ جسدى بالدمامل ؟ ومن افسد حياتى وشبابى – اليسواهم من امثالك مصاصى الدماء ، اللعنة على امهاتكم ؟ اننى لا اتذكر شيئا – فحياتى كلها مضت كيوم واحد – فكيف هذا ؟ انت تئن مسهدا فى الليالى ، وتتحسر كثيرا على الماضى ، اما انا فاجلس فى غرفة الحارس ليلا ، واستغرق فى التفكير دون ان اجد القدرة على تذكر اى شىء . لم يتم اعدامكم جميعا ، ويجب استئصال شافتكم لقاء كل اقترفتموه ، وللاقتصاص منكم لجميع الجائعين ، وكلنا جميعا – القضاء عليكم عن بكرة ابيكم ! وانت . . . ايها الشيطان المتباكى ، آه ، انت . . . ساقتلك ! لا تأت الى بعد والا فساقتلك ، انك ستثير حنقى ، وانت تعرفنى ، وانت تذكرنى ، فدعنى وشانى ، ولا تستثير الذكريات فى قلبى . . . فانا اصلا آسف واعض اصبعى ندما لاننى لم اقض عليك فى العام السابع

عشر . . . اتسمع يا تاجر ، اتسمع ، واقسم بحق الصليب المقدس هذا !

وامسك تيخون بتلابيب كروغلوف وقد ارتسم على وجهه تعبير رهيب ، وابعده عن مصباح الشارع ، وياقة معطفه تتمزق ، ولم يقاوم كروغلوف ولزم الصمت وكان يحرك اقدامه طائعا ، ولحيته ترتجف .

ودمدم تيخون محتبس الانفاس :

– مهلا ، سينتهى فى الربيع بناء السد ، وستغرقك المياه ايها الوغد اللعين .

ودفع كروغلوف فسقط .

نهض كروغلوف بجهد بالغ ، والتفت نحو تيخون ، وشعر ببقبقة وصرير فى بلعومه .

وصرخ وهو يتلجلج غاضبا ، وقد اختنق بدموعه :

– لن . . . لن تغرقنى . . .

وكرر تيخون برنين وحيوية :

– ستغرقك ! لقد انتهت ايامك ، ستنفق يا تاجر ، يا صاحب السعادة ! – وفجأة تذكر – كيف الصحة ياصاحب السعادة ! ها ؟ هوو . . . هوو . . . هوو . . .

وصار كروغلوف ينحب ويقول :

– لن تغرقني . . . ساعيش بعد ان تموت انت . . . ان دمى لايموت . . .

وضحك تيخون بابتهاج شديد ، وبروح انتقام شديدة ، اما كروغلوف فقد رفع لحيته ، وصعد وجهه المبلل بالدموع نحو السماء السوداء .

وابتهل قائلا :

– الهى !

ودمدم الفاظا غير مفهومة : بو – بو – بو . . .

ثم اختفى فى العتمة ، ممزق الفؤاد ، وقد تملكه اليأس البالغ لتذكر قوته فى ايام زمان وسلطته ، وكبرياءه وجبروته ، دون ان يرى شيئا لما يذرف من دموع . لقد انصرف من أجل ان يصلى ، وان يثبت لنفسه المرة تلو المرة بان نهاية العالم

قريبة ، ومن اجل ان يبغض كل البغض كـــل ما هو جديد ، وفتى ، وغير مفهوم لديه ، ولكى يرتجف وتنحبس انفاسه مجددا لدى رؤية جسد تيخون الضخم فى مكان ما . وانصرف ، من اجل ان يعود ، كالمدمن على الكحـــول والمتعطش الى الشرب ، مرة اخرى بعد نحو اسبوعين الى مستودعه السابق .

وحين سيأتى الى هناك ، متارجحـــا وجالسا القرفصاء ، لضعفه ، ومتكئا على عمود الكهرباء ، سيعنف نفسه مرة أخرى ، ويوجه اللعنات ويهدد بافظع قصاص تيخون وجميع الذين يبنون الحياة الجديدة سوية معه . وسيتذكر القديم بكآبة وبألم عظيم وعذاب وابتهاج – حياته ونجاحاته وثروته وحتى اخفاقاته فـــى الماضى وسيبدو كل ما عاشه فى الماضى ، كله جميعا ، لذيذا حلوا ورائعا وعادلا ، اما كل جديد – فهو غريب وعدائى وغير مفهوم وغير عادل . ومرة أخرى سيأخذ تيخون فـــى الزمجرة والصراخ عليه والسخرية منه بقسوة ويدفعه من عنقه ، بعد ان يفقـــد طوره .

والناس العارفون بهذه العداوة العجيبة فى ثباتها ، والتـــى غدت اسطورة فى المدينة ، والشيوخ الذين يذكرون تيخون فى شبابه ، ووحشيته وطبعه الجارف العنيف ، تساورهم القناعة بان لا محيص من وقوع مصيبة . وسيقتـــل تيخون كروغلوف . والناس المقنعـــون بهذا يبررون القتـــل مسبقا ، بقولهم ان كروغلوف نفسه اراد هذا !

١٩٥٨

مانكا



(مهداة الى ك . غ . باوستوفسكى)

المسافة بين فازينتسى وزولوتيتسا تعادل ثلاثين فرسخاً . ولا توجد طريق ، ويجب السير عبر درب غير مطروق ، نمت فيه الطحالب والاعشاب وحتى الفطر . ويبـــدو الى مانكا احياناً انها لو لم تمض في هذا الدرب كل يوم حاملة البريد ، لغدا كـــل شيء موحشاً هناك منذ وقت بعيد – ولضلت طريقها في الغابة .

ومانكا يتيمة .

قالت ، وهي تسبل عينيها وتلعق شفتيها بلسانها المدبب :

– لقد غرق ابي في العاصفة ، بينما انتحرت امي في العام التالي . اذ جزعت كثيراً لفقدانه ! فخرجت مرة مـــن البيت ، ومشت على الجليد في البحر ، حتى بلغت مكاناً غير متجمد فيه ، وخلعت ملابسها وكومتها في صرة على الجليد والقت بنفسها في الماء . . .

واردفت وقد علت وجهها الحمرة :

– كانت امي متوحشة وغريبة . . .

كما اتسمت مانكا ايضا بشيء من الغرابة ، وبشيء غيـــر عادي . وتتجلى مظاهر الطبيعة العذراء والانطـــــواء في صمتها ، وابتسامتها الغامضة ، وعينيها المطرقتين المشوبتين بالخضرة . وعندما دفنت امها قبل اربعة اعوام ، راحـــت مانكا تسير بكآبة وبلا مبالاة وتنظر باصرار الى ما تحت قدميها ، وفجأة ترفـــع رموش عينيها وترمق السائرين في الجنازة بعينين غريبتيـــن

فيهما شيء من الجسارة والفتور ، مما جعل الرجال يسعلون بارتباك فقط . اما النساء فكففن عن العويل وشحبت وجوههن فزعاً .

انصرمت فترة عامين على بدء مانكا في العمل كساعية بريد . ومشت في اعوامها السابعة عشر الكثير جداً من الفراسخ ، مما يكفي لبلوغها مدينة فلاديفستوك . لكنها تحب عملها . ويبدو بيتها مهملاً خاوياً كئيباً ، فهو يخلو من الحيوانات المنزلية ، وتتراءى السماء من فتحة في سقف المخزن الذي لم يتم اصلاحه منذ وقت بعيد ، كما لم يدفأ الموقد على مدى نصف عام .

تمضي مانكا ، النحيفة والطويلة القوام ذات الساقين الممشوقتين والركبتين العاريتين ، في خطوات خفيفة وبسرعة دون ان يصيبها الوهن تقريباً . وفي اثناء الصيف تلوّح الشمس شعرها ، وتغدو ساقاها وذراعها حمراء ثم تميل الى السمرة القاتمة ، ويصبح وجهها اكثر نحافة ودقّة في الملامح ، فيما تزداد عينيها خضرة ونظراتها حدة .

تهبّ على وجهها الريح البحرية المنتظمة ، وتحمل رائحة قوية بشكل عجيب ، هي رائحة النباتات المائية التي ينشرح لها الصدر للغاية . وبحلول شهر اغسطس تتفتح ازهار قرمزية على ضفاف الجداول المعتمة ، التي تتكوم عليها الجذوع والاغصان التي جندلتها العواصف ، ومياهها رقراقة وصفراء فاقعة يتصاعد فيها الزبد . وحينئذ تقتطف مانكا الازهار ، وتصنع منها باقات كبيرة ، او عندما تأخذ قسطا من الراحة في أفياء اشجار الشوح الرمادية التي شوهتها الرياح الشتوية الشمالية ، تزين رأسها بازهار الاقحوان ، او باغصان العرعر ذوات الثمار الزرق القاتمة ، وتتصور نفسها عروساً .

وتشعر باليسر واللذة والحرية في المشي حين تحمل كمية قليلة من البريد . لكن في بعض الاحيان ترد رزم وحزم ومجلات كثيرة ، وحينئذ يوضع على ظهر مانكا حقيبة – كيس كبير ، ويتم تحميله حتى يغدو ثقيلاً ومتماسكاً .

ويصيح رئيس نقطة البريد بصوت عال غير خشن :

– كيف الحال يا بنت ؟ هل ستحملينه ، ام الافضل جلب حصان .

فترد مانكا بحشرجة ، وتتورد وجنتاها ، وتحرك كتفيها لتعديل وضع الكيس :

– لاباس . . .

وبعد ان تمشي مسافة فرسخ واحد تشعر باوجاع في ظهرها ، وتغدو ساقاها ثقيلتين . لكن ما اكثر سعادة صيادي السمك في مرابضهم بهذه الايام . وما اكثر ما يجدون من حيوية ومسرح ، وبأي بطء وحرص وضحك يجري ملء القسائم ، وما اشد حب الصيادين لمانكا في هذه الايام .

فيصيحون :

– تعالي يابنت ! انزعي الكيس ، لا يزال امامك متسع من الوقت . . . اجلسي معنا لتناول حساء السمك ! هات يا ميتكا ملعقة !

ويهرع احدهم المدعو ميتكا الاشقر الشعر مخزن اللوازم والعدد لجلب الملعقة ، ويأخذ بمسحها بالفوطة في حركة سريعة ، ويقدمها الى مانكا بانحناءة الى الارض مازحاً .

وتصرخ اصوات من كافة الانحاء :

– إعطها المزيد من السمك . . . من السمك . . .

فيصطبغ وجه مانكا بالحمرة ، وتسبل عينيها ، وتجلس وتأخذ في تناول الطعام ، ساعية الى بلع اللقم بهدوء ، متحسسة بامتنان عناية ومحبة صيادي السمك لها .

اما توزيع الرسائل والجرائد فهو امر يبعث على الارتياح ، اذ لا تشعر بحزامي الكيس يمزقان كتفيها ، وما اكثر ما تشاهد من اشياء في طريقها . وما اكثر ما تراودها من افكار ! ويتعين على مانكا ارتياد ثلاثة مرابض لصيادي السمك في طريقها الى زولوتيتسا . وفي كل مرة تجد الناس ينتظرونها هناك بفارغ الصبر ، وهي لا تخيب آمالهم ابداً : فتأتي في الوقت المقرر ، وتحتسي الشاي وتتناول معه حبات عنب البقر ، وتروي آخر الاخبار وتسلم البريد ، وبحلول المساء تصل الى زولوتيتسا ،

وترنو الى طيور النورس ، والى صفحة البحر الملساء الزرقاء المائلة للخضرة ، وتتمايل بجسدها وتدمدم بشيء ما : «يـــا نورس ، يا نورس . . . احمل اليه حبّي ! . .» . وتتذكر ، كما في الحلم ، جدتها العجوز ، التي توفيت منذ وقت بعيد ، ورحلت عـــن هذا العالـــم منذ وقت بعيد ، وتذكـــرت حكاياتهـــا ، وعويلهـــا وولولتهـــا ، واستعـــادت في الذاكـرة لوجدها الالفاظ الغريبة ، الشبيهة بالنبـــؤات : «ساقف أنا عبدة الرب مانكا مبتهلة ، وسأرسم علامة الصليب ، من باب الى باب ، ومن بوابة الى بوابة ، وسأخرج الى الحقل المترامي الاطراف . . . وكذا حاله ليصيبه الوهن والمـــرض ، وليحترق في النار ، ودعه لا يطيق العيش والوجود ، ولا يأكل ولا يشرب !» . احست بالفزع . واخذ قلبهـا يخفق بعنف ، وتبللت راحتا يديها من القلق ، وكان بيرفيلي في تلك اللحظات اثيراً الى قلبها على الاخص ، وجميلا – بعيد المنـــال على الاخص !

كان البحر ساكناً ، رقيقاً كالحرير ، وكانت مياهه ترتفع وتنخفض دون ان يلحظها البصر ، كما لو انه يتنفس . وغطـت السماء غيوم خفيفة بيضاء ، واختبأت الشمس بين طياتها ، وبدت كبقعة ساطعة مغبشة . وهناك فوق راس البر الاحدب والازرق تساقطت اعمدة النور في البحر ، بشكل مراوح بيضاء وزرقاء ، فتألقت مياه البحر ساطعة للغاية ، وكانت تتحدب هناك وتبدو وكأن الدخان يتصاعد منها هناك . وكان الصيف رائعاً وبهيجاً ودافئاً جداً .

(٣)

حدث مرة ، في سبتمبر ، ان اقتربت مانكا من المربض ، وكانت قد غدت في اثناء الصيف اكثر توحشاً وابتعاداً عـــن الناس ، ثم توقفت حذرة . وكان الجو في ذلك اليوم غائمـــاً

تتلاعب فيه الرياح وتضطـــرب امواج البحر . وسقط عنـــد الفجر مطر قصير بقطرات كبيرة ، وغمرت الكوخ العتمة وصار مظهرها خريفياً فوراً ، ولمعت النوافذ لمعاناً خفيفاً . وحملت الامواج الى الساحل في هذا اليوم كمية وفيرة من الاعشـــاب البحرية ، وكثرت على الرمال قناديل البحر الهلامية الحمـــراء ، ونجوم البحر الصغيرة القرمزية المشوبة بالصفرة . . .

وقع في شباك المصيدة في العشية مساء عدد كبير من اسماك السلمون ، واقيم في فازينتسي اليوم عيد ديني رسولي ، فشحن الصيادون السلمون في زورق ، وقد غمرتهم الكآبة ، ومضـوا جميعاً لتسليمها الى مركز استلام السمك ، واستغلال الفرصة للاستحمام وللمبيت في منازلهم وللاحتفال بالعيد .

وذهب معهم بيرفيلي ايضا ، وفي المساء جاء الى النادي ، واصغى الى عزف الارمونيكا ، كما عزف نفسه قليلاً وبـــلا مبالاة ، ثم توقف ، واخذ يقزقز اللب ، ويمزح بصوت عـال جداً ، ثم سكر مع الشباب في الشارع ، فصارت عيناه المليحتان تنظران بحول جانباً ، وغدا صوته مبحوحاً قليلا ، واصابه الانفعال اكثر فاكثر ، فدفع الشبان والفتيات ، الذين انتظموا في حلقة ، والتحق بهم رافعاً وجهه النحيف الصغير ، ومغمضاً عينيه بكسل ، وانبعثت دقات وصرير من جزمتيه المصنوعتين من جلد الكروم ، وراح يردد الاهازيج البذيئة بلامبالاة ، مع ضحك الشبـــاب البهيج ، وشتائم الفتيات المصطنعة .

وكان طوال المساء يتابع لينكا بنهم وحشي ، وبانفعـــال بالغ ، ومهما فعل فانما كان ذلك من اجلها ، وعنـــدما طُرِدَ جميع المحتفلين من القاعة ، وبدأ وضع المصاطب فيها ، وبيع تذاكر السينما ، وجدها وسط الحشد ، فامسك بيدها بقـوة واقتادها الى غرفة المدخل حيث تقرقش تحت الاقدام قشور عباد الشمس ، وتنبعث رائحة التواليت ، وحصرها الى الجـــدار وهمس ، ووجهه يزداد شحوباً وعيناه تنظران بحول جانباً ، قائلا :

– لنذهب اليك . . . ماذا تفعلين بي ؟ لنذهب ونجلس في البيت . . .

وقالت لينكا بجرأة وبلا اكتراث ، دون ان تنظر الى بيرفيلي :

– بوسعي دوما الجلوس في البيت .

وكانت تنظر بنهم الى ما يدور في النادي .

– اذن لاتريدين ؟ – سألها بيرفيلي بتهديد وبعجز متشمما رائحة المساحيق وشعر لينكا . – هل وجدت أحداً آخر ؟ من البحارة ، نعم ؟ حذار ، فقد تأسفين ! حذار ، اذ ستذرفين الدموع مدراراً . . .

فأمرته لينكا بهمس :

– دعني .

وتخلصت منه بخشونة وبقوة ، وتوجهت الى النادي دون ان تلتفت مرة اخرى نحو بيرفيلي ، وبعد ان صفقت الباب بشدة . اما بيرفيلي فقد لاحظ لاول مرة اي نفور في تهديها المكتنزين ، واية ذراعين كبيرتين شهيتين لديها ، ووجهها المليح بقسوة ، وكيف تهزّ عجزها بوقاحة وبتحدٍ .

خرج الى الشارع المظلم ، الذي تنيره مصابيح قليلة متفرقة ، والى الجو البارد المنعش ، وفتح ازرار قميصه العسكري منتزعاً اياها ، ونزع قبعته ومضى الى البيت ، وهو يرتجف من الغيظ والخزي ، ويدق الارض الخشبية بكعبي جزمتيه بقوة . واخذ من البيت دون اصغاء الى توسلات امه قنينة فودكا والخبز وشحم الخنزير ، وتوجه الى البحر واستقل الزورق وبعد ساعتين بلغ مربضه .

دخل الى الكوخ منفعلاً بعد ان جذف بحنق ، واشعل المصباح ، وسكب قدح فودكا دون الجلوس الى المائدة ، وشرب ضاغطاً على اسنانه ، وحك شعر رأسه الخشن الذي نما ابان موسم الصيف . ثم خرج من الكوخ ، وجلس على جذع شجرة مقطوعة واشعل سيجارة ، وتطلع الى العتمة طويلا بعينيه الزجاجيتين ، والى برودة البحر ، الى حيث كان يتدحرج على الافق في ليالي الصيف قرص الشمس القاني الخابي الهائل ، وحيث تتراقص الآن اكثر فاكثر اعمدة الهالة القطبية الزرقاء وينبعث منها ألق خفيف وتخبو بوهن .

في الصباح حين دخلت مانكا الى الكوخ في السكون الحذر وغير العادي ، كان بيرفيلي مازال نائماً على سريره في الزاوية ، وقد نشر ساقيه ، وبطنه العارية البارزة العضلات ، ورأسه ملفوفاً بالمعطف اللبادي . وعندما سمع اسطفاق الباب استيقظ ، ونظر ببلاهة نحو مانكا ، ومسح وجهه .

فقال عابساً :

– آه ، لقد اتيتِ . . .

وجلس الى المائدة ، ووضع رأسه بين يديه .

– هل توجد رسائل ؟

– لا . . .

جلست مانكا على المصطبة ولملمت ساقيها بخجل تحت المصطبة واطلقت تنهدة .

– لا ؟ ماذا جلبت اذن ؟

– الصحف . . .

وسعلت مانكا ولعقت شفتيها .

– الصحف !

ثم نظر بيرفيلي الى النافذة بكآبة .

– ستهب عاصفة . اخشى ان تتمزق الشباك . . . ماذا يدور في القرية عندنا ؟ لقد رحل الكلاب ، فهم بحاجة الى اللهو والقصف .

نهض بتثاقل وتوجه نحو الدلو لشرب الماء متطلعاً الى قامة مانكا الملتوية . وسأل بغموض :

– مالك اليوم لست كالعادة ؟

ثم ألقى رأسه الى الوراء وفتح فمه واخذ يشرب . وهمست مانكا :

– مالي ؟ انا كالعادة .

واصطبغت وجنتاها بالحمرة ، وانحنت وصارت تمسد طرف ثوبها على ركبتيها .

– هل مازلت تعيشين لوحدك ؟

– وحدي .

– الحياة مملة هكذا وحيدة .

قال بيرفيلي ذلك بلامبالاة متطلعاً من النافذة .

– انني احيا . . .

ومدت مانكا يدها بحركة خفيفة وسعلت ، ونهضت ، واقتربت من الدلو واخذت تشرب الماء ايضاً ، متمتعة بفكرة انها تشرب من القدح ذاته الذي شرب منه بيرفيلي لتوه .

وقالت بصوت متحشرج :

– يجب علي الانصراف .

جلست مرة ثانية ، وقد وجهت نحو بيرفيلي نظرات تنم عن الفزع . لكن بيرفيلي لم يسمع كلامها – اذ كان ينظر في النافذة صامتاً . وقال بصوت مكتوم :

– العاصفة آتية . اخذ الشيطان رجال الارصاد الجوية . فحسب بلاغ الارصاد الجوية يجب ان تبلغ شدة الامواج ثلاث درجات . . .

تطلعت مانكا من النافذة ايضاً . احلولك البحر ، واصطفقت الامواج على الساحل ، واخذت الرياح تصفر في عوارض الشباك ، ومضت الامواج بسرعة ، والزبد يتصاعد منها والموجة تركب الموجة الاخرى ، وبدت في الافق وتعالت مقتربة سحابة سوداء بنفسجية .

وكرر بيرفيلي بمرارة وبفظاظة متذكراً لينكا :

– العاصفة آتية . بينما رحلوا هم للهو !

وذهب الى ماوراء الستار ، واخذ يرتدي السراويل والجاكتة المشمعة .

فسألته مانكا مرتعبة :

– الى اين انت ذاهب ؟ الى اين انت ذاهب ؟ هل تريد ان تغرق ؟

ودمدم بيرفيلي وغادر الكوخ .

– الى اين ؟ الشباك في البحر ، يجب اخراجها !

اما مانكا فكانت تصغي الى الرياح ، فاغرة الفم ثم نظرت عبر النافذة الى السحابة الهائلة التي ازدادت حجماً في تلك اللحظة ، وخرجت مسرعة في اعقاب بيرفيلي ، فلطمتها الرياح

في وجهها بعنف . وكان بيرفيلي ينهمك في العمل عند الزورق حين دنت مانكا منه .

– ماذا تريدين ؟

التفت بيرفيلي اليها بعدم ارتياح ، ودون انتظار الجواب ، اخذ يدفع الزورق الى الماء فوق الدراج .

وقالت مانكا :

– سأذهب معك .

ودفعت الزورق بكتفها ايضاً .

فصرخ بيرفيلي : – ما هذا الكلام ! هل هذا لعب اطفال !

– وكان الزورق قد قفز وارتطم بالرمال – اذهبي الى الكوخ !

وتشبثت مانكا بجانب الزورق باصابعها البيضاء .

– لن اذهب ! ماذا تتصورني ، هل انني لم ار البحر ؟

– اذن هيا اقفزي ! – صرخ بيرفيلي فجأة بمرح وبشيء من التهور وكشر ضاحكاً .

وثبت مانكا بخفة الى الزورق ، وبلغت المؤخرة متارجحة من جانب الى آخر ، ودفع بيرفيلي الزورق وقد احتقن وجهه بالدم وهو يدفع الزورق واحدودبت مؤخرته وغاص في الماء حتى الخصر ، وقفز وسقط على بطنه فوق جانب الزورق وانقلب بجسده الى داخله ، وتناول المجذافين واخذ يوجه الزورق نحو الموجة . وبعد لحظة كانا يمضيان بسرعة وخفة ، والامواج ترفعهم تارة وتهبط بهم تارة اخرى ، نحو الاوتاد السود التي ربطت بها الشباك ، والمثبتة على بعد مائتي متر عن الساحل . وكانت مانكا تجذف بقوة ، وتلحس من شفتيها القطرات المالحة المتناثرة عليها ، فيما كانت خصلات شعرها تتطاير مع الريح . وفكرت في دخيلة نفسها : «لقد نسيت المنديل – اوي ، سنغرق ، اوي ، ان الرياح عاصفة» . ونظرت بعشق الى وجه بيرفيلي المرفوع عالياً والحازم والذي علاه الاحمرار بسبب الاجهاد .

اقتربا من الشبكة الاولى ، وفي اثناء الحركة ، وبعجلة ، وخائفين حتى من النظر الى السحابة المقتربة السوداء ، شرعا في انتزاع الاوتاد ووضعها مع الشباك في الزورق . وكانت مانكا

تسحب الشبكة تارة وتلقي الماء من الزورق بواسطة المغرفة تارة اخرى . وسرعان ما اصاب الوهن ذراعيها وساقيها ، وتبلل فستانها وصعد الى اعلى جسدها ، وتعرى فخذاها الضيقتان القويتان اللتان غطتهما البقع بسبب البرد ، وظهر طرف سروالها الداخلي الوردي اللون . واحست مانكا بالخجل ، لكنها لم تجد حينئذ دقيقة لتعديل الفستان . اما بيرفيلي فلم يكن ينظر اليها ، اذ كانت الاوتاد مثبتة بقوة ، وكان يحركها والامواج تحرك الزورق هبوطاً وصعوداً ، وغدت الامواج عالية اكثر ، ووجب الاسراع في العمل .

بعد مرور حوالي خمس عشرة دقيقة تم رفع الشباك ، وتوجها نحو الساحل . وناء الزورق بثقله . وكان بيرفيلي يجذف كالمحموم ، متطلعاً الى ذلك الشيء المقترب من جهة البحر ، بينما جلست مانكا ووجهها نحو الساحل ، وكانت تجذف وتعزق الماء وتخاف الالتفات الى الخلف .

وصرخ بيرفيلي بعنف :

– مهلا ! اننا لن نصل الى الساحل ، إلقي الشباك في الماء . ومن هنا لن يحملها الماء الى عرض البحر .

وبعد ان القيا الشباك التي حملتها المياه فوراً الى الساحل وسط هدير العاصفة ، عادا مرة ثانية الى البحر . وعندئذ كانت مانكا جالسة بمواجهة البحر ، وغدت بين الموت والحياة من الفزع . فلم يكن في الافق وجود للسماء والسحب والبحر . بل كان ثمة شيء اسود مضبب منفعل بلا حياء وبوقاحة ، واشعث الهيئة ، ولايرى في هذه العتمة سوى قمم الامواج البيضاء المشرعة ببرود وقسوة . ووصلا الى الشبكة الثانية بعد جهد جهيد وبالاتجاه المعاكس للريح . وكان بيرفيلي يجذف بكل عنف مقبلاً ومدبراً في كل حركة ، بينما اصاب الاجهاد ذراعي مانكا . . .

مرة اخرى صار بيرفيلي يتشبث بالاوتاد ويحركها ، ومرة اخرى كان الزورق يعلو ويهبط باستمرار ، وحين كان يعلو رافعاً جؤجؤه يجنح جانباً في آن واحد ، وعندئذ يختفي وراء الجانب راس بيرفيلي وذراعاه . فتبحلق مانكا بعينيها ولاترى

عندئذ سوى مؤخرته المتوترة وساقيه المنفرجتين في جزمتيه المبللتين اللامعتين . وقفز الوتد الى الاعلى وانتزع من القاع ، فهوى بيرفيلي الى الخلف ، ساحباً الشبكة الى الزورق . وكان يوجد في هذه الشبكة عدة سمكات سلمون ، كما لبطت فيها سمكات من صنف السيج ، لكنهما لم يلقيا بالاً اليها .

في نهاية المطاف اقتربت العاصفة الحقيقية ، وتغطت الامواج بالزبد فورا ، وتطاير رذاذ الماء ، وسمع من البر عويل متواصل : كانت الامواج تجتاح الساحل في مد رهيب يصل الى الكوخ تقريباً ، وبدا البحر يصطبغ بلون بنيّ . وكانت الشبكة الثانية كلها تقريباً ، في داخل الزورق ، ولم يبق سوى سحب القسم الايمن منها . وعندما اعتلى الزورق الموجة ، وصار بشكل راسي تقريباً ، جانحاً في الوقت نفسه الى جانبه ، انقلب ، وغدت مانكا تحته وقد صعقت واختنقت انفاسها .

لم تكن تفقه شيئاً في العتمة وتتوق الى النور والهواء ، وارادت ان ترى بيرفيلي لكن راسها ارتطم بالمقعد ، وتعلقت اقدامها بالشبكة الغارقة ، التي كانت تجرها معها الى القاع . وتردد في راسها طنين : «يا آلهي ! ماما ، لقد هلكت تماماً ، لقد هلكت !» .

وامسك شيء ما بساقيها ، فدفعته بساقها ، وتشبثت بالمقعد وامالت وجهها الى القاع – اذ بقي هناك شيء من الهواء الذي تفوح منه رائحة السمك ، وصارت تبكي وتعول . ومرة اخرى امسكت يدان شريرتان لا تعرفان الرحمة بفخذيها وبفستانها وسحبتها الى اسفل بقوة ، فشرقت مانكا مختنقة بالماء وصارت تتخلص من القبضة وجسدها يتلوى كالوحش – ولكن هناك من كان يسحبها الى الاعلى بفظاظة وبالم ، ويضغط بجسدها على جانب الزورق المضلّع المحدودب : كان بيرفيلي يبصق الماء ، وقد تعرى ظهره المتوتر ذو الفقرات الناتئة ، ويتسلق الى ارينة الزورق ، ويسحب مانكا وراءه .

وصرخ بجذل في اذنها : – مالكِ تتسكعين تحت الزورق ، ياحمقاء !

وضمها الى جسده بقوة ، وتعلق بالارينة اللزقة وقال :

– امسكي ! الامواج تحملنا الى البر وسنصل اليه ! . .

كانت مانكا تتارجح وتسعل ولاترى شيئاً عبر الدموع وتختنق بالريح الرطبة المالحة ، وبرذاذ الماء . وتشبثت بالارينة بيد وتعلقت برقبة بيرفيلي بالاخرى وسكنت وجمدت .

وصاح بيرفيلي بمرح وبأعلى صوته ، وهو ينزلق بجزمته على قاع الزورق :

– لا بأس ، سنحيا . من لا يعيش عند البحر لا يعرف ما هي البلايا .

فيما كان البحر يزمجر وكانه وحش هائل جامح ، وكان الوحش يرفع وينزل على ظهره الزورق المقلوب ، حاملاً اياه اقرب فاقرب الى الساحل . وبعد مضي نصف ساعة ، كان الزورق يتراقص مع المد الهادر بالقرب من البر ، وبدا لامعاً بجانبيه المحدبين . وتلاقفته الامواج وحملته الى البر ، ثم انسرت الى الاسفل ، اما الزورق فتراجع القهقرى ، والزبد يغطيه ، بصورة بطيئة في البداية ثم بسرعة متزايدة ، لكي يركب الامواج مرة اخرى ويندفع ساقطاً على البر .

وعلى حين غرة هدأ كل شيء ، وصارت تسمع وشوشة المياه المتراجعة الى الخلف ، فيما يسمع من الوراء عويل متزايد كما لو كان صادراً عن قطار قادم . فالتفت بيرفيلي الى الخلف وكاد ان يترك الارينة : اذ اندفعت نحوهما موجة عاتية رهيبة يتعالى فوقها الرذاذ . فضربت الزورق الذي لم يجد الفرصة لاعتلائها ، وقلبته وحملته الى البر ، ولطمت الرمال بعنف ، وكان آخر ما تذكرته مانكا هو كيف القت بها الامواج الى مكان ما ، كيف ارتطم وجهها وظهرها ومرفقاها بالرمال ، فالتوت ذراعاها وساقاها .

ثابت مانكا الى رشدها على الساحل . كان بيرفيلي راكعاً الى جانبها ، ورفع راسها . واحست مانكا بالخجل ، فدفعته وجلست ، وعدلت فستانها ، وغطت ساقيها المتعريتين . وشعرت بالغثيان وبدوار في الراس ، وغطت عينيها غشاوة .

وابتهج بيرفيلي وقال :

– انت مع هذا حية ! ابقِ هنا ، وساتي بعد قليل . . .

وهرول بتثاقل فوق الرمل ، الى حيث كان يتململ الزورق اللامع وسط الزبد ، وغاص في الماء حتى الخصر ، وامسك بطرف الحبل وسحب الزورق الى الساحل . ثم دخل مرة اخرى في المد المتراجع الفائر وامسك بالشبكة ، وانحنى حتى الرمال تقريباً ، وساقاه ترتجفان ، وسحبها الى الساحل ايضاً . ومضى عائداً الى مانكا بانفاس متثاقلة ، وينبعث صوت اصطفاق اعلى جزمتيه واطراف جاكتته المبتلة . . . اما هي فكانت لا تزال جالسة دون ان تجد القوة للنهوض .

– حسنا ، كيف حالك ؟ لابأس . هيا تعلقي برقبتي ، قال بيرفيلي متظاهراً بالعتاب وبحيوية : ساحملك !

صرخ بهذا وانحنى نحوها ، محدقا بقلق في وجهها .

لكن مانكا اشاحت بوجهها عنه ، ونهضت ، ومشت مترنحة كالسكرانة ، وقد ارتسمت الابتسامة على محياها الابيض . وسارا جنباً الى جنب . واحتضنها بيرفيلي واسندها من ظهرها ، واحسّ بكتفيها الهزيلتين ، وجزمتاه تطبطبان في اعلاهما . وكان ينظر الى البحر بعد ان انتعش اكثر فاكثر ، وغمره الحماس ، وصار يتحدث ويضحك على نفسه وعلى مانكا والعاصفة ، كما لو انه لم يكن يتشبث قبل لحظة بالارينة ، ويصرخ بصوت متحشرج وبكل قوة ، ويجهد نفسه ، ويتطلع برعب الى الامواج .

(٤)

في الكوخ اوقد بيرفيلي النار في الموقد ، وخلع كل ملابسه المبللة وارتدى غيرها ، وجلب سراويل وكنزه وجاكتة الى مانكا ، وخرج الى المجاز ودخن هناك بشراهة ، متطلعاً الى ذراعيه المصابتين برضوض .

بعد لحظة صاح :

– هل ستنتهين سريعاً ؟

– اوي ، الآن . – ردت مانكا بفزع وعاجلت وبجهد في نزع الفستان والقميص الملتصقين بجسدها . وبعد ان ارتدت الملابس الجافة وتعثرت في السراويل الطويلة غير المألوفة بالنسبة لها ، ونظرت جانباً ومست نهديها غير الناتئين بعد الا قليلا ، واطلقت تنهدة ثقيلة .

وصاح بيرفيلي مرة اخرى من المجاز :

– ماذا ، هل انتهيت ؟

فسمعت له مانكا بارتباك قائلة :

– تعال .

وعاجلت ، وعيناها مسبلتان ، شاعرة بالخجل بسبب ملابسها الرجالية ، بحمل جميع ملابسها المبللة الى الخارج ، وعصرتها ، وعلقها لتجف في الريح .

والتقاها بيرفيلي بقوله :

– هيا ، اذن ! تعالي الى هنا ! الآن سنتعالج وفق آخر منجزات العلم والتكنيك . . .

فاجلس مانكا الى المائدة ، على المصطبة ، واخرج من تحت السرير قنينة الفودكا التي فتحها يوم امس ، وصب لها قدحاً وآخر له .

وقال بحماس ، متطلعاً الى وجهها :

– لنشرب ! اشربي ، اشربي ! لنرفع القدحين ، ولنجرعهما دفعة واحدة . . . لعلاج البرد . نخب عودتنا الى الارض سالمين . . .

فشرب اولاً ، واستنشق الهواء بفم مفتوح ، وعلى الفور صب الشاي في القدحين . وقد شربت مانكا ايضا ، وانحبست انفاسها ، وهزّت راسها . وسكرت بسرعة ، وتوردت وجنتاها ، ووميض بريق عينيها الخضراوين . كانت في شبه اغماء ورعب ، وقد اعتملتها اكثر فاكثر ، وبحدة متزايدة ، رغبة واحدة فقط هي ان يحتضنها بيرفيلي ويقبلها .

اما بيرفيلي ، الذي كان يحدق اليها ، فقد سكت بغتة وشحب وجهه . وأبعد قدح الشاي ، ونهض وغادر الكوخ بخطوات خفيفة كالوحش ، والقى نظرة سريعة نحو الجهتين : كان

الساحل خالياً . وعاد ، وجلس باجهاد ، واخذ يتطلع بشراهة وبصورة سافرة في وجه مانكا ذي الخدين المتوردين ، وشعرها المجعد الذي ما برح رطباً ، ورموشها الذهبية المسبلة ، وقد ادرك سبب سكوتها ، وسلوكها الغريب ، وعينيها المطرقتين ، وصوتها المبحوح . كان البحر في الخارج يضجّ متوعداً وهادراً ، بينما ساد في الكوخ جو الدفء والجفاف ، وحفحفة النار في الموقد ، ورائحة السمك .

وسال بسرعة وقد تغيّر صوته :

– كم لك من العمر ؟

فقالت مانكا : – يجب علي الانصراف . . . – كان صوتها ضعيفاً ، ونهضت قليلا ، ثم جلست على التو .

وسال بيرفيلي مرة اخرى ساعياً الى التفرس في عينيها :

– كم لك من العمر ؟

وافلقت مانكا عبارة :

– تسعة عشر عاما . . .

وقد همست بذلك ، واشاحت بوجهها عنه واحست ، كيف تسري القشعريرة في يديها واصاب راسها الدوار . وعلى حين غرة تذكرت ، وكان البرودة تلف كيانها اجمع ، وحشتها في ايام الصيف ، ودموعها وخزي الحب الاول المكنون باسره ، وقنوط الليالي البيضاء الشفافة باجمعه – فاستولى عليها فزع لذيذ : فها هو بيرفيلي الى جانبها ، وهو يحدق اليها بعينين رهيبتين ، وقد تحققت احلامها ! ودار في خلدها : «ما معنى هذا ! ماذا لو يهجم عليّ الآن ! ماما ، ما معنى هذا !» – وشزرت الى وجه بيرفيلي .

– ايه !

صرخ بيرفيلي في تهور مفتعل ، وتظاهر بيسر وبنشوة موحشة ايضاً ، وانسل نحوها فوق المصطبة ، وامسك بها ، ورفع وجهها ، وعيناه تنظران جانباً ، وقبلها بنهم قبلة طويلة ، ويده العالية تتلمس بلا حياء جسدها الضئيل . اما مانكا فقد شدهت وصعقت وجمدت في مكانها .

وتخلصت من قبضته وقالت :

– ماذا جرى لك ! يالعين ! ماذا جرى لك !

فتمتم بيرفيلي مرتبكا ، ونهض وتقدم نحوها :

– ان قلبي ضعيف . . .

وصرخت مانكا بصوت مبحوح والدموع تكاد تطفر من عينيها :

– أحمق ! اذهب وقبلّ فتياتك الخليعات . . . اما انا فلا تمسني ! انا . . . لست كالاخريات !

– مانيا ! مانيوشا . . . – صار بيرفيلي يتوسل بارتباك ، طالباً المغفرة – مهلا ، ان نيتي تجاهك طيبة !

– انا لست كالاخريات ! قبّل صاحبتك لينكا ، اذهب اليها . انا لست بعد . . . من اللواتي يتبادلن القبل ! – قالت مانكا هذا بجهد ، وكل كيانها يرتجف ، وفجأة التفتت اليه ، وانفاسها متقطعة ، وفكت ازرار الجاكتة ، ورمتها على الارض . وقالت بصوت غليظ : – اذهب يالعين ! يجب علي ان انقل البريد . . . يجب علي ان انقل البريد . . .

واخذت تبدل ملابسها ، دون ان تخشى دخول بيرفيلي ، وجسدها يهتز من الغضب ومن شعور ما لذيذ وانتقامي ، وتناولت حقيبتها واحنت راسها واطئاً ، دون ان تودع بيرفيلي الذي كان يتململ في المجاز ويدخن سيجارة ، وانصرفت .

ومشت مسافة غير قصيرة حين لحق بها بيرفيلي حاسر الراس وقد ارتدى جزمتي الصيد بقدمين حافيتين .

فتمتم ، وهو يدس في حقيبتها قطع الشكولاتة : – كانت لدي هنا هذه . . . هذا لك في الطريق . لا تزعلي يامانيا . . . هل ستصفحين عني ، ها ؟ اما فيما يخص لينكا فقد انتهى كل شيء معها ! – وقال ذلك بقنوط وكآبة – انها حقيرة ، وتحب اللهو والعبث . . .

فقالت مانكا : – اذهب ! – واشاحت بوجهها عنه واضافت : – اتركني وشاني !

وسأل بيرفيلي ، وهو يخطر الى جانبها بسرعة : – في يوم السبت ، هل ستاتين الى النادي ؟

وواصلت مانكا النظر جانباً وقالت : – لدي بريد .

ولم يستسلم بيرفيلي وقال : – حسناً في يوم الاحد ! اريد ان اقول لك شيئاً ما . . . تعالي ، يامانيا ، ها ؟

– لا ادري ، – تمتمت مانكا بعد هنيهة صمت ، واستحثت خطاها . بينما تخلّف بيرفيلي عنها .

صارت مانكا تفكر في دخيلة نفسها ، وقد طاطات راسها ، وتناهي الى سمعها لغط البحر الذي خفت حدته لبعد المسافة : «عال ! انتظر ما طاب لك الانتظار ! لقد وجد حمقاء ما . . . ولم يجب علي ان اذهب اليه ! انه يتملقني . . . بالحلوى !» . ودست يدها في الحقيبة ، وتلمست قطع الحلوى ، وضغطت بيدها عليها ، بيد انها لم ترمها لسبب ما ، كما ارادت في بادئ الامر ، وواصلت السير ، ويدها تضغط على قطع الحلوى .

وعند المنعطف ، التفتت ، كما لو ان احدهم لكزها في ظهرها : كان بيرفيلي يقف على قارعة الطريق ، في المكان ذاته الذي توقف فيه ، ويتابعها بانظاره ، وحين رأى ان مانكا التفتت لوح بيده ، فيما مشت مانكا مسرعة لتوها ، وحثت خطاها ، وهي لا تكاد تلجم نفسها من الجري . وبعد ان قطعت مسافة نصف فرسخ ، جلست وتطلعت حواليها بحذر ، وابتعدت عن الطريق وتوغلت في الاحراش ، وسط اشجار البتولا ذات الوريقات الصفراء الذهبية ، واستلقت على الطحالب ورأسها على الحقيبة . ودار في خلدها : «آه ، ماذا جرى . . . كيف سأحمل اليهم الآن الرسائل !» كان وجهها متورداً ، واصاب راسها الدوار من رائحة الصيادين النقية الطرية المنبعثة من بيرفيلي . ورأت في مخيلتها عن قرب عينيه السوداوين الطائشتين الحولاوين ، وجمدت في مكانها ، وقد عاشت مجدداً كل رهبة وبهجة وخزي ذلك اليوم . وترددت بمرح وبانتقام وبثقة مشوبة بالضنى في دخيلتها الكلمات الغريبة والشبيهة بالنبوءات ذاتها : «وليصيبه ايضا الوهن والمرض ، وليحترق في النار ، ودعه لا يطيق العيش والوجود ولايأكل ولا يشرب !» .

١٩٥٨

رنين الساعة



١

كان الشروق ما زال بعيدا ، وما برح يسمع صرير وقعقعة العربات فى الظلام وفى بعض المحلات كانت تفتح الابواب ومصاريع النوافذ ، وتسود البرودة النوافذ الكبيرة للقصور والفيلات .

لكن صغار الموظفين كانوا يمضون فى النور الخابى لمصابيح الشوارع المظلمة مسرعين الى اعمالهم . وكانت تتألق انوار شاحبة صفراء فى الاقبية والعليات فى بيوت الفقراء الكالحة المتداعية ويتساقط نور النوافذ ضبابيا فوق الثلج ، عبر الزجاج المتجلد ، بينما تحلق فى السماء البنفسجية اولى طيور الزاغ السود ، وجميعها تمضى فى اتجاه واحد ، وجميعها صامتة . وكان يتردد فوق المدينة وبانتظام رنين الاجراس من بعيد ومن قريب ، وبجلاء وبغموض ، ومن اماكن نائية مما يجعله لا يكاد يسمع : كان ذلك قرع الاجراس الداعية الى صلاة الفجر .

وفى نحو الساعة العاشرة اشرقت الشمس فى نهاية المطاف ، وتصاعدت ببطء — ببرودة قارسة ومغبشة ، وعند الساعة العاشرة فقط تألقت تحتها قبة واعمدة كاتدرائية القديس

اسحق * بلون فضي مشوب بالحمرة الوردية ، وبدت غير واضحة قلعة بترو-بافلوفسك . وانتصب الفارس النحاسى ** بصورة غير معتدلة ، وشمخ القصر الشتوى والقى فوق ميدان القصر بظلال الجياد الستة الواقفة فوق قوس مبنى الاركان العامة .

بدا وكأن الشمس انما اشرقت فقط لكى تنظر فيما اذا اختفت العاصمة الجميلة وتناثرت شذر مذر أبان الليل . وبعد ان رأت انها لم تختف ، تلفعت على التو بعتمة الغيوم . وهكذا بدأ يوم بطرسبورغ الشتائى المتألق فى الصباح ، والذى خبا نوره على الفور .

فى ذلك اليوم عقد ليرمنتوف العزم على الذهاب لزيارة بوشكين .

كان ليرمنتوف يعانى منذ امد بعيد من السأم القاتل لكون حياته خالية من الهدف . كما لم يوجد لديه ما يحبّه فيها . الاستعراضات العسكرية وتوزيع مفارز العسكريين ؟ الحفلات فى القصور وايام القبول لدى الفرسان والسيدات ؟ المكرمات التى تعطى بمناسبات اعياد القيصر ، وفى عيد رأس السنة وعيد الفصح ، والترقية فى افواج الفرسان الممتازة ، وتعيين الفتيات كمرافقات للقيصرة والفتيان فى منصب كامر-يونكر *** ؟ تدريب الجنود المشية العسكرية ، وصوت المزمار الاجوف الحاد ، وقرع الطبول ، والاوامر العسكرية الرتيبة ، والغضب المفتعل للجنرالات ، والحركات المتكررة فى ترويض الجياد ورائحة عرقها ، وحفلات الضباط العزاب — كل هذا كان يمثل حياة واحدة .

اما الحياة الاخرى — فهى النساء الشابات ، وغير الشابات كثيرا ، ذوات الاكتاف العارية المطلية بالمساحيق وروائح

---

* يصف الكاتب هنا الاماكن الشهيرة فى عاصمة روسيا سابقا بطرسبورغ (لينينغراد حاليا) . **المعرب** .

** نصب بطرس الاكبر فى بطرسبورغ . **المعرب** .

*** منصب صغير فى البلاط القيصرى . **المعرب** .

المعاجين والعطور والعرق تحت الابط ، ولعب القمار ، والحفلات الساهرة وصخبها المجنون والمفرط ، والعشق المضني والوقح الذى يباع ويشترى ، والجنازات التى يجرى فيها التظاهر بالحزن – وهكذا تستمر الحال فى الحياة بأسرها .

ثمة شىء آخر كان يحبه حباً معذباً ومبرحاً – هو الشعر فيما كان بوشكين يعتبر سيد الشعر – ليس ذلك البوشكين ، القصير القامة والكثير الحركة الذى بدأ يتساقط شعر رأسه وكان بالمستطاع رؤيته فى حفلات الطبقة الراقية ، وصار الناس يرددون هاجر الكلام وغير المحمود عن زوجته فى الاونة الاخيرة ، بل بوشكين الآخر الذى لا يمكن التفكير فيه دون تأثر بما اتسم به من عبقرية .

وكان يحسد الناس الذى تربطهم أواصر المعرفة به ، ويصطبغ وجهه بالحمرة لدى سماع اسمه فقط . وكان بوسعه التعرف عليه ايضا – ومنذ وقت بعيد ، لكنه لم يرغب فى التعارف الاجوف السائد لدى علّية القوم ، بل أراد المجىء اليه كشاعر ، لكنه لم يستطع ولم يتجرأ ولم يكن مستعداً بعد لذلك .

واليوم فقط ، دعاه صوت فى دخيلة نفسه ، فى آخر المطاف قائلا : – «اذهب !» – فطغى عليه شعور بالانشراح والرهبة . وقد اتسم قراره بشىء من الغرابة ، كما لو تحطم لولب فولاذى برئين ، واستعدل وصفر بلهجة آمرة – فاحس بدفعة حادة وحارة فى قلبه : يجب الذهاب اليه !

فنهض ، بالرغم من مرضه ، وامر بتهيئة الجواد ، وخرج الى الثلج والزمهرير ، وامتطاه ومضى خبباً – وسار فى الطريق الذى رسمته له الاقدار .

كان المقرر أن يتم اللقاء ، وبدا ان ما من شىء قادر على الحؤول دون اتمامه ، لكن هذا لم يكن ليحدث فى تلك الساعة ، فلم يئين الاوان ! – بل فيما بعد ، فى وقت لاحق ، فى المساء .

اما الآن ففى الساعة الواحدة بعد الظهر ، اصاب ليرمنتوف الهزال لاتخاذه قراره الحازم ، وبسبب الحمى التى كانت تحرق

جسده ، وكان يتلظى بها جسده ، وتورد خداه ، وجاء الى مطعم دومييه الواقع فى ناحية شارعى غوروخوفايا ومورسكايا .

٢

فى الساعة الواحدة بعد الظهر وصل الى هناك ، وقد علاه الثلج ، واحمرت سحنته بسبب البرد ، وحالما ولج المبنى ونزع معطفه ، حتى بلغت انفه الرائحة الحارة لاصناف المرق واللحم المشوى والنبيذ والتبغ المعطر . ورأى عبر زجاج الباب فخامة القاعة ذات النوافذ البيضوية الواطئة ، والاغطية المنشاة ، والخدم الوقورين ، وبريق الكريستال البلور ، والجو المشوب بالزرقة ، وسمع لغط الاحاديث .

وابلغه مدير المطعم :

– تفضلوا ، انكم لم تزورونا منذ وقت بعيد . رفاقكم فى الكابينة . . .

ومشى بحنو امام ليرمنتوف .

مسح ليرمنتوف حاجبيه ورموشه وشواربه المبللة ، وعدّل وضع الرداء المبطن بالفراء ، وسار فى اثره وهو يشد عضلات ساقيه فى السراويل الزرق ، ويقعقع بالمهاميز ، فيما كان يهز رأسه فقط ، ويبتسم فقط ، عندما توجه اليه التحية . وفتح مدير المطعم الباب ، وازال الستار المخملى ، وانحنى احتراما ، فدخل ليرمنتوف الكابينة .

فهتف الفرسان فى صوت واحد :

– آه ، مايوشكا ! أهذا انت ؟

كانت الكابينة ممتلئة بالدخان ، ويتالق فيها لمعان الشموع . وكان هناك مونجو-ستوليبين وضابطان آخران من الفرسان . وقد جلس الجميع مفتوحى الياقات ، والجميع يدخنون ، ووجوههم جميعا متوردة وعيونهم ذوات بريق .

ولدى رؤية ليرمنتوف هبّ الضابط الوسيم مونجو ، ولثم وجهه البارد . وسأل بابتهاج :

– هل انت بدأت بالخروج من البيت ، ايها السادة ، اخلو مقعداً له ! ماذا ستشرب ؟

تململ الجميع ، وطلبوا الشمبانيا ، والمزيد من الشموع ، وغليوناً . وصاح فارس قصير القامة ، اشقر الشعر ، ذو عينان زرقاوان جاحظتان :

– مايوشكا ! لقد اتفقنا على الذهاب الى الغجر مساءاً – اليوم ستغنى ستيشا ! آه ، ما اروعها ! – واغمض عينيه وهزّ راسه – اننى اموت لوعة لدى سماعها . هل ستذهب معنا ، مايوشكا ؟

فرد ليرمنتوف بسرعة ، وتناول من مونجو قدح لافيت :

– ساذهب ، ولو الى الشيطان شرط ، الا تقعدنى الحمى لدى حلول المساء .

وقال فارس اسود الشعر وعبوس الوجه بصوت مبحوح :

– كلام فارغ – ثم اطلق سحابة من الدخان – انا ايضا مصاب بالحمى ، لكنها لن تقعدنى فى الفراش الا مع غجرية . . . ها . . . ها . . .

وعلى الفور احتسى الجميع بسرعة جرعة نبيذ ، واخذوا انفاسا مكثفة من الغلايين الطويلة ، وفى اللحظة نفسها تألقت عيون الجميع ببريق شديد ، وتواصل الحديث عن النساء ، الذى قد يستمر الى ما لانهاية لدى اجتماع العزّاب لشرب قدح نبيذ .

لكن ليرمنتوف شعر فجأة ، بعد نوبة الفرحة الاولى ، بشىء من السأم والوحشة . فتنهد واطرق بعينيه .

فسأل مونجو ، وقد بدت على محياه علائم الجد ، ومتطلعا فى عينى ليرمنتوف : – ماذا جرى لك ؟

لكنه فى الوقت نفسه كان يصغى الى ما يقوله الفرسان .

– هل ما زلت مريضا ؟

فقال ليرمنتوف بهدوء :

– لا . اننى فقط قد افرطت فى التفكير ابان تلك الفترة .

وقال الفارس الاسود الشعر العبوس :

– ها . . . ها . . . ها . . . لا يجب على الفارس أن

يفكر . المسألة كلها تكمن فى المصادفة ، وحالما تسنح الفرصة تكسب الكثير . والحب ايضا مسألة صدفة ! – وقال العبارة الاخيرة مخاطب الجميع – لنشرب نخب المصادفة !

– المصادفة – واجال ليرمنتوف بصره فى الجميع – ومن يضمن ان ارادتنا . . .

وقال الفارس الجاحظ العينين :

– آه ، الفلسفة مرة اخرى . لقد غدوت لا تطاق يا مايوشكا ، ربما انت لا تحب النساء ايضا ، ها ؟

فقهقه الجميع ، وضحك ليرمنتوف ايضا . وقال بمرح وقد ارتفع شارباه ولمعت اسنانه :

– لا . من المستحيل ابداء الجد معكم ولو لحظة واحدة . اعطونى غليونا . اننى لم ادخن منذ وقت طويل . وكذلك قدح شمبانيا . آه ، مونجو – واردف يقول خافضاً صوته – كم تسرنى رؤيتك ، لو علمت ! لقد رأيتك اليوم فى الحلم . وساقص عليك فيما بعد كيف حلمت فيك . وعموما ، حدثت لى امور غريبة كثيرة ، وانا نفسى لا ادرى اى طريق ساختار – طريق الفساد ام طريق الحماقات ، وكلا الطريقان يقودان فى عصرنا الى نهاية واحدة ! اذن ايها السادة ، سنذهب اليوم الى الغجر ؟

وانخرط فى الحديث والضحك ، محركا وجهه الشاحب فى جميع الاتجاهات ، وفتح ياقة قميصه ، وصار يحتسى النبيذ وينفث حلقات الدخان الازرق .

وارتجف لهيب الشموع ، فيما غدا الموقد ساخنا وانبعث منه الازيز ، واحس ليرمنتوف ، بلذة كبيرة ، بهذا النور وذاك الدفء . وفى لحظة خاطفة عرف جميع انباء الفوج : ماذا قال الامير المعظم فى يوم الاول من امس ، وماذا عرض وسيعرض فى مسرح الاوبرا . وفى لحظة خاطفة انخرط فى هذا الحديث غير المترابط ، وبدا حسب عادته بالمزاح ، والقهقهة بصورة مزعجة ملقياً براسه الى الوراء .

وعلى حين غرة تذكر بوشكين ، وصمت دون ان يكمل كلامه . ونظر الى النافذة بعجلة ، واستخرج ساعة الجيب

وضغط على الـــزر . فدقت الساعة معلنـــة الثانية . ونهض ليرمنتوف .

وصاح الفرسان :

– الى أين ، الى أين ؟

– لا استطيع ايها السادة ، لدي موعد الآن .

وقال مونجو بحسد :

– يا للشيطان . هل هى قصة غرامية جديدة ؟ متى وجدت الفرصة ؟

فقال ليرمنتوف :

– بل بالعكس ، انها قديمة .

مضى عبر القاعة بسرعة ، دون أن ينظر الى أحد ، وارتدى معطفه ، وعدل وضع سيفه ، وتوجه الى الزحافات . فجلس فى الزحافة ثم نهض ولف جسمه بالمعطف واتكـــأ فى المقعد – توترت وغدت وسادة الحوذى القطنية مدورة ، وشدت الاعنة ، وسمع من المقدمة وقـع حوافر الحصان – ومضت بطرسبورغ للقائه على جانبى الطريق .

انزل قبعة الفرسان على جبهه ، واخفى وجهه فى الياقـــة ، واستنشق الهواء القارس البرد ، وعيناه تغمزان ، وانخـــرط بالتفكير فى بوشكين . كان يتصوره بالذات كما رآه من بعيد ، فى اثناء نوبات الحراسة له فى القصر .

النوافذ مضيئة ، ومصابيح الشارع متألقة بنور ساطـع ، حول العمود الالكسندرى * وعند المدخل . وكانت العـــربات تمضى وتمضى فوق الثلج ، وتتدحرج بصرير شديد لدى صعودها الى المدخل المحدب ، وتتوقف للحظة عند البـــاب – عربات جديدة ذوات زنبركات تلتمع بطلائها ، وعربات قديمة واطئة ووئيدة . وكانت الابواب مفتوحة على مصراعيها فى الداخـــل ، حيث يتوهج النور والدفء غامراً المكان فى العمق والعلو . وكان

---

* عمود نصب فى ميدان القصر ببطرسبورغ تخليـــداً لانتصار الكسندر الاول على نابليون . **المعرب** .

يدخل القصر الجنرالات بقبعاتهم والسفراء وكذلك عجائز مـن أيام يكاترينا الثانية واعضاء فى مجلس الشيوخ .

لكن جاءت عربة أخرى ، وانزل الكامر-يونكر بوشكيـــن زوجته الملفعة بالفراء ، وكان يرتدى معطفا من الفراء وقبعة سلندر عالية لماعة إلتوت حافتها من الامام والخلف . وفى تلك الايام كانت ناتالى بوشكينا فى ريعان الشباب وآية فى الجمال ، لكن ليرمنتوف لم ينظر اليها تقريبا ، بل نظر بملء بصره الـى الرجل القصير القامة الخفيف الحركة ، الشاحب الوجه والرمادى الشفتين .

لقد تصور هذا كله الآن ، بعد الظهر ، بمرافقـــة صخب المدينة ، والقفزات الناعمة للجياد ، وصراخ الحـوذى ، فاحس بالرهبة والفزع .

فيما دار فى السماء صراع : فكانت الغيوم الرمادية العابسة تتلبد قليلاً تارة وتتبدد تارة أخرى ، وساد المدينة بيـــن الفينة والفينة على التوالى – اما النور الفاتر الخيالى ، وامـــا النور الشتائى المألوف .

فى الثانية والنصف جاء ليرمنتوف الى بيت روستوبتشينا . وكانت روستوبتشينا ممشوقة القد وفتية – عارية الكتفين ، ذات وجه دقيق وعينان رماديتان واسعتان ، كانتا تجولان النظر ببهاء متنقلتين من شىء الى آخر ، ولم تكونا تعبران عن أى شىء فالامر سواء لديها – رؤية نهر نيفا المتجمد وراء النوافذ ، او رؤية مأمور القصر او أمها او عماتها او العجائز – المقيمات فى البيت والثقيلات السمع .

لكن لدى رؤية ليرمنتوف فقط ازدادت عيناها قتامة ، وظهر فيهما ارتعاش وتألقت بوهج خفي . وكان ليرمنتوف فى هـذه اللحظة اسمر البشرة جدا ، وغير وسيم ، وقصير القامـــة ، ومحدودب الظهر وكبير الرأس – كما لو برزت عن قصد جميع عيوبه . وكان متنرفـــزا جدا ، وسريع الحركة ، وقليـــل الاكتراث – فلم يجلس فى مكان واحد ، وواصـــل المشى ، متوقفا عند النوافذ ومتفرسا فى نهر نيفا ، ومحركا باستمرار

ساقيه المعوجتين فى السراويل الضيقة ، ويعرج قليلا ويقعقع بمهمازيه .

– اظنك لم تبرأ بعد من المرض ولهذا اراك عابساً – قالت روستوبتشينا فى نهاية المطاف وتنهدت – هل توجد لديك اشعار جديدة ؟ ارجوك اقرأ شيئا منها ، فسيسرنى هذا . . .

اقترب ليرمنتوف من النافذة واخذ يحدق الى نيفا ، وقد عقد يديه على صدره ، فارتفعت كتفاه .

وقال :

– انت تحبين ، يا كونتيسة ، تفسير الاحلام . . .

فقاطعته روستوبتشينا :

– اسكت ! اذن هل ستقرأ الاشعار ، يا ميشيل ؟ يبدو وكانك جئت عمداً لتكديرى !

والح ليرمنتوف بقوله :

– فسري حلمي . لقد فتحت الباب ودخلت الى غرفة كبيرة ، لكن كانت وراءها اخرى ، وثالثة . فتجولت فى الغرف ، منتظرا فى كل لحظة رؤية ما سيذهلنى ، وخائفا من رؤية ذلك وكنت اعتقد اننى اصبو اليه بنفاد الصبر . وفى نهاية الامر وصلت الى غرفة فيها تابوت . فرأيت جدتى . كانت راقدة فى التابوت وتنظر الىّ . فدنوت منها وتحدثت معها – لا اذكر عن اى شىء – واذا بها تجلس ، وتعانقنا . وحدقت الىّ بنهم ، فقبلت يديها الباردتين . كما انها صارت بدورها تقبل يدي . واحسست كيف كانت تسعى الى عض جلدي – هنا ! . . ما لك شاحبة الوجه ؟ – سأل ليرمنتوف فجأة بهدوء – هل ان هذا الحلم – فال سيئ ؟

– لديّ قناعة بأن الاحلام السيئة علامة خير دائما ! لكن عدنى بالا تقصّ عليّ أبدا مثل هذه الاحلام الفظيعة وغير الشيقة للغاية . واننى اغتفرك بسبب واحد فقط .

– ما هو ؟

– انا اعلم بانك تصبو للقاء بوشكين المسكين .

– وكيف عرفت ؟

– ان المرأة تحدس لا حين تحب ، بل حين يحبها الآخرون .

– انت على حق ، يا كونتيسة . لتكن المجتمع شريراً ، بيد اننى اليوم اسعد من اى وقت مضى ! – ودق ليرمنتوف الأرض بقدمه – اننى اكثر جذلا من اى سكّير يغنى فى الشارع .

وكاد ان ينزل عدوا الى الاسفل الى غرفة البواب حيث تفوح رائحة القهوة ومعاطف الفراء .

وبدا له أحيانا لدى المنعطفات والمنزلقات فى الشارع ان الزحافات تتوقف ، بالرغم من ان مؤخرة الحوذى تميل جانبا ، وبالرغم من ان الحصان كان يشخر وقوائمه تومض امام البصر ، وبالرغم من انه كانت تنطلق مارة به من الجانبين البيوت وواجهات المحلات المتألقة وواجهات البيوت ذوات الاعمدة وتماثيل الاسود والقضبان والناس والزحافات واللافتات، ، وبالرغم من أن الحوذى كان يردد «إفسح الطريق» بصوت عال وينخفض شيئا فشيئا بصورة جامحة ، ويصرخ بابتهاج وتلذذ بهذه العبارة .

– قف ! – صاح مخاطبا الحوذى بعد الزيارة الثالثة او الرابعة ، واخرج ساعة الجيب – استدر نحو شارع مويكا ، الى جسر بيفتشيسكى ! هيا !

وفى الساعة الخامسة جاء الى بيت الاميرة فولكونسكايا فى شارع مويكا .

٣

فى الساعة الخامسة جاء الى شارع مويكا ، وفى الساعة الخامسة علت وجهه حمرة شديدة كما لو كان صبياً ، وقد علقت اذيال الغطاء الفرو بالمهماز ، ونزل عند باب بيت آل فولكونسكايا .

وابلغوه :

– انهم ليسوا فى البيت . – واجابوه على السؤال : هل سيعودون قريباً ؟ – قريبا !

فخرج الى الزمهريرة مرة أخرى ، ماسحا وجهه بالمنديل ، متحسسا شيئا من التفريج لكون اللقاء لن يتم الآن ، واستقل الزحافة مرة أخرى ومضى ببطء مفكراً بمن يمكن أن يزوره أيضاً .

لكنه بعد أن عبر جسر بيفتشيسكى واستدار نحو شارع مليونايا أمر فجأة بالتوقف والانتظار . بينما نزل نفسه وصار يمشي وئيدا فى قناة زيمنايا كانافكا ، وفى كل مرة يبلغ شارع مويكا .

هل كان يفكر فى الشعر ؟

ام كان يفكر فى كيف سيسافر الى بافلوفسك مساء . وكيف سينطلق فى عربة الترويكا فى الطريق الخاوية . وبعد ذلك سيستمع الى اغانى الغجر ، وسط الدفء الاحمر للشموع والقناديل .

زحف الظلام ، وصار كل شيء يعتم ويسكن ويجمد ويخمد – وبدات بالتساقط نتف الثلج البطيء والمنفوش . ومضى ليرمنتوف عبر شارع مليونايا وكاد ان يبلغ نهر نيفا . فرآى الجدران السوداء لقصر الارميتاج ، والشريط الازرق والمستقيم المؤلف من الجليد والثلج فى قناة زيمنايا كانافكا ، والذى يمتد تحت الجسر باتجاه نيفا ، وآخر نور وداعى فى الغرب يعبر قتامة الجسر الاحدب وقوس الانتقال الى الارميتاج .

كان عمال التنوير قد أناروا المصابيح فى الشوارع . وتألقت الاضواء فى النوافذ ، وبدا نورها الاصفر دافئاً وطيباً فى الجو الذى يسوده البرد والزرقة .

وسكنت الرياح تماماً بعد أن هبت عدة مرات فى النهار . وكان الثلج يتساقط راسيا ، وبدا كثيفاً وجافاً لدرجة انه لم يبق فوق قبعته ومعطفه ، واخذ يتطاير لدى أقل حركة .

وسمع من كل مكان الصرير والجلجلة وحفيف الثلج وشخير الخيل ، وصراخ الحوذية المسرعين واصوات الركاب وضحكات النساء . . . وهتف أحدهم مخاطباً ليرمنتوف مرتين ، لكنه لم يرد ولم يلتفت برأسه .

ومرة أخرى دنا من شارع مويكا ، وتطلع الى بيت

فولكونسكايا . كان النور يضيئ فى شقة بوشكين أيضاً . وكانت بقع انوار الشموع تسبح من غرفة الى أخرى ، ومن نافذة الى أخرى ، وصارت تضيئ بنور الشمعدانات المشتعلة . لكن أسدلت فوراً الستائر ، وخمد النور فى النوافذ وغشتها برودة زرقاء .

أخرج ساعة الجيب لآخر مرة ، وضغط على الزر بيد باردة . فدقت الساعة معلنة السادسة . وفى اللحظة نفسها شاهد ليرمنتوف عربة سوداء عبرت جسر بيفتشيسكى من جهة ميدان القصر . فجفل . لقد كانت عربة البارون جيكيرن ، وعرفها فوراً وتوقفت انفاسه . وتذكر فى لحظة خاطفة جميع الاحاديث فى الايام الاخيرة عن المبارزة المرتقبة بين بوشكين ودانتيس .

بدت العربة بالنسبة له وكانها عربة نقل الموتي . وتوجه نحو الجسر ، ومضى فى البداية مترددا ، ثم حث الخطى اكثر فاكثر متعثرا باذيال المعطف ،

وكان يهرول تقريباً حين عبر الى الجانب الآخر . ومع ذلك تاخر ! فقد كان المدخل الكائن فى المنعطف مفتوحاً ، وحمل رجال شيئاً ما ، شيئاً ثقيلاً غير مريح فى الحمل – وتناهت الى سمعه أصوات انفاسهم الثقيلة ، واصواتهم الضعيفة المتقطعة ، وبدا الضوء المرتعش من الداخل . وبان من وراء ظهور الرجال فى لحظة قصيرة راس بوشكين المرتجف المتدلى والساعى الى البقاء منتصباً .

وسأل ليرمنتوف ، كما لو كان فى حلم ، العسكرى الطويل القامة المنهمك بعمل شيء ما بالقرب من العربة :

– ماذا ؟ هل قتل ؟ خبّرني لخاطر الله .

لكن دانزاس شاهد بوشكين فى المبارزة لم يرد بشيء .

وقال ليرمنتوف بصوت متحشرج : – آه – وامسك بتلابيب دانزاس وهزّه بشكل جعل قبعة الاخير تتارجح – قتلوه ! ورأى وجه دانزاس . كان دانزاس يبكى ، ويهتز جسده الضخم كله ، وتتراقص خداه ، وقد تغيرا بالالم وفقدا شكلهما البشري .

ابتعد ليرمنتوف فى مشية عرجاء . وقبل أن يبلغ الجسر توقف ، ووضع يده على السياج ، وراح ينظر الى الاسفل نحو الجليد فى نهر مويكا . «هذه المسألة إذن !

– كما لوتلفظ بهذا أحد ما فى أعماقه . – هذه المسألة اذن» .

وواصل المشى عبر الجسر نحو الحصان ، منزلقا بساقيه اللذين اصابهما الوهن ، ومحدقا امامه مباشرا . وسقط مرة واحدة ، وصار ينهض طويلا وبحركة خرقاء . فلعق شاربيه ، وكانا باردين ومالحين . وحدق الحوذى ، الذى غطاه الثلج ، الى وجهه ، وقفز بسرعة من الزحافة ، واخذ يساعده فى الركوب ، ويلف حوله بفزع الغطاء الثقيل .

قال ليرمنتوف بصوت خافت ومتحشرج :

– الى البيت !

واتكأ ودفع بغيظ غمد السيف الثقيل البارد بساقه . وانطلقت الزحافة . يبدو انه لم ينطلق أبداً بمثل هذه السرعة . بينما كان يطلب المزيد من السرعة ، واصاب نور مصابيح شارع نيفسكى عينيه بالغشاوة ، فاغمض عينيه ، وصرخ عبر اسنانه بحنق وبالم :

– بسرعة ! بسرعة !

وحين بلغ بيته لم ينظر حتى الى حصانه الملفع بالزبد كله فى البرد القارس ، وتوجه الى غرفته بخطوات ثقيلة وغير منتظمة ، وما كاد يلحق فى خلع معطفه ، حتى نزع رداء الفرو وفتح الياقة ، وانهار على الديوان .

استلقى صامتاً مغمض العينين فى وضعية غير مريحة . وكانت انفاسه ثقيلة ، وبالرغم من عدم رغبته فقد استعاد احداث اليوم ذاك كله : مطعم دوميه ، وجميع الزيارات ، وجميع القاعات والسلالم والاحاديث والضحكات والشوارع ونفسه فى وسط هذا كله .

ومرة أخرى تذكر القصر الشتوى والموسيقى التى تصدح من بعيد والحان المازوركا الرتيبة البهيجة بصورة غير

طبيعية ، والحشد الصاخب السائر باجمعه فى اتجاه واحد ، الذى ينبعث منه لغط ناعم ومهيب وحفيف وأحاديث .

وفى وسط الجميع الذين كان مثلهم بالضبط قد سلم يده الى ما هو متألق وشاحب ولامع ، ويرتدى باناقة شيئا أبيض وفاخراً ، الذى كان يمثل قرينته ، سار الكامر-يونكر بوجه تلوح عليه علائم التعب وشفتان افريقيتان رماديتان ، كما سار الناس امامه وخلفه ، الى اعماق القصر ذى القاعات المترابطة التى لا حصر لها .

* * *

نظم ليرمنتوف القصيدة التى رثا بها بوشكين فى الليلة ذاتها .

وبعد مضي شهر ونصف قضاها حبيساً فى اورذونانس هاوس ، واستجوابه فى لجنة المحكمة العسكرية التى نقته الى القفقاس ، غادر فى عربة بريد ، وكان يرتدى بزة خيالة (دراغون) جديدة ، ويعتمر قبعة منفوشة من فرو الضأن .

وتردد رنين الاجراس فوق قوس الحصان الاوسط ، وبدت على جانبى الطريق القرى ، سوداء رمادية ، وانتصبت وسط الثلوج أعواد عارية ، تهتز مع حبوب الريح . واحدودب الطريق وكان الثلج فوقها معتما ومحببا ، وكانت العربة تغوص فى الطريق وتتحرك بتثاقل وببطء .

لقد بقيت بطرسبورغ وراءه خاوية تماماً بدون بوشكين . واختلطت الامور فى روح ليرمنتوف . كان يسافر بعيداً ، يسافر لكى يلقى مصرعه برصاصة مسدس فى قلبه ، بعد خمسة أعوام ، وكحال بوشكين تماماً ، بأن تنبأ ووصف كيف سيلقى حتفه .

١٩٥٩

الخريف في غابات البلوط



تناولت الدلو لجلب الماء من النبع . وكنت سعيداً في تلك الليلة لمجيئها في الزروق القادم ليلاً . لكنني كنت اعرف ما هي السعادة ، واعرف تقلباتها ولهذا تناولت الدلو عن قصد ، كما لو انني ما كنت آمل البتة بمجيئها ، وانما أمضي لجلب الماء فحسب . وحدث ان سارت الامور لدي في ذلك الخريف بصورة طيبة للغاية .

ساد ظلام داج في تلك الليلة من أواخر الخريف ، ولم تكن لديّ رغبة في مغادرة المنزل ، لكنني خرجت بالرغم من ذلك ، وانهمكت طويلاً في تثبيت الشمعة داخل الفانوس ، الا انني ثبتّها واشعلتها ، وتضبّب الزجاج لحظة من الزمن ثم ومضت بقعة الضوء الخابية ، ووومضت حتى تعالى لهيب الشمعة في نهاية المطاف ، وجفّ الزجاج واصبح شفافاً .

انني لم اعمد عن قصد الى اطفاءالنور في المنزل ، وكانت النافذة المضيئة ترى جيداً ، فيما مضيت نازلاً في درب اشجار الشربين الى نهر أوكا . وكان فانوسي يسقط نوراً متأرجحاً في الامام والجانبين ، ولا بد ان هيئتي بدت في اغلب الظن شبيهة بهيئة عامل تحويل خطوط سكك الحديد ، سوى انه كان يسمع تحت جزمتيّ الحفيف المكتوم لاكوام اوراق الاسفندان وابر الشربين التي غدت رطبة لدى حلول الظلام ، وبدت ذهبية حتى

في ضوء الفانوس الخابي ، بينما اصطفت على الاغصان العارية حبات البربريس * .

ان السير وحيداً في الليل مع الفانوس شيء يبعث على الفزع ! فانت وحدك تخشخش بجزمتيك ، وانت وحدك تقع في دائرة الضوء وترى ، اما ما عداك فقد توارى ، ويحدق اليك صامتاً .

الدرب ينحدر بشدة الى الاسفل ، وسرعان ما اختفى الضوء في نافذة منزلي ، ثم انتهى الدرب ، وبدأت احراش كثيفة واشجار البلوط والشوح . واخذت تنقر الدلو اخر زهور الاقحوان العالية ، ونهايات اغصان الشوح ، واعواد ملساء ما ، فينطلق صوت مكتوم تارةً ، او رنان تارةً اخرى : «بووم ! بووم !» — فيسمع بعيداً وسط السكون .

ثم اصبح الدرب اكثر انحداراً والتواءاً ، وظهرت اشجار بتولا كثيفة ، وانبجست جذوعها البيضاء من الدجنة . ثم انتهت البتولا ايضاً ، وصرت التقي الحجارة علي الدرب بين الفينة والفينة ، وفاحت رائحة الطراوة ، ولو لم يكن يري اي شيء وراء بقعة ضوء الفانوس ، وتراءى لى وجود فضاء واسع رحب امامي — فبلغت النهر .

وعلى الفور رأيت على يميني عوّامة بعيدة . وقد اصبح نورها الاحمر مضاعفا لدي انعكاسه فى الماء . ثم ظهرت مرة اخري عوامة على جانبى ، اقرب كثيرا ، ووومضت وميضاً خفيفاً ايضاً ، ولاحت حدود النهر .

مشيت على العشب الرطب بين شجيرات الصفصاف الى الاسفل علي ضفة النهر نحو ذلك المكان الذي يتوقف فيه المركب عادةً ، اذا ما نزل احد فى جانبنا المقفر . وثمة ينبوع يبربر ويقرقر فى العتمة . فوضعت الفانوس على الارض وتوجهت نحو الينبوع واغترفت الماء ، وشربت ومسحت فمي بكمّى . ثم وضعت الدلو المبلل الى جانب الفانوس واخذت احدق جانبا الى المرسى البعيد .

كان المركب يقف بالقرب من المرسى ، ويرى على جانبيه بصيصا نور ينبعثان من مصباحيه الاحمر والاخضر . فجلست

---

* نوع من الثمر الحامض . **المعرب** .

وبدأت بالتدخين . وكانت يداي ترتجفان وباردتين . وفجأة جال في خاطري ، ماذا لو لم تكن هي موجودة في المركب ، بينما سيظن رجاله لدي رؤية فانوسي ، انني ارغب فى وكوبه ، فيرسون عند الضفة . ولحظتئذ اطفأت نور الفانوس .

وفور ذلك سادت العتمة ، ولم يعد يري سوي نور العوامات علي صفحة النهر اجمع كما لو وخزت بالابرة . كان السكون مطبقاً ، وكنت اقف وحيداً فى تلك الفترة المتاخرة من الليل على امتداد كيلومترات كثيرة علي ضفة النهر بينما رقدت في الاعلى ، وراء غابة البلوط ، قرية مظلمة ، وهجع الجميع فيها منذ وقت بعيد ، وبدا النور في منزلي فقط الواقع فى طرفها .

وعلي حين غرة تصورت الطريق الطويلة التي قطعتها للوصول اليّ ، وكيف سافرت من ارخانغلسك ، ونامت او جلست عند نافذة عربة القطار ومع من تبادلت اطراف الحديث ، وكيف كانت تفكر ، مثلما افكر انا ايضا ، طوال تلك الايام فى لقائي . وكيف تتنقل الان في نهر أوكا وترى الضفاف التي كتبت لها عنها ، حين دعوتها للمجيء اليّ . وكيف ستصعد الى سطح المركب والريح تهب علي وجهها ، حاملة رائحة غابات اشجار البلوط الرطبة . وما هي الاحاديث التي تجري في الاسفل طوال الطريق ، وسط الدفء ، ووراء زجاج النوافذ المرشح عرقاً ، وكيف يشرح لها اين ستنزل واين ستمضي ليلتها اذا لم يستقبلها احد .

ثم تذكرت اصقاع الشمال ، وتجوالي فيها وكيف عشت فى مربض الصيادين وأكلنا ، انا واياها ، سمك زوباتكا فى الليالي البيضاء .

وكان صيادو السمك يغطون في النوم ، وينبعث منهم الشخير والانين ، بينما كنا نحن ننتظر الجزر ثم ننطلق في الزورق الي عرض البحر . وكانت تجذف دون ان تنبس ببنت شفة ، فيما احدق انا فى الاعماق ، وفي تلافيف الطحالب ، باحثا فيها عن اشباح السمك . وكنت اوجه الحربة بهدوء واطعن قفا السمكة بالنصل الابيض ، واخرجها من الماء ، متوتر العضلات ، فاذا بها ترش وجوهنا بالماء ، وتتلوى بعنف علي الحربة ، وتفتح

فمها البشع ، وتلتوي بشكل حلقة ثم تستوي كالزنبرك ، وتغدو شبيهة بالتريتون . ومن ثم تاخذ ، وهي فى قاع الزورق ، بالحفيف فترة طويلة ، والارتعاش والقبض على كل ما تلقاه قبضة مميتة .

واستعدت فى ذاكرتي العام ذاك باسره ، وكم كان عاما سعيداً بالنسبة لي ، وما اكثر ما تيسر لي كتابته من قصص ، وما سأكتبه ، في اغلب الظن ، في خلال الايام الساكنة الهادئة على ضفاف هذا النهر ، ووسط هذه الطبيعة ، التي خمدت وصارت تنتظر قدوم الشتاء . . .

لقد لفّني الظلام وارخي عليّ سدوله ، اما السيجارة التي كانت ، حين اسحب الانفاس ، تنير يدي ووجهي وجزمتي بنور ساطع ، فما كانت تحول دون رؤيتي النجوم ، — وكان عددها في ذلك الخريف كثيرا جدا وشديدة البريق ، حتى يرى نورها الرمادي ، ويرى النهر المضاء بالنجوم وكذلك الاشجار والصخور البيضاء على الضفة ، والمستطيلات القائمة للحقول فوق التلال ، فيما كان الجو في الوهاد اكثر قتامة وعبيرا مما في الحقول .

وفور ذلك جال فى خاطري ان الشيء الاساسي في الحياة — ليس كم تعيش من الاعوام : ثلاثين او خمسين او ثمانين عاماً ، فانها بالرغم من كل شيء فترة قصيرة ، بل ان الشيء الاساسي كم سيكون لديك من الليالي كهذه في حياتك .

ابتعد المركب عن المرسى . وبدا بعيداً جداً ، بحيث لم يكن بمقدوري رصد حركته . وبدا واقفاً في مكانه ، لكنه ابتعد عن المرسى ومعنى ذلك انه توجه نحو الاعلي ، باتجاهي . وسرعان ما تناهي الي سمعي صوت محرك الديزل العالي ، وفجأة شعرت بالرهبة ، من احتمال انها لن تاتي ، وانها غير موجودة في المركب ، وانني انتظر عبثا . وعلى حين غرة رأيت المسافة والايام التي يتعين عليها ان تجتازها لكي تصل اليّ ، وادركت كم ان هذا كله هشيّ ، فيما يخص خططي عن الحياة السعيدة هنا معها .

وقلت بصوت عال ونهضت :

— ما هذا !

– وماكـــان بمقدوري الجلوس اكثر ، واخذت اتمشى على الضفة .

– ما هذا !

كنت اكرر ذلك بين الفينة والفينة عاجزا ، وانـا اواصل التحديق فى المركب ، فيمـا كنت افكر كيف سيكون رهيبـا الصعود وحيدا الى اعلى حاملا دلو المـاء ، وكم سيغدو منزلي خاوياً . وهل من المعقول ان الحظ لن يحالفنا فى نهاية الامر ، ولن نلتقي بعد هذه الايام الطويلة واخفاقاتنا ، وسيذهب كل شيء عبثاً ؟

ثم تذكرت كيف سافرت قبل ثلاثة اشهر مضت من الشمال عائداً الى مدينتي ، وكيف جاءت ، بصورة غير متوقعـة ، الى القرية من المربض لتوديعي ، وكيف وقفت على المرسي لحين صعودي الى الزورق ذي المحرك ، من اجل الانتقال الى الباخرة الراسية فى موضع بعيد عن الساحل ، وكيف كررت الكلام نفسه : «الى اين انت ذاهب ؟ انت لاتفهم شيئاً ! انت لاتفهـم شيئاً ! الى اين انت ذاهب ؟» . اما انـا ، وكنت واقفاً في الزورق ذى المحرك ، فقد ادركت وسط عبارات التوديـع ودموع النسـاء وصرخات الشبان وشتى اصناف اللغط بانني افعل فعلةً صبيانيةً طائشـةً بسفري ، وكان املي ضعيفـا فى اصلاح الامور في المستقبل .

كان الزورق قريباً عندئذ ، ولم اعد اتمشى بل وقفت عند طرف المرسى ، عند الهوة فوق الماء الاسود ، وانا اتطلع الى المركب دون ان احيد بنظري عنه ، وقد ضيقت عينيّ وغدت انفاسي ثقيلة لانفعالي ولما خامرني من رجاء .

فجأةً خفت صوت المحرك قليلاً واشتعـل البروجكتور في اعلى المركب ، وانزلق على الضفـة شعاع مشتت كالدخـان ، ومتقافزا من شجرة الى اخرى ، لقد كان المركب يبحث عن مكان للرسو . وتوجه يميناً اكثر فاكثر ، وسقط شعاع البروجكتور المتوتر على وجهي فاشحت بوجهي جانباً ، ثم نظرت مرة اخرى . كان هناك بحار يقف فوق السطح العلوي للمركب ، وقد فتح الحاجز الجانبي لكي ينزل الى الاسفل ، وليمد السلم الى الضفة .

بينما كانت هي واقفة الي جانبه مرتديه رداءاً ما فاتح اللون .

انغرزت مقدمة المركب بانسياب وبعمق في الضفة ، وحرك البحار السلم ، وساعدها على النزول ، بينما حملت الحقيبة ، وابعدتها جانباً ، ووضعتها الى جانب الدلو ، وعندئذ فقط استدارت نحوها ببطء . لقد اصاب نور البروجكتور عيني بغشاوة ولم اكن البتة استطيع النظر اليها . فتقدمت مني ، والقت ظلاً ضخما ومترجرجاً على المنحدر الملفـع بالاشجار في الاعلى . واردت تقبيلها . لكنني عدلت عن هذا ، فلم ارد القيام بهذا تحت ضوء البروجكتور . لذا سرنا فحسب جنبـا الى جنب ، ونحن نغطي اعيننا بايدينا من النور ، واخذنا نتطلع الى المركب وقد ارتسمت على وجهينا ابتسامات قسريـة . تراجع المركب فتنحى شعاع البروجكتور جانباً ، ثم انطفـا كليا ، وهدر محرك الديزل في الاسفل مرة اخرى ، واخذ المركب يندفع بسرعة في النهر مبتعداً ، وبدا في الصالونات التحتية فيه صف واحد من النوافذ المضيئة . وبقينا لوحدنا .

قلت بارتباك :

– مرحبا !

فوقفت على اطراف اصابع قدميها وامسكت بكتفي بقوة مما اثار المي ، وقبلتني في عيني . وقلت :

– لنذهب ! – ثم سعلت – اللعنة على الشيطان ، الظلام حالك ، انتظري سأشعل الفانوس . . . واشعلت الفانوس ، ومرة اخرى تضبب زجاجه ، ووجب الانتظار حتى يشتد نور الشمعة ، ويجف الزجاج ويغدو شفافاً . ثم مشينا : كنت امضي في المقدمة حاملاً الحقيبة والفانوس ، اما هي فتمشي ورائي حاملة دلـو الماء .

وبعد لحظةٍ سالتها :

– هل هي ثقيلة ؟

فقالت بصوت متحشرج :

– امش . . . امش . . .

كان صوتها دائماً حاداً ومتحشرجـاً ، وعموماً كانت خشنة وقوية . ولم احب فيها هذا خلال فترة طويلة ، لانني احـــب

النعومة والرقة لدى النساء . لكنني ، الآن على ضفة النهر ليلاً ، حين مشينا احدنا في اثر الاخر نحو المنزل ، وبعد كل تلك الايام من الغضب والفراق والرسائل والاحلام الغريبة المهددة ، كان صوتها وجسدها القوي ويداها الخشنتان ولهجتها الشمالية مثل انفاس طير غريب عن هذه الانحاء . متوحش ذو ريش رمادي ومتخلف عن السرب في موسم الخريف .

انعطفنا نحو اليمين الى الوهدة التي يمتد الى اعلاها درب قصير رصفه بالحجارة احد ما وفي زمن ما – درب ضيق تنمو على جانبيه اشجار الجوز والصنوبر والغبيراء . واخذنا نصعد فيه وسط العتمة وننير طريقنا قليلاً ، بينما كان يجري فوقنا نهر ضيق من النجوم ، وتسبح فيه اغضان الصنوبر السوداء ، وتغطي النجوم بين الفينة والفينة على التوالي .

وبلغنا درب اشجار الشربين بعد جهد جهيد ، ثم مشينا جنبا الى جنب . وفجأة اردت ان اريها كل شيء وان احدثها عن اهل القرية ، عن الناس ، وعن مختلف الحوادث الصغيرة .

فقلت :

– استنشقي ، اية رائحة هذه ؟

وردت بقولها : – رائحة نبيذ ، – كانت انفاسها متقطعة لحد ما بسبب المشي – انني تشممتها قبل وقت طويل ، ومنذ ان كنت في المركب . . .

– انها اوراق الشجر . والان تعالي الى هنا .

تركنا حاجياتنا على الدرب ، وعبرنا الساقية ، ودخلنا الى الحرش ونحن نضيء طريقنا بالفانوس .

وتمتمت :

– لابد وانها هنا .

وقالت من ورائي بتعجب :

– فطر . فطر !

واخيرا وجدت ما كنت ابحث عنه . لقد كان ذلك الريش الابيض لفرخ دجاجة ، قد تناثر فوق العشب وابر الصنوبر والوريقات الصفر .

– انظري .

ثم اخذت انير المكان .

– يوجد عندنا في القرية معمل دجاج . وقد نمت الفراخ ، وبدأوا باطلاقها من الاقفاص ، وها هو الثعلب ياتي يوميا ويكمن في الحرش . وحين تتجول الفراخ في الغابة يقتنص احدها ، ويأكله فوراً .

وقد تصورت ذلك الثعلب ، وبوزه القاتم مشوب بالبياض وكيف يلعق بلسانه وينفخ لكي يبعد الزغب عن انفه .

فقالت :

– يجب اصطياده وقتله .

– لديّ بندقية صيد . وسننطلق معك في الغابات لربما سيحالفنا الحظ .

ومرة اخرى بلغنا الدرب وواصلنا السير ، وتراءت النافذة المضيئة لمنزلي ، وصرت افكر فيما سيحدث الان حين نصل . واردت على الفور شرب قدح ، وكان لدى شراب من نقيع الغبيراء . وقد صنعته بنفسي . كان من الممتع قطف الغبيراء في الغابة ، وجلبها الى البيت ، وعصرها بالمعصرة لكي تنسكب الرغوة الصفراء ، بعد ذلك اصب العصير في قنينة تحتوي على الفودكا .

– عندنا شتاء الآن ! قالت هذا كما لو كانت متعجبة – وتجمد نهر دفينا ، وفي وسطه فقط شقت محطمات الجليد طريقاً للملاحة . وكل شيء ابيض بينما الطريق المائي اسود . كما ينبعث البخار منه . وحين تمضي السفينة فوق الماء الاسود ، تعدو الكلاب الى جانبها ، ولأمر ما تعدو في اصطفاف .

وقد قالت ذلك على طريقة أهل الشمال «في اصطفاف» ، بينما تصورت انا نهر دفينا والسفن وارخانغلسك والقرية التي جاءت منها الواقعة على البحر الابيض . ثمة بيوت عالية وخالية تتالف من طابقين وجدران سوداء وسكون والعيش بعيداً عن الناس .

وسألت :

– هل ظهر الجليد ؟ في البحر ؟

– بدأ بالظهور قادما من المحيط .

قالت ذلك واستغرقت بالتفكير في شيء ما ايضاً . ربما في

ما تركته وراءها هناك . ويتعين عليها في طريق العودة ركوب الزحافات التي تجرها الايائل . ان . . .

لزمت هي الصمت . وانتظرت مصغياً الى انفاسها وخطواتها . ثم سألت :

– ماذا ، ان ؟

وردت بحشرجة وببطء شديدين :

– لاشيء . ان زحف المزيد من الجليد ، هذا كل ما في الامر !

وبعد ان مشينا بدبدبة فوق الشرفة دخلنا الى المنزل .

– اووه ! – قالت هذا ، متطلعة حواليها ، وهي ترفع منديل رأسها . انها تردد هذه الـ«اووه» الحادة البطيئة دائماً ، حين تندهش او تبتهج لامر ما .

كان المنزل صغيراً وعتيقاً ، وقد استاجرته من رجل موسكوفي ، كان يعيش فيه صيفاً فقط . ولم يكن فيه اثاث تقريبا ، بل اسرة عتيقة ومائدة ومقاعد فقط . لكن وجد فيه جهاز راديو ونور كهربائي وموقد وعدة كتب قديمة سميكة ، كنت احب مطالعتها في الأمسيات .

وقلت لها :

– اخلعي المعطف ! سنشعل النار في الموقد فوراً . . .

ومضيت الى الفناء لقطع الحطب من اجل الموقد . لكن غمرني شعور غريب من السعادة ، واحسست بطنين في رأسي ، وبرجفة في يديّ ، وعموماً كنت بكياني اجمع ضعيفاً نوعاً ما وتمنيت لو اجلس . وكانت النجوم تومض وميضاً دقيقاً وحاداً . وفكرت في دخيلة نفسي : «سيبدأ الزمهرير . ومعنى ذلك ستتساقط جميع الاوراق صباحاً . سيهل الشتاء قريباً !» .

وانبعث من جهة نهر أوكا ببطء صفير رخيم ثلاثي الايقاع ، واستمرّ طويلاً ، منزلقاً عبر التلال . لقد كان يمضي في مكان ما في الاسفل صندل من الصناديل البخارية العتيقة ، التي بات عددها قليلاً الآن . فالمراكب وزوارق ضخ الماء والجر الحديثة ذات صفير قصير وعال وكريه لحد ما . وايقظ الصفير عدة ديكة في حظيرة الطيور فراحت تصرخ بصوت نشاز . . .

قطعت الحطب وحملت قطع الخشب وولجت المنزل . كانت قد خلعت رداءها ، ووقفت مولية ظهرها اليّ وانهمكت في اخراج شيء ما من الحقيبة مع حفيف الجرائد . كانت ترتدي فستانا مزيناً بنقوش من الزهور ، وبدا ضيقاً عليها ، ولو اخذتها الى موسكو لزيارة احد ما او الى النادي لارتسمت ابتسامات ذات مغزى على الوجوه ، فيما كان ، في اغلب الظن ، افضل فستان لديها . ثم تذكرت بانها ترتدي عادة السراويل الرياضية الملفوفة من الاسفل والمدسوسة في الجزمتين ، بينما ترتدي فوقه تنورة قديمة ما حائلة اللون ، وهذا يفي بالمرام تماما هناك .

وضعت الغلاية على الموقد فبدأت باشعاله . وسرعان ما تعالى الازيز في الموقد ، ونشنش الحطب ، وفاحت رائحة الدخان والخشب .

قالت لي من الخلف : – هذا لك !

فالتفت ورايت على الطاولة سمكة سلمون – رائعة ، ذات لون فضّي فاقع ، وظهر عريض قاتم ، وقد التوى فكها الاسفل نحو الاعلى . وانتشرت في المنزل رائحة السمك ، وغلبني الحنين الى الاسفار مرة اخرى .

كانت من اهل البحر ، وحتى انها ولدت في زورق ذي محرك في ليلة ذهبية صيفاً . بيد انها لم تكن تلقى بالا الى الليل . فلا يراها سوى القادم الى تلك الاصقاع فيجن جنونه بسبب السكون والوحدة . لكن المرء حين يذهب الى هناك كضيف ، وينقطع عن الجميع ويبدو ان الجميع قد نسوه ، يتملكه الارق ليلاً عندئذ فقط ، ويفكر ويقول مخاطباً نفسه : «هيا – هيا ! لاباس انه الليل فحسب ، ولن تبقى هنا الى الابد ، وما شانك بالليل ، ودع الشمس تسترق النظر من طرف البحر . فنم ، نم . . .» .

وهي ؟ انها كانت في الليالي غارقة في النوم في مربض الصيادين ، وراء ستارة من قماش الشيت ، لأنها يجب ان تستيقظ عند الفجر ، وتجذف مع دزينة من الصيادين ، وتستخرج السمك من الشباك ، ثم تعد حساء السمك وتغسل الاطباق . . . وكانت حياتها تجري على هذا المنوال دائماً ، وفي كل صيف ، لحين قدومي الى هناك .

وها نحن الآن على ضفة أوكا نحتسي شراب الغبيراء ، وناكل السلمون ونتحدث ونستعيد شتى الذكريات . وكيف كنا نخرج في الليالي البيضاء الى عرض البحر لاصطياد سمك زوباتكا ، ونسحب الشباك مع الصيادين في العاصفة ، ونشرق بالمياه المالحة فيصيبنا الغثيان ، وكيف ابحرنا مرة الى المنارة طلباً للخبز ، وجلسنا في احدى الليالي في مكتبة صغيرة بالقرية ، فنزعنا الجزم وخلعنا معطفان مبطنان ، وأخذنا نطالع الجرائد والمجلات الصادرة في تلك الايام التي مضيناها في المربض حيث موضع صيد الاسماك .

فرشت معطف الفراء ووجهه الى الارض باتجاه الموقد ، ووضعنا الى جانبه الغلاية والحلوى ، وتناولنا قدحين واستلقينا على هذا المعطف ، ونحن نرمق احدنا الاخر بين الفينة والفينة ، او نتطلع في اتون الموقد الوردي ، وفي الفحم ، وكيف تسري السنة قصيرة من اللهب فيه . وكنت احيانا ، وبغية الاستلقاء هناك اكثر ، انهض وارمي بالحطب في الموقد ، فيطقطق ، ونبتعد عن السخونة . وفي نحو الساعة الثانية ليلاً نهضت في الظلام ، حيث لم استطع النوم وبدا لي انني اذا ما غفوت فسترحل عني الى مكان ما ، ولن اشعر بها ، بينما كان بودي ان تبقى معي طوال الوقت ، ولعرفت هذا . كان بودي ان اقول لها «خذيني الى احلامك ، بغية ان اكون معك دائماً ! لانه لا يجوز لنا الفراق لفترة طويلة» . ثم فكرت بان الناس الذين يفارقونا ولن نلتقي معهم اكثر ، يغدون بالنسبة لنا كالأموات . ونحن ايضا أمواتا بالنسبة لهم . افكار غريبة تدور في الراس ليلاً ، حين لا تستطيع النوم بسبب الفرح او الكآبة .

وسألت بصوت خافت :

– اانت نائمة ؟

وردت من السرير :

– لا . انا سعيدة . لاتنظر ، فانا ابدل ملابس . . .

عندئذ توجهت الى الركن حيث علق جهاز راديو باحزمة ففتحته . وبحثت عن الموسيقى وسط الخرخشة ودمدمة المذيعين . كنت اعرف بانها موجودة حتما ، ووجدتها . وقال صوت رجالي

عبارة ما بالانجليزية واعقبت ذلك فترة صمت ، وادركت بان الموسيقى ستعزف بعد قليل .

جفلت لا ننني عرفت اللحن منذ اول صوت . انني استعيد في ذاكرتي لحن الجاز هذا في لحظة المزاج الرائق ، او بالعكس ، في لحظة الالم . وهو غريب عني ، لكنه ينطوي على فكرة خفية ما ، يتعذر عليّ ادراك ما اذا كان اللحن حزينا ام مرحا وكنت غالبا ما اتذكره حين أسافر الى مكان ما ، وحين يبهجني أمر ما او بالعكس ، يكدرني . وقد ذكرني ايضاً بتلك الليلة الموسكوفية حين كنا نتنقل ونتنقل ونتمشى ، وحيدين وتعيسين ، دون ان تبدر كلمة عتاب منها ، واحسست بالخجل .

ثم سافرت الى ارخانغلسك بعد خمسة ايام فارغة كهذه ، مضيناها بموسكو ، وكانت الاجواء كحالها دائماً في محطات القطار بموسكو : فقد كان الحمالون يدفعون عرباتهم ، وتئز السيارات الكهربائية ، والناس حوالينا يسرعون ويتوادعون . وبقيت لحظات معدودات . . لقد رحلت ، بالرغم من انها كانت قادرة على عدم الرحيل ، وكان الوقت متوفرا لديها – فثمة عدة ايام اجازة اخرى لديها . واحسست انا بالكآبة والمرارة ، واعتملني الغضب على نفسي وعليها . وفكرت انني ساشعر بالخواء بدونها وسيتعين عليّ مقارعة الخمرة مجدداً ، بعية القضاء ، ولحد ما ، على السام .

وقلت لها : – لاتسافري !

فابتسمت بسخرية فحسب ورشقتني بنظرة في عينيها المرتجفتين . وكانت عيناها قاتمتين ، وتنطلق منهما شرارات خضراء ، ولم يكن بوسعي ادراك – ما اذا كانتا خضراوين ام سوداوين . ولكنها حين نظرت الي هناك كانتا سوداوين ، وانا اذكر ذلك جيدا .

ثم قلت :

– ياللسخافة ! فانا رحلت من الشمال دون ان ادرك شيئا ، وها انت ترحلين الآن ، ومرة اخرى لاشيء . . . ياللسخافة ! لاتسافري !

وتمتمت بغيظ :

– ما فائدة الكلام الآن !

– ما كان ينبغي ان تقطني عند اقارب ما ، يمضون الوقت كله في البيت !

فقالت بعناد :

– وعند من ؟ هل عندك ؟ الامر سواء . مـــا فائدة الكلام الآن . . .

–لنذهب الآن الى الفندق ، وستمضين هذه الايام هناك .

وقالت مشيحة بوجهها عني :

– سيتحرك القطار الآن .

– لكن لا ، مهلاً ، فكري ! وبعد كل هذه الرسائل سنكون معا ، لوحدنا ، فكري !

وصمتت فترة طويلة ، واجالت بنظرها في وجهي ، وعضت شفتها ، واخيراً سألت بلهجة تنمّ عن التعاسة ، والالم .

– وهل ستكون سعيداً ان بقيت ؟

انحبست انفاسي ، واصابتني عصـــة ، فاستدرت ودخلت العربة مسرعاً واصطدمت باحدهم ، وحشرت نفسي هناك وبحثت عن مقطورتها ثم حملت الحقيبة وخرجت . ولا زلت اذكر حتى الآن كيف كان ينظر الينا الكمساريـة وكل من كان يقف بالقرب من العربة انذاك .

وقلت :

– هيا بنا .

– فسألت وعيناها تتألقان :

– والتذكرة ؟

– لنبصق على التذكرة ! قلت ذلك وامسكت بذراعها .

ثم خرجنا الى الساحة وركبنا سيارة اجرة .

وقلت : – الى الفندق .

وسأل السائق :

– ايّ فندق ؟

– الأمر سيّان !

تحركت السيـارة وانطلقت مارة باشارات المرور ولافتات النيون المضيئة وبمحطات القطار والناس والبيوت .

وقلت للسائق بالقرب من احد المحلات :

– قف ، يا هذا .

فخرجت واشتريت قنينة نبيذ . ورجعت وانا ادسها في جيبي الجانبي . وجال في خيالي كيف سنشرب هذه القنينة لوحدنـــا ونرفع الاقداح ونحن نتطلـــع في عيني احدنا الآخر . وكنت اتحسس حتى مذاقه في فمي ، حين اقتربنا من فندق ما وتوجهت الى المدير .

وابلغني بهدوء :

– لا مكان لدينا .

– اي غرفة . اتفهم – اي غرفة سواء اكانت اسوأ الغرف ام افضلها .

فكرّر بغيظ :

– لا مكان لدينا .

– وتناول سماعة التليفون الذي كان يرن باستمرار .

كانت تنتظرني في البهو ، وهي ترنو هيابة الى فخامة الاعمدة والمرايا . كما انها رمقتني بوجل ، لو كنت مالك هذه الفخامة باجمعها !

خرجنا ومضينا الى موقف سيارات الاجرة .

وقلت بأسى :

– لنذهب الى فندق آخر .

فجلست في السيارة باذعان ، وانطلقنا في انحاء موسكو .

ومررت بصديق لاقتراض نقود منه وكدت ان ارجوه ايواءنا ، لكن كان لدى شقيقته ضيوف ، فنظرت اليهم ، والى المائدة ، والنبيـــذ ، والى التخت ، والى قدمين مرفوعتين في جزمتين ثقيلتين ، فلم اطلب شيئا . لكنني اخذت منه المزيد من النقود .

وقال لي صديقي بعد ان لاحظ نظرتي :

– اشرب !

– لا ، شكرا ، هناك من ينتظرني .

انصرمت ساعة واخرى ، ونحن نتنقل ، وكان يقال لنا فـي كل مكان «لاتوجد غرفة شاغرة !» ولـدى الخروج الى الشارع ، صرت اتطلع الى المباني الضخمة للفنادق والبيوت ، والى صفوف

النوافذ العديدة الطوابق ، التى كان الكثير منها بلا نور ، وفكرت فى جميع الذين يستطيعون فى هذه اللحظة الجلوس والاستلقاء بهدوء فى غرفهم ، والاصغاء الى الراديو ، ومطالعة شىء ما قبيل النوم او احتضان امراة ، فصار الألم يعتصر فؤادى .

فى نهاية المطاف ، وبعد ان بلغ بنا التعب اقصاه ، حملنا الحقيبة الى المحطة ، واودعناها هناك ومشينا الهوينا باتجاه سوكولنيكى . كانت الساعة تشير الى منتصف الليل .

وسألت ضاحكا :

– ماذا سنفعل ؟

فقالت بحزن :

– لا أعرف . ربما سنذهب الى المطعم ؟ انا جائعة . . .

قلت ، بعد النظر الى الساعة : – المطاعم مغلقة – ثم ضحكت ببلاهة مرة اخرى . لنذهب الى البولفارات بوسط المدينة .

مشينا بخطوات سريعة ، كما كنا نمشي على ساحل البحر في الشمال ، حين وجب عدم التاخر الى العرض السينمائى في النادى الواقع على مسافة عشرين كيلومترا . وانطفأت مصابيح الشوارع . ولم يبق مضاءاً منها سوى عبر عمود وآخر وفي جانب واحد فقط . وخلت الشوارع من الناس تقريباً . واخيراً بلغنا بولفار تفيرسكوي وجلسنا على مصطبة .

وسألت والامل يراودها : – الا يجوز لنا الذهاب اليك ابدا ؟

– وهل كنت سأتمشى معك ! هناك ابى وامى – فاين !

وقالت : – حسناً . لا تحزن ، سأسافر غداً ، هناك قطار الصباح . وبعد ذلك . . . – وتنهدت – بعد ذلك ستاتى انت الينا فى وقت ما .

فاحتضنتها ، والتصقت بى ، واغمضت عينيها .

– سنجلس هكذا ، أليس كذلك ؟ – تمتمت ، متململة على المصطبة ومتخذة وضعية مريحة اكثر . – انت طيب ، وانا احبك ، ايها الاحمق الصغير ، وقد احببتك هناك ايضا ، ولم تكن تعرف . . . مسكين انت ، مسكين !

وبعد ان جلسنا صامتين بلا حراك هنيهة ، نزعت حذاءيها ورفعت ساقيها ، واخفتهما تحت التنورة .

ودمدمت بصوت ناعس :

– اشعر بألم فى ساقي . هذان الحذاءان . . . انه عدم الاعتياد . . .

وكان يسير فى الدرب الجانبى للبولفار اثنان من رجال الميليشيا . وعندما وقع بصرهما علينا تقدم احدهما الى النور واقترب منى وقال لى وحدي لا مر ما :

– تمش ، ايها المواطن ! هذا غير مسموح به .

– ما الذى لا يسمح به – سألته انا فيما كانت تلبس هى الحذاءين فى قدميها المتورمتين .

– بلا كلام ! قلت – وانصرفا من هنا !

فنهضنا ومضينا فى الطريق . واخذت اتطلع مجدداً الى البيوت والنوافذ ، وكان تتراءى فى خيالي دوما غرفة فيها تخت . ولم يكن هناك شيء آخر فى الغرفة ، سوى نور وردى باهت وتخت .

وقلت بتردد :

– اسمعى ، لنلج مدخل هذا المبنى .

فوافقتنى بقولها وابتسمت ابتسامة فاترة :

– هيا بنا . وسانزع الحذاءين هناك ، ولنجلس على السلالم . ودخلنا فناءا مظلما ، ومضينا نحو الركن الى اناى مدخل ، واغلقنا الباب وراءنا وجلسنا على درجة السلم . ونزعت حذاءيها فوراً واخذت تدلك باطنى قدميها .

وسألتها :

– هل انت تعبانة ؟ مسكينة ، لم يحالفنا الحظ بموسكو .

وبدأت ادخن .

– نعم ، –وامررت بخدها على كتفى – انها مدينة كبيرة .

وتناهى الى سمعى صوت خطوات . وفتح الباب ، والقت المراة بوّابة المبنى نظرة فوقع بصرها علينا . وصرخت :

– هيا ، اخرجا من هنا! لا خلاص منكم يا أبالسة ، انكم

تتسكعون كالقطط السائبة ! اخرجا والا فانني سانفخ في الصفارة الآن !

واخرجت صفارة لامعة من جيب المريلة . وكان وجهها محتقنا غضبا وبارز الوجنتين . فذهبنا الى الفناء مرة اخرى وتبعتنا البوابة والشتائم تنهال من فمها . ونظرنا فى الشارع الى أحدنا الآخر واستغرقنا فى الضحك .

فقلت لها :

– ما هذا بالبحر الابيض .

وهدأتنى مرة اخرى بقولها :

– لابأس ، ربما نتجول فحسب . او لنذهب الى المحطة ، ولو لنجلس على المصاطب ، ها ؟

ووافقتها بقولى : حسنا ! – ثم غمرتنى الحيوية : – اسمعى ، يالى من احمق ، لنذهب الى خارج المدينة ! لناخذ سيارة أجرة ، ولدي نقود ، ولنسافر مسافة نحو ثلاثين كيلومترا – هذا ما يفعلونه عندنا !

كانت تمضي وئيداً في الشارع سيارة اجرة . وسابقاً كنت احب مراقبة سيارات الاجرة الليلية هذه لدى عودتي متأخراً . انها تجوب المدينة الهاجعة ، كالمسحورة ، في حركة بطيئة وهي تومض بمصابيحها الخضراء ، ولدى التطلع الى هذه المصابيح اود دائماً السفر الى مكان ما بعيد .

اوقفنا سيارة اجرة .

– الى خارج المدينة ؟ – اعاد السائق السؤال ، وفوراً بدت عليه امارات الوقاحة – هات سبعة روبلات ونصف ، وعندئذ سأذهب بكما .

فقلت : – حسناً .

كان الامر سواء لدي . وبدت الطريق خاوية ، ومابرحت العتمة باقية في الغرب ، بينما ابيض الشرق ، وبدأ الفجر . والريح تصفر في الخارج برتابة ، وفاحت في السيارة رائحة بنزين شديدة .

هل اتوقف هنا ؟ – سأل السائق ، وقد خفف الحركة بالقرب

من حرش ما – عندنا لا يمضون ابعد من هذا . هل انها قادمة من الاطراف ؟ – وواصل السؤال ، محدقاً فيها .

خرجنا من السيارة فشعرنا على التو بالبرد في فترة ما قبل الفجر . وسأل السائق وهو ينظر الىّ كما لو يحدد ثمن الوقت :

– هل تكفي نصف ساعة ؟ انني ساغفو . وعندما تعودان – ايقظاني . هل لديك سيجارة ؟ هات وسادخن . . .

وصار يستدير على جانب الطريق ، بينما مشينا نحن فوق الاعشاب القاسية باتجاه الغابة ، وكان شعوري الوحيد آنذاك هو الشعور بالرطوبة والقشعريرة . وبردت بدلتي وثقلت ، وتبلل حذاءي ، وسوّيت الطيات على السراويل . وساد الغابة نور الغسق ، فرنوت اليها ، مفكراً فيما سافعله لحظتئذ . وبدت عليها علائم التعب ، وضمر وجهها ، وظهرت دوائر تحت عينيها . وفجأة تثاءبت بشكل سافر ونظرت الى ما حواليها باكتئاب ، كما لو غلبتها الحيرة والدهشة في السبب الذي جعلنا نأتي الى هنا .

وتمتمت :

– يالها من غابة !

وبغتة رمقتني بنظرة عداء .

وتثاءبت' انا ايضا ، وشعرت' بالسأم والغيظ ، لكوني لست في فراشي في البيت ، بل هنا وسط الرطوبة والبرد .

وقالت ، وهي تتثاءب بارتعاش : – لقد ضجوت ، – وتلفظت هذه العبارة بصوت خشن ومتحشرج وتلفظت كلمة «ضجوت» بدلا من «ضجرت» – يا الهي ! لا حاجة الى اي شيء ، لا أريد ، لنعد ادراجنا . . .

فقلت' بفتور وتثاءبت' ايضا :

– لنرجع مادمتِ تريدين الرجوع . لكن لنشرب ، والا فان القنينة تثقل على جيبي .

اخرجت' القنينة وحاولت' نزع الفلينة ، لكنها كانت منحشرة بقوة . وعندئذ دفعتها الى داخل القنينة بالشمع الاحمر .

وقلت وانا أمد اليها القنينة الدافئة :

– اشربي .

فتمتمت : – لا اريد .

لكنها اخذت القنينة ، وتنهدت ، ثم راحت تشرب . وسال على ذقنها خيطان رفيعان كالدم ، ثم سعلت وناولتني القنينة . فاكملت شربها والقيتها .

وقلت بارتياح :

– هيا بنا .

ومشينا مرة اخرى في الغابة الرطبة ، فوق السرخس ، ثم فوق مروج صغيرة ناتئة ، وكانت ترفع فستانها طوال الوقت بغية الا تتبلل اطرافه بالندى .

سأل السائق : – مالكما اتيتما بهذه السرعة ! – ونظر الي بسخرية – ام انكما لم تتفقا في الطبع ؟

وقلت حانقاً : – هيا ، تحرك ! – وانا لا اكاد امنع نفسي من توجيه صفعة اليه .

قفلنا راجعين وغفونا ، ونحن نميل نحو احدنا الآخر في المنعطفات الشديدة ، واذكر ان ملامستها لم تكن تروق لي ، ولها ايضا ، كما يبدو . . . وكان الوقت حوالي الخامسة صباحاً ، ووجب علينا التسكع نحو ثلاث ساعات اخرى قبل ان يحين موعد تحرك القطار . وساءت حالي ، فقد فعل النبيذ فعله في راسي ، واحسست بجسدي ثقيلاً وبالاختناق .

وكانت الساعات الثلاث تلك مصدر عذاب لي ، والامر الرئيسي انني لم اكن قادراً على الانصراف ، ووجب علي البقاء معها حتى النهاية . وانتظرت بعد لاي موعد تحرك القطار ، فودعتها مجدداً ولم اعرف ما يجب علي قوله لان راسي كان ينفطر .

فقالت : – حسنا ، اكتب ، – وامسكت بالدرابزين .

ووجدت في نفسي القوة لايقافها .

وتمتمت : – لا تغضبي ، – وقبلتها في جبينها ومضت نحو المخرج . واذكر ان شعوراً قوياً من الارتياح قد تملكني حين فارقتها ، حتى انني دهشت ، لكنني مع هذا احسست بالحزن ، اذ وخزني في مكان ما باعماقي الم جرح ما ، وشعرت بنوع من الخزي . . .

* * *

قربت معطف الفراء من جهاز الراديو ، فجلسنا عليه متعانقين . طوال تلك الشهور كان يراودني في اعماقي شعور بفقدان شيء ، اما الآن فقد وجدت كل شيء ، وما وجدته كان حتى افضل مما كان بميسوري ان اتوقعه .

ودمدمت آلة الكونترباص برثاء ، باحثة في القتام متلمسة مساراتها من الالحان المتضادة ، وتائهة دون ان تجد النهاية للحن ، فتارة تصعد وتارة تهبط ، وذكرتني حركته الوئيدة بالسماء . واصغي الساكسافون اليها فصار يتشكى من امر ما ، وبدا البوق المرة تلو المرة بعزف الحان حادة محمومة ، وبينهما كانت آلة البيانو تردد انغامها التي تجمع بين الحين والحين بتآلف تلك الالحان العسيرة المنذرة بنهاية الكون . كان الطبال ، مثل الشوكة الرنانة ومثل الزمن ، يخضع كل شيء لايقاعه وينقل الانغام من الايقاعات الخافتة الى العنيفة ، بضربات خفيفة وجوفاء .

– لن نشعل النور ، حسناً ؟ – قالت ذلك ، متطلعة من الارضية الى الاعلى ، الى خط التاشير الاخضر في جهاز الراديو ، والى عينه الشبيهة بعين ذئب .

فوافقتها بقولي : – حسناً .

وفكرت بان مثل هذه الليلة لن تتكرر لدي ابداً . وشعرت بالاكتئاب ، لمضي ثلاث ساعات بينما كنت اتمنى ان يبدأ كل شيء من البداية ، لكي اخرج مرة اخرى حاملا الفانوس وانتظر ، ولكي نستعيد الذكريات مرة اخرى ، وعندئذ نخشى مرة اخرى الفراق عن احدنا الآخر في الظلام .

ونهضت للحظة لتناول شيء ما ، وتطلعت من النافذة وقالت بصوت متحشرج :

– الثلج . . .

ونهضت انا ايضاً قليلا وحدقت في العتمة وراء النافذة . كان الثلج يتساقط بهدوء . انه اول ثلج حقيقي في هذا الخريف . وتصورت كيف ستتراءى غداً في النهار اثار الفئران حول كومة

حطب في الغابة وآثار ارانب بالقرب من شجرة اقاصيا ، والتي تحب الارانب كثيراً قضمها في الليالي ، وتذكرت بندقيتي ، فانشرحت ، وسرت في جسدي قشعريرة . انه شيء جميل ان يتساقط الثلج ، وانها جاءت ، واننا لوحدنا ، ومعنا الموسيقى ، وماضينا ومستقبلنا الذي ربما سيكون افضل من الماضي ، وانني سآخذها الى اماكني المحبوبة ، وسأريها نهر اوكا والحقول والركام والغابة والوهاد . . . انقضى الليل دون ان نستطيع اخذ غفوة ، وكنا نتحادث همساً ونتعانق ، خشية ان يفقد احدنا الآخر ، واشعلنا النار في الموقد مرة اخرى – وحدقنا الى بلعومه الناري ، ولوح الضوء الاحمر وجهينا . وغفونا في نحو الساعة السابعة صباحاً ، وكانت النوافذ قد شابتها الزرقة ، ونمنا طويلا ، لانه لم يكن هناك من يوقظنا في بيتنا .وفيما كنا نائمين اشرقت الشمس ، وذاب كل شيء ، لكنه تجمد مرة اخرى . وبعد ان شربنا الشاي حملت بندقية الصيد وخرجنا من المنزل . واحسسنا حتى بالالم للحظة من الزمن – اذ قابل عيوننا نور الشتاء الابيض الساطع ، وكان الهواء نقياً وحاداً . وكان الثلج قد ذاب ، لكن بقيت في كل مكان قشور جليدية . وكانت مغبشة ونصف شفافة . وانبعث من حظيرة الابقار بخار ذو اريج عطر ، وتدافعت العجول الى جانبها وحوافرها تدبدب بصوت عال ، كما لو انها تمشي فوق الواح خشبية . وسبب ذلك ان عجينة الروث لم تتجمد بعد تحت طبقات الجليد العليا . بينما كان بعضها يرعى بمتعة بادرات المحصول الشتوي الشائبة ، وغالباً ما تبول رافعة اذنابها وارجلها منفرجة . وتظهر في اماكن تبولها بقع لازوردية من الشعير النضر المبلل .

في بادئ الامر مشينا في الطريق . وتغطت اثار العجلات فيها بطبقة بيضاء مغبشة ، لكن ما برح الماء الطيني تحت الجليد ، وحين كانت جزمنا تكسر القشرة تتطاير على الجليد بقع بنية . اما في الغابة فكانت تبرز تحت الجليد زهور الاقحوان التي ما كادت تصطبغ باللون الاصفر . وبدت في الجليد اوراق الاشجار وابر الصنوبر المتجلدة . وانبجست آخر اصناف الفطر المتجمدة . وحين كنا نضربها باقدامنا كانت تتكسر رؤسها وتتدحرج طويلاً

فوق الجليد مولدة قرقعة في تقافزها . وكان الجليد تحت اقدامنا يغوص في الارض ، فينبعث حوالينا صدى الخرخشة والهدير بعيداً : من امامنا وخلفنا ومن الجانبين .

وتراءت الحقول على التلال ذات لون اخضر مغبش من بعيد ، كما لو رشّ فوقها الدقيق . واسودت اكداس التبن ، واصبحت الغابة غير كثيفة الاغصان ، وبدت سوداء وعارية من الاوراق ، وانبجس فيها بحدة فقط سياج من اشجار البتولا ، وتارجحت بتململ جذوع اشجار الحور وتألقت بخضرتها ، وفي بعض الاماكن بدت ، فوق التلال المغطاة بالغابات ، وتوهجت كالازهار قمم الاشجار التي لم تسقط اوراقها بعد . اما النهر فكان يرى من بعيد عبر اشجار الغابة ، وبدا خاوياً وبارداً . ونزلنا الى الاسفل نحو الوهدة المفروشة بالثلج ، مخلفين آثاراً عميقة وراءنا ، كانت وسخة في البداية ثم اصبحت نظيفة ، وصرنا نشرب من ماء الينبوع بالقرب من شجرة حور مقطوعة . وغاصت في قاع حوض الينبوع الساكن اوراق الاسفندان والبلوط المسوّدة ، فيما انبعثت من شجرة الحور المقطوعة رائحة مرّة وباردة . وكانت نثارة الخشب في موضع القطع بلون الكهرمان .

سألت وانا اتطلع اليها :

– حسناً ؟

ودهشت : فقد كانت خضراء العينين .

وقالت متفحصة المكان بنهم ولاعقة شفتيها :

– حسناً !

فسألتها مرة اخرى :

– هل افضل مما عند البحر الابيض ؟

وصارت مرة اخرى تتطلع الى النهر ، والى الاعلى نحو المنحدر ، وصارت عيناها اشد خضرة .

وقالت كيفما اتفق :

– وماذا في البحر الابيض ، عندنا . . . عندنا – وقاطعت نفسها – هنا اشجار بلوط . كيف وجدت مثل هذا المكان ؟

كنت سعيداً ، لكن غمرني شعور من الغرابة والخوف . ففي ذلك الخريف سارت الامور على احسن ما يرام لديّ . ولغرض

تهدئة نفسي عمدت الى تدخين سيجارة . ولفّني الدخان والبخار . وظهر مركب قطر في نهر اوكا من جهة اليكسينو ، ومضى مسرعاً باتجاه التيار ، مستثيراً الامواج ، وتابعناه بابصارنا صامتين . وتصاعد من قسم الآلات فيه بخـــار كثيف ، كما تصاعد البخار ايضا من فتحة جانبية فوق الماء الغامق اللون .

عندما اختفى المركب وراء المنعطف اخذنا نصعد الى الاعلى متماسكي الايدي وسط الاشجار المتفرقة في الغابة المضيئة ، لكي ننظر مرة اخرى الى نهر اوكا من الاعلى . مشينا بهدوء صامتين ، كما لو كنا في حلم ابيض ، غدونا فيه سوية معاً ، في نهايـة المطاف .

١٩٦١

آدم وحواء



كان الرسام اغييف يعيش في فندق باحدى مدن الشمال التي جاء اليها لرسم صيادي السمك . وهذه المدينة عريضة . كما ان ميادينها وشوارعها وبولفاراتها عريضة ايضاً ، ولهذا بدت وكأنها خاوية ومقفرة .

الوقت خريف . وانطلقت فوق المدينـــة ، وفوق الغابات الرمادية – البنية ، التي غطاها الصقيع ، ومن جهة الغرب سحب واطئة شعثاء ، وصارت تسقط الامطار بمعـدل عشر مرات في اليوم ، والتقت البحيرة مع الجدار الرصاصي المخيّم فوق المدينة . وفى الصباح استلقى اغييف فترة طويلة ، ودخن قبيل الافطار ، وحدق في النافذة . وسالت خيوط الماء على الزجاج الذي اغتسل بالمطر ، ولمعت سقوف البيوت بنور خاب ، عاكسة السماء . وفاحت فى الغرفة الرائحة الثقيلة للتبغ وشيء آخر مـا يذكر بالفنادق . واحس اغييف بصداع في الراس ، وبطنين في اذنيه وبوخز في قلبه . . .

وكان اغييف منذ طفولته موهوباً ، اما الآن ، وقد بلغ سن الخامسة والعشرين ، فصار يزدري وجهه ، كما ويزدري جفنيه البنيين المتورمين وشفته السفلى ، فيما غدت نظرات عينيـــه السوداوين كسولة ومغطرسة . كان يرتدي جاكتة مخملية وقبعة «بيريه» ، ويمشي محدودب النظر ، ويداه في جيبيه ، ويرشق

السائرين في اتجاهه بنظرات خاطفة ، كما لو انه لا يلاحظهم ، وهكذا كان ينظر عموماً الى كل شيء يقع امام بصره ، لكنه يتذكر كل شيء بتألق لا يمحى ، حتى يحس بوجع في قلبه .

وما كان له ما يفعله في المدينة ، وقد يحدث ان يجلس الى الطاولة في غرفته بالفندق ويضع رأسه ما بين يديه ، او يستلقي مرة اخرى ، بانتظار الساعة الثانية عشرة ، حين يفتتح البوفيه في الاسفل . وعندما يحين الوقت يهبط على السلالم بخطوات غير واثقة ، ملقياً في كل مرة نظرة حقد الى اللوحة في البهو . انها تصور البحيرة هناك ، والخلجان والصخور ذوات اللون البنفسجي غير الطبيعي ، واشجار البتولا المنتصبة على الحوافي الناتئة ، ذوات اللون البرتقالي غير الطبيعي . وهذه اللوحة تظهر الطبيعة في الخريف ايضاً .

في البوفيه كان اغييف يطلب قدح كونياك ، ويحتسيه ببطء ، وعيناه تجتليان ارنبة انفه ، خائفاً من ان ينسكب . وبعد ان يشربه ، ويدخن ، ويتطلع الى ما يدور في البوفيه ، وينتظر بنفاد صبر الدفقة الساخنة الاولى . وكان يعرف ان مزاجه سيتحسن عندئذ ، وسيحب كل شيء . الحياة والبشر والمدينة وحتى المطر .

وبعد ذلك يخرج الى الشارع ويتسكع في المدينة ، مفكراً الى اين سيذهب مع فيكا ، وعموماً ماذا سيفعل وكيف سيعيش لاحقاً . وبعد مضي ساعتين عاد الى الفندق ، واحس بالرغبة في النوم فرقد واستسلم للكرى . وحين استيقظ نزل مرة أخرى الى المطعم .

كان النهار قد انقضى ، وبدا الغسق وراء النافذة ، وحل المساء ، وبدأ عزف الجاز في المطعم . وجاءت فتيات طليت وجوههن بالمساحيق ، وجلسن ازواجاً وراء الموائد ، وأخذن يأكلن بنهم الكستليته الشمعية القوام ، ويشربن الفيرموت الذي تنبعث منه رائحة الفلين المحترق ، ويرقصن ، حين يدعوهن البعض الى الرقص ، وترتسم على وجوههن السعادة والجذل للحياة الرخية . فيما كان اغييف يتطلع بكآبة الى الصالة الفسيحة والممتلئة بالدخان المألوفة لديه . كان يكره تلك الفتيات

والشباب المتحذلقين ، والموسيقيين البغيضين الذين يزمّرون ويطبّلون بصوت يصمّ الاذان ، ويكره الطعام المقيت ، والفودكا-السوتشوك المحلية التي كانت عاملة البوفيه تقدمها دائماً في قارورة غير ممتلئة .

وفي منتصف الليل يغلق المطعم . ويعود اغييف بتثاقل الى غرفته في الطابق الثالث ، ويئز بأنفاسه ، محاولاً ادخال المفتاح في ثقب القفل ، ويخلع ملابسه . ويخور ، ويطقطق بأسنانه ويغوص في العتمة حتى صبيحة اليوم التالي .

لقد امضى اغييف نهاره ذاك بالصورة ذاتها ، وفي اليوم التالي وعند الساعة الثانية توجه الى محطة القطار لاستقبال فيكا . وقد وصل قبل الميعاد ، والقى نظرة خاطفة على رصيف المحطة ، والمسافرين وحقائبهم ومضى الى البوفيه . فيما كانت تتملكه نوبة كآبة ويخفق قلبه لمجرد رؤية الرصيف والقضبان .

حملت الفودكا اليه في البوفيه نادلة حمراء الشعر طويلة القامة .

– أنثى رائعة ! – تمتم اغييف ، وهو يودعها بنظرات الاعجاب وبشراهة . وحين دنت منه مرة أخرى قال : – هالو ، يا شيخة ! انتِ بالذات ما كنتُ ابحث عنه في حياتي كلها !

ابتسمت النادلة بلا مبالاة . اذ كان الجميع يقولون لها الشيء ذاته . وكانوا يأتون الى البوفيه لقضاء نصف ساعة ويهمهمون بعبارات ما مبتذلة عادة ، وينصرفون ، لكي لا يروا بعد محطة القطار هذه والنادلة الحمراء الشعر .

وقال اغييف وقد بدت عليه امارات السكر :

– يجب ان ارسم لوحة لك . انا رسام !

فابتسمت النادلة ، وهي ترتب الاقداح على مائدته . وبالرغم من كل شيء سرّها كلامه .

– اتسمعين ! انا رسام عبقري ، وتعرفني اوربا ، هه ؟

فقالت النادلة بلكنة غير روسية نوعاً ما :

– الرسامون لا يرسموننا .

– وكيف عرفتِ ؟

وتطلع اغييف الى نهديها .

– اوه ! انهـــم بحاجة الى صيادي السمك . والعمـال ، والمحو . . . المحولين في السكك الحديدية . او يرسمون عندنا في الارياف جزيرة صغيرة وكنيسة . انهم يسافرون ويسافر . . . ون . . موسكو ولينينغراد . وهـــم يتجولون هكذا بقبعات «بيريه» – نعم ؟

– هؤلاء حمقى . اذن هل سنلتقي ، ما رأيك ؟ – واضاف هذه العبارة بسرعة ، مصغياً الى ضجيج القطار القادم – ما هو اسمك ؟

فقالت النادلة :

– تفضل ، اسمي جانا .

– انت لست روسية ؟

– لا ، انا فنلندية . يوونالاينين .

– اوه ، يا للشيطان ! – تمتم اغييف ، وهو يكمل شرب الفودكا ويسعل .

دفع الحساب ، ومسد كتف جانـــا ، ومضى نحو الرصيف بمرح . وفكر «اية انثى تضيع !» – وضيق عينيه وتطلع الى القطار الاكسبرس الازرق الذى كانت عرباته تنطلق بمحاذاته مسرعة . واصاب اغييف الدوار بسبب التوتر وانطلاق العربات ، فالتفت . «كان يجب الا اشرب» – جال في خاطره بذهول ، وبغتة اصابه الفزع لمجيء فيكا ، فاشعل سيجارة .

كان الناس يغادرون القطـار نحو المخرج . فتنهد اغييف والقى سيجارتـــه وصار يبحث عن فيكـــا . وراته هي اولاً ، وهتفت . التفت واخذ ينظر اليها كيف تقترب بمعطفهـا الاسود المنفوش الموبر . وكانت ازرار المعطف مفكوكة ، وحين تمشي تبرز ركبتاها المكورتان من تحت الفستان في دفقات . ومدت اليه بحياء يدها المتوارية في قفاز مشبك . انهـــا بدت وقد لوحت الشمس شعرها ابان الصيف ، وبتسريحـــة قصيرة ، وتدلت الخصلات على جبهتها . وتطلعت الى اغييف من تحت الشعر بفزع عينان كلوزتين بهيئة تترية . اما فمها فكان مكتنزاً واحمر ، وشفتاها متشققتين وجافتين ومنفرجتين قليلاً ، كما هي الحال لدى الاطفال .

قالت ، وهي تختنق قليلاً :

– مرحباً ! – وارادت اضافة عبارة ما اخرى ، لربما عبارة اعدت مسبقاً ومرحة . لكنها صمتت ، دون ان تقول شيئاً .

كان اغييف ينظر لسبب ما الى المنديل الشفاف الملتف حول جيدها ، وغدا وجهه ينم عن خوف صبياني . فتناول بسرعة من يدها الحقيبة الجلدية الثقيلة ، ومضيا من المحطة الى الشارع العريض .

سالت متطلعة فيه :

– انت متـــورم قليلاً . كيف احوالك ؟ هذا المكـــان يعجبني .

فقال بصوت ثقيل ، نابع من بلعومه :

– آه .

وهذا ما كان يقوله دائماً ، حين يود التعبير عن احتقاره لشيء ما .

– هل انت سكران ؟

ومدت يديها في جيبيها واطرقت براسها . وتدلت خصلات شعرها على جبينها . وقال مرة اخرى :

– آه .

ونظر اليها شزراً .

كانت فيكا مليحة الوجه ، وبدت في ملابسها وشعرها المتناثر واسلوبها في الكلام ملامح موسكوفية لا يمكن وصفها بالكلمات ، وهو ما نسيه اغييف ابان وجوده في الشمال . وقد التقيا في موسكو نحو مرتين ، ولم يتعرفا على احدهما الآخر كما يجب في الواقع ، لذا فان قدومها في اجازة ، لم يكن سهل التحقيق – وقد عرف اغييف ذلك – وبدا له مع استعدادها لأسوا الامور ، امراً غريباً وغير متوقع نوعاً ما .

«ان الحظ يحالفني مع النساء» – فكر اغييف في قرارته ، وقد اعتملة بفظاظة شعور من البهجة المشوبة بالعجب . وتوقف عن قصد ، كما لو كان يريد ارتداء القفازين ، من اجل التطلع الى فيكا من الخلف . وتباطات خطواتها ، والتفتت اليه نصف التفاتة ،

رانية اليه باستفسار ، وفي الوقت نفسه متطلعة بذهول الى المارة وواجهات المحلات .

كانت جميلة من الخلف ايضاً ، وسر اغييف كل السرور لعدم مواصلتها المشي الى الامام ، ولتوقفها ، مع التفرس فيه متسائلة كما انها عبرت بهذه النظرة عن تبعيتها له ، بالرغم من انه منذ لحظة كان يشعر بالخجل والارتباك لقدومها . وادرك بحس بعيد انه انما شرب فقط بسبب ذاك الارتباك .

وقالت فيكا حين لحق اغييف بها :

– لقد جلبت لك صحفاً . . . اتعرف ، انهم ينتقدونك – وكان ثمة صخب شديد في المعرض ، وقد ذهبت انا اليه .

– آه ! – قال مرة اخرى ، واعتمله في الوقت نفسه شعور من الارتياح البالغ وعلى التو سأل بقلق – ولوحة «الكولخوزية» هل ابقوها ؟

فضحكت فيكا :

– لا ، انها باقية . . . لا احد يفهم شيئاً . انهم يصرخون ويتجادلون ، والشباب الملتحون ذوو السراويل الجينس يبحلقون ويدورون في المكان .

وسأل اغييف :

– وهل اعجبك انت ؟

ابتسمت فيكا ، بغموض ، فيما اغتاظ اغييف فجأة ، وعبس وتمخط ونخر ، وقد التوت شفتـــه السفلى ، وتورمت عيناه السوداوان وفتر بريقهما ، وقرر في نفسه : «سأشرب كثيراً !» وامضى النهار كله في ارجاء المدينة بصحبة فيكا كالغريب ، فكان يتثاءب ويرد على اسئلتها بعبارات مبهمة ما ، وينتظر على المرسى حين استفسرت عن مواعيد حركة السفن ، وفي المساء سكر من جديد بالرغم من جميع توسلات فيكا . واغلق باب غرفته عليه ، وغلبه شعور من الألم الشديد المرهف لكون فيكا وحيدة في غرفتها ، وانها مستاءة ، ولا تعلم ما يجب ان تفعله ، لكنه عمد فقط الى التدخين والتكشير بسخرية ، وافكاره منصبة فقط على جانا الحمراء الشعر .

وبدأ التليفون بالرنين مرتين . وعلم اغييف انها فيكا . فلم يرفع السماعة . وفكر في دخيلته حانقاً : «اذهبي الى الشيطان !»

في اليوم التالي ايقظت فيكا اغييف في وقت مبكر ، وارغمته على الاغتسال وارتداء ملابسه وجمعت بنفسها حاجياته في حقيبة الظهر ، واخرجت من تحت السرير صندوق الاصباغ وعصا صيد الاسماك وفحصت ادراج الطاولة وحركت برنين القناني الفارغة ، وكانت حازمة وباردة الاعصاب ، ولم تلق بالاً الى اغييف .

وجال في خاطره وهو يتابعها بنظراته : «كما لو انها زوجة !» وتجهم وصار يفكر بأية سرعة تتكيف النساء للاوضاع في الحياة ، وبمقدرتهن على ابداء السلطة وبرودة الاعصاب ، كما لو انه عاش معها مائة عام .

وشعر بصداع ، وأراد النزول الى البوفيه ، لكنه تذكر ان البوفيه ما برح مغلقاً ، وسعل وحمحـــم ودخن قبيل الافطار . واحس بالتوعك ، فيمـــا وجدت فيكـــا عندئذ الفرصة لتصفية الحساب ، في الفندق واستدعـــاء سيارة اجرة . وفكر اغييف بفتور : «الى الشيطان !» ، وخرج الى الشارع واستقل السيارة – «وليكن ما يكون» . جلس واغمض عينيه ، وبدأ هطول المطر صباحاً ، ومعنى ذلك انه سيتواصل طوال النهار . كما تساقط حتى الثلج . وكان يتساقط بسرعة رطباً وثقيلاً ، ويسوّد حالما يمس السقوف والارصفة المبللة . وشعر اغييف على الرصيف بأن حالته ساءت جداً . واستغرق في غفوة ، بعد ان ضاق ذرعاً بالكآبة دون ان يفهم لِمَ والى اين يتعين عليه السفر ، وسمع في غفوته الخفيفة كيف تصفر الرياح وتهمهم ، وترتطم المياه بالمرسى ، وكيف تقرقع المحركات وتهدر طويلاً ثم يخمـــد هديرها . كما اصابت فيكا ايضاً الكآبة والبرد . ولـــم يتبق أثر للحزم الذي ابدتـــه منذ فترة وجيزة ، فجلست الى جانب اغييف وتطلعت عاجزة . وبدت حزينة ، وبسراويل ضيقة قصيرة ، حاسرة الراس كالسابق ، وقد لوحت الريح شعرها وتدلى فوق جبينها ، وظهر كما لو انها تلقت برقية وتسافر لحضور الجنازة .

فكر اغييف بغيظ : «لقد ارتدت السراويل» ، واغمض عينيه محاولاً الجلوس بهيئة مريحة اكثر بالقرب من الجدار المصنوع من الخشب المعاكس ، «الى اين يحملني الشيطان ، اي ، اي ، اي ، ما اسوأ حالي» . وبعد انتظار مرير جاءت باخرتهم ، ونظروا بفارغ الصبر كيف اقتربت من المرسى ، وهسهس بخارهـــا ، قرقعت وارتطمت بالمرسى وقد انتزعت من عارضته شظية خشبية بيضاء .

لكن حالة اغييف لم تتحسن في الباخرة ايضاً . ففي مكان ما كانت تتردد طقطقة وبقبقـــة ، وتمضي الصمامات الصفراء في الزيت الساخن ، والجو دافئ ، اما المقصورة في الجؤجؤ فمظلمة كئيبة وباردة تفوح منها رائحـة القدم . وعصفت الريح خارج جدرانها ، وطرطشت الامواج على جانبي الباخرة ، ورنّ الزجاج بعصبية ، وتأرجحت الباخرة . ومضت ببطء وراء النافذة الغابات البنية المغبشة والقرى المسودة بفعل الامطار ، والعوامات – العلامات المتداعية في الماء . وشعر اغييف بالبرد فخرج من المقصورة .

وبعد ان تجول فوق السطح الاسفل الحديدي المضلع ، جلس بالقرب من قسم الآلات قريباً من البوفيه . ولم يكن هذا البوفيه قد افتتح بعد ، بالرغم من انه كان يجري في مطبخ الباخرة طهي سمك البكلا . وفاحت رائحة عفنة كريهة . ووضع اغييف ساقه تحته ملامساً صندوقاً حديديـــاً دافئاً ، واتكأ على قطع خشب البتولا الذي تلمع قشرته الناعمة كحرير الاطلس ، وراح يصغي الى انفاس الماكينات الرتيبة ، وضجيج العجلات المائية خارج الباخرة ، والى لغط المسافرين غير المنتظم . وكما هي الحال دائماً ، لم يسكت ولم يهدأ بعد المسافرون الذين جرى توديعهم منذ فترة قليلة ، وكانوا يصرخون ويمزحون ، بينما كان يسمع صوت عزف على الارمونيكـــا في السطح الآخر ، ووقع الاقدام الشديد فوق حديده ، والصرخات : إيه ! إيه !

وكان يجري عند الغلايـــة الكبيرة اعداد الشاي في اقداح وبرادات الشاي والركاب يحتسونه وهم يقضمون قوالب الخبز جالسين فوق الصرر والحقائب مباشرة ، في دفء ، متطلعين بهدوء الى البحيرة التي كانت الرياح تطارد فيها موجة سوداء مضطربة .

وكانت النساء منهمكات في لف مناديل الراس وتمشيط شعورهن ، اما الاولاد فكانوا يلعبون ويهرولون ويتشاجرون .

اضيئت المصابيح بنور اصفر تحت اغطيتها المغبشة ، وصار الجو اكثر قتامة وبرودة في الخارج . وادار اغييف عينيه بكسل وتفحص ما حوله . الاروقة مزدحمـــة باكوام اكياس البطاطس والسلال وبراميل الخيار المخلل وبالات ما ، كما كان الركاب من السكان المحليين المسافرين الى بلدة ما مثل مالايا غوبا ، واحاديثهم ايضا تدور عن الشئون المحلية ، عن الماشية وعن الاوامر والقرارات الجديدة والحموات وصيد السمك ومؤسسات استثمار الغابات والطقس .

وفكر اغييف في قرارته : «لا بأس ! . . يوم واحد فقط . وهناك جزيرة وبيت ما وهدوء ووحدة . . . لا بأس !»

في نهاية المطاف فتح البوفيه ، وعلى الفور جاءت فيكا ودنت من اغييف . ونظرت اليه بحزن وابتسمت ثم سألت :

– هل تريد ان تشرب يا مسكين ؟ فاذهب واشرب !

ذهب اغييف وجلب ربع قنينة وقطعة خبز وخيارات . وجلست فيكا على الصندوق ايضاً وقابلت نظراته الحانية القلقة وجلس اغييف الى جانبها وفتح غطاء القنينة وشرب وقضـــم خيارة ، متحسساً كيف تحسن مزاجه ، ونظر الى فيكا بشيء من الحيوية والانشراح .

وقال متمتماً :

– كلي .

وبدأت فيكا تاكل ايضاً .

وسألته بعد هنيهة :

– فسر لي ، ماذا بك ؟

شرب اغييف جرعة اخرى واستغرق في التأمل . ثم اولـــع سيجارة ونظر الى حذاء فيكا «الشمواه» المتدلي .

فقال بهدوء :

– مجرد انني اشعر بالحزن ، يا شيخة . مجرد انني عديم الموهبة واحمق . انني ارسم ، وارسم ويقول الجميع : ليس هكذا . . . وليس بهذه الصورة . . . فكيف ؟ انها عدم نضوج

النظرة الى الحياة ! الاتجاه المضطرب ، الغريب عن الشعب ! . . كما لو ان الشعب اجمع يقف وراء ظهورهم ، ويؤيد كلامهم مستحسناً ، ها ؟

وقالت فيكا بحنان :

– احمق .

ثم ضحكت فجأة وامالت راسها على كتفه .

فاحت من شعرها رائحة مرة وغامضة ، ومسح اغييف خده بشعرها واغمض عينيه .

وعلى حين غرة اصبحت قريبة وعزيزة لديه . وتذكر كيف قبّلها اول مرة في موسكو ، في ممر بشقة حين كانا في ضيافة احد معارفه من الرسامين . وكان يومذاك سكران ومنشرح الصدر وكانت مندهشة ووديعة وقد تبادلا الحديث طويلا في المطبخ . بالاحرى كان يتحدث هو اليها عن كونه عبقرياً ، بينما الآخرون جميعاً – تافهون ! وبعد ذلك ولجا الغرفة . فقبّلها في الممر وقال انه مغرم بها بقوة . ولم تصدّقه . لكن احتبست انفاسها واصطبغ وجهها بالحمرة ، واصابت عيناها غشاوة ، والتوت شفتاها ، وانطلقت في الحديث مع الفتيات اللواتي كن هناك ، بينما لم تلق نظرة عليه بعد هذا ! كما اقترب هو من الشبان ، وصار ينظر ويتحدث عن الرسوم وكان هو وفيكا في غرفتين مختلفتين . وانغمرت فيكا في الثرثرة والضحك مع صديقاتها ، ومع كل من يلج الغرفة ويغادرها ، واعتملها طوال الوقت احساس بانها سعيدة ، لانه كان يجلس في مقعد في الغرفة الاخرى ، ويتحدث مع احد ما ايضا . وقد اعترفت له بهذا فيما بعد .

نعم ، شيء جميل ان يتذكر المرء في مكان ما من الشمال امسية قريبة ، لكنها ولت الى الابد . ومعنى هذا ان لديهما تاريخهما المشترك . فهما لا يحبان احدهما الآخر حباً حقيقياً ، ولا يربطهما اي قيد ، ويلتقيان من كان تربطه بهما علاقة سابقاً ، ولا يعرفان بعد الليالى ، ويجهل احدهما الآخر ، لكن لهما ماضيهما .

قال اغييف :

– حقاً ، وبجد ! انني فكرت هنا طويلا في حياتي . اتعرفين أن حياتي هنا تعيسة بدونك ، فالمطر ينهمر ، ولا يوجد مكان

اتوجه اليه ، فاجلس في غرفتي او في المطعم بحالة سكر وافكر . انا تعبت . حين كنت طالباً ظننت بانني ساقلب كل شيء ، وسأصرع الجميع بلوحاتي ، واتوجه في رحلات ، واعيش وسط الصخور . مثلما كان يحيا المشرّد جوجان . لكن عندما جاء وقت اعداد الدبلوم بدات الحملة ضدي . وصاروا يقولون هاجر الكلام في حقي وانني وغد . وصاروا يلقون عليّ – الكلاب – المواعظ ، دون ان يكفوا عن ذلك وكلما مضت الأيام ساءت الاحوال أكثر . فوصفوني بانني تجريدي وواقعي جديد وشكلي ومنحرف عن الطريق السوّي . . . مهلاً !

وابتعد قليلاً عن فيكا وشرب جرعة اخرى . وكان وجع راسه قد زال ، واراد الكلام والتفكير والجلوس هكذا طويلاً ، لأن فيكا كانت الى جانبه وتصغى اليه . ونظر اغييف اليها بطرفي عينيه – كان وجهها ينم عن الحيوية والجد ، وعيناها طويلتين وسوداوين تحت سدل الرموش ، أما شفتاها فخشنتين ، واشتد وجيب قلب اغييف . ورفعت فيكا ساقيها تماماً الى أعلى الصندوق ، وفكت ازرار المعطف ، واعتمدت بذقنها على ركبتيها ، واخذت ترنو الى وجه اغييف من الأسفل .

قالت :

– وجهك لا ينم عن المعافاة – ، ومست ذقنه ، – فانت غير حليق وغدوت أسود السحنة تماماً .

فابتسم ساخراً :

– انني لا أعرف الطمانينة لشيء ما .

وصار يتطلع الى البحيرة .

– انني لا أكف عن التفكير في فان جوج وفي نفسي . وهل يتعين علي أن أنفق لكي يتحدث الناس عني بجد ؟ وهل من المعقول أن ألواني ورسومي وشخوصي أسوأ مما لدى هؤلاء الاكاديميين . لقد سئمت .

قالت فيكا بسرعة ، كما لو جاء هذا بالنسبة :

– الاكاديميون لا يعترفون بك .

– هكذا إذن . انا أعرف . لانهم اذا ما اعترفوا بي –

فمعنى ذلك الاعتراف بأنهم كانوا طوال حياتهم لا يفعلون الشيء الصحيح .

– آه ! – وصمت اغييف واولع سيجارة ، ودخن طويلاً ، متطلعاً الى ما تحت قدمين ، مدلكاً وجهه الشاحب . وكان الشعر في ذقنه يولد حفيفاً لدى ملامسه أصابعه . وقال : – ثلاثة أعوام ! وأنا ارضى بتصوير الكتب والمجلات من أجل كسب النقود . ثلاثة أعوام منذ أن أنهيت المعهد ، فبينما يحسدني شتى أصناف التافهين : آه ، المجد ، آه ، اوربا تعرف . . . بلهاء . ما لهم يحسدونني ؟ لكوني أمنح كل لوحة عصارة فؤادي . . . ولا يوجد لدى استديو حتى الآن ؟ ارسم الربيع – فيقال ليس هو الربيع المطلوب ! فهذا الربيع بيولوجي على حد زعمهم . آه . ولا يسمح بعرض لوحاتي في المعارض ، بسبب معارضة اللجان . وعندما سمح لي بعرض لوحة ما ، غير مهمة ، ساءت الأمور أكثر . النقاد ! انهم يكثرون من الصراخ عن المعاصرة ، بينما هم يفهمون المعاصرة بشكل حقير . وما أكثر كذبهم ، واية ديماغوجية تكمن وراء الكلمات الصائبة !

وسألت فيكا بتأمل : – ولم ترد كلمة حق واحدة عنك ؟ – فشحب وجه اغييف :

– انت ! ايتها الطالبة الصغيرة ! أنت ما زلت بعيدة عنهم ، ولم تصطدمي بهم ، فلديك الكتب ودروس المادية الديالكتيكية والتطبيق . . . أما هم – فحين يقولون الانسان – فلا بد ، أن يضيفوا الى هذا صنعة – بكل معنى الكلمة – ويتراءى امام ابصارهم الثاقبة الانسان باكمله – الانسان وآلاف الاعوام والفضاء ! انهم لا يفكرون بانسان واحد ، ويجب أن تقدم لهم الملايين . انهم يتوارون وراء الملايين ، أما نحن – الذين نفعل شيئاً ما – فنحن بالنسبة لهم بمثابة متحذلقين . . . ومتصنعين روحياً ! ذلكم هم نحن . المواضيع البطولية ! – وتلفظ اغييف هذا بنفور وضحك . – الجماهير ! تلكم هي الجماهير – وأشار اغييف الى المسافرين – وأنا أحبهم ، وأنا أمقت ابداء الاعجاب والتأليه المفتعل لهم . انني أحبهم كما هم – بأياديهم وعيونهم ! لا نهم يحملون عبء الأرض . وفي هذا تكمن القضية كلها . ولئن

كان كل فرد طيباً فمعنى ذلك أن المجتمع طيب . هذا ما اقوله لك ! اننى افكر في هذا ليلاً ونهاراً ، ان وضعي سيئ ، ولا توجد لدي طلبيات ولا نقود ، ليأخذها الشيطان ، هذا لا يهمني . لكنني مع ذلك على حق ، ودعهم لا يلقون عليّ المواعظ . فان الحياة تعلمني – أما فيما يتعلق بالتفاؤل والايمان بالمستقبل وبهذه الجماهير ذاتها ، فلدي منها أكثر مما لدى هؤلاء النقاد بمائة مرة !

وتحشرج صوت اغييف وانفرج منخراه واصابت عيناه غشاوة من الذهول .

قالت فيكا بصوت خافت :

– لا حاجة للشرب . . .

وتطلعت اليه بتوسل من الاسفل الى الأعلى ورجاها اغييف بحشرجة :

– مهلاً . ماذا جرى لي ، هل هو الربو أم ماذا ؟ اننى لا أستطيع ابداً التنفس بطلاقة .

واعاد اشعال عقب السيجارة المنطفأ ، لكنه بعد أن سحب نفساً أخذ يسعل ، ورمى العقب ، وانزل ساقه وداس عليه . ورنا الى فيكا وعبس .

– دعيني ، سأذهب للنوم ! – وتجهم غاضباً ونزل من الصندوق ومضى الى القمرة .

وفيما كانا يتبادلان الحديث تم تشغيل التدفئة في الباخرة ، وساد الدفء في القمرة ، وغطيت زجاج النافذة الغشاوة ، وجلس اغييف عند النافذة ، ومسح الزجاج بكمّه ، وصار جفنه الايسر يرتجف . كان خلاصه لحظتئذ يكمن في فيكا ، وكان يعرف هذا . لكن ثمة شيئا فيها يثير غيظه . فقد جاءت نضرة وجميلة وعاشقة – آه ، يا للشيطان ! لماذا ، لماذا يتعين علي حتما اثبات شيء ما ؟ ولمن ؟ لها ! وأغلب الظن أن ساقيها تنوآن بحملها من الانفعال ، وقلبها يتجمد ، حين جاءت الي – وكانت تفكر في الليلة الاولى ، وفيه ، وارادت الالتصاق به ، هو الشيطان السكير . أي ، أي ، أي ! كان سيحدث هذا لو وافقته هي فوراً على ما يقول ، واكدت قائلة : «نعم ، أنت على حق» .

ساعتئذ كنت ساجن فرحاً ، ولاخذتها الى الخلجان ، والى كوخ ، ولاجلستها عند نافذته الصغيرة ، أما أنا فكنت ساتخذ مكاني أمام الجنفاص . ان وجهها دقيق ، بعينين واسعتين وملوح بالشمس ، ولوضعتْ هي قبضة يدها تحت ذقنها . . . ربما انني كنت سارسم لوحة لا نظير لها في حياتي كلها ! اي ، اي ، اي !

بدأ في خلع ملابسه ، وشعر بالشفقة البالغة على نفسه وبالوحدة . «لا بأس» – فكر في دخيلة نفسه . – «انها ليست أول مرة» وحتى ارتجف بكل كيانه حين تذكر ما قاله لها . يجب السكوت ، وممارسة العمل .

صعد الى الرف الاعلى بعد أن خلع ملابسه ، واستدار نحو الجدار ، وتململ طويلاً فوق غطاء الوسادة المنشى الاملس ، ساعياً الى الاستلقاء في وضعية مريحة أكثر ، بيد أنه لم يفلح في هذا أبداً .

اقتربت الباخرة من الجزيرة مساء . وتوهجت أنوار الغسق الوديعة خابية وبعيدة ، وزحف الظلام ، ومضت الباخرة عبر مضايق كثيرة . وتراءت الكنيسة القاتمة الكثيرة الابراج التي لها هيئة خيام ، وفيما كانت الباخرة تقترب من الجزيرة ، أخذت الكنيسة تتنقل ذات اليمين وذات الشمال ، وفي احدى المرات أضحت في المؤخرة .

ارتسمت على محيا فيكا علائم الأصرار والاستياء . بينما كان اغييف يصفر وينظر بلا مبالاة حواليه ، نحو الجزر المسطحة ، والقرى ، ويتفرس بشيء من الاهتمام في الزوارق الفخمة الشبيهة بمراكب «الفارياغ» .

عندما دنوا من الجزيرة تماماً ، تراءت الطاحونة الهوائية والعزبة القديمة الرائعة الجمال ومباني المستودعات – وكلها خاوية وراسخة وتستخدم كمتحف . فابتسم اغييف بسخرية .

وتمتم :

– انها بالذات من أجلي .

ثم نظر الى فيكا بحنق مشوب بالمرح .

– بالذات في الخط الامامي للخط السباعية ، ها ؟

لزمت فيكا الصمت . وكان محياها عندئذ ذاهلاً ، وبدا كما لو انها جاءت الى هناك لوحدها ، وكما لو أن هذا كله كان مرسوماً ومقرراً منذ وقت بعيد ، ولا بد وان يحدث .

لم ينزل أحد الى هذه الجزيرة فيما عداهما الاثنين ، ولم يكن هناك أحد في المرسى الخشبي المكشوف ، سوى الحارسة حاملة فانوساً مشتعلاً ، بالرغم من أن المكان كان يسوده الضوء في تلك اللحظة .

وابتسم اغييف ساخراً مرة أخرى ، لدى نزوله على المرسى الخشبى الرطب :

– هكذا ، نحن الآن مثل آدم وحواء!

ومرة أخرى لم تنبس فيكا بكلمة في الرد عليه .

وظهرت امرأة على الضفة ترتدي جاكتة لباد وجزمتين . وقد ابتسمت من بعيد . وصاحت بمرح :

– اثنان فقط .

وهرعت للقائهما ، وهي تنقل نظراتها من اغييف الى فيكا . وعندما اقتربت تناولت حقيبة فيكا ، وبدأت بالكلام – بدا وكأنها كانت تنتظرهما منذ وقت بعيد . – الحمد لله ! – قالت هذا بسرعة وبلطف ، صاعدة الى أعلى الشاطئ . – بينما كنت أفكر بأن لا أحد سيأتي في هذا العام ، وانتهى كل شيء . واعتزمتُ الاستعداد لتمضية الشتاء . وها انتما جئتما . لنذهب الى فندقنا .

فسأل اغييف بصوته النشاز :

– الى الفندق ؟

ضحكت صاحبة النزل .

– ان الجميع يدهشون ، بينما أنا أعيش هنا للعام الثاني . كان معي زوجي لكنه توفي ، وأصبحت لوحدي . فندق – من أجل الأدلاّء والرسامين . في الصيف يأتي عدد كبير منهم . انهم يعيشون هنا ويرسمون .

وتذكر اغييف سأمه في الفندق ، وتنهد ، وقطب جبينه . كان يريد أن يعيش في كوخ ، في منزل صغير ما ، حيث تفوح رائحة البقر والحظائر والعلية . لكن تبين أن الفندق انيق ونظيف .

وكان هناك موقد في المطبخ ، وثلاث غرف جميعها خالية ، كما كانت هناك ايضاً غرفة غريبة : ففي الوسط أعمدة منقوشة بزخارف روسية قديمة تسند السقف ، ونوافذ حديثة كبيرة تمتد على طول الجدران وحتى الارضية من ثلاث جهات ، وكانها صالة زجاجية . وفي جميع الغرفة اسرّة خالية بدون حشيات ودواليب عارية وخشنة .

استقر اغييف وفيكا في غرفة ذات موقد تطل نوافذها على الجهة الجنوبية . وعلقت على الجدران لوحات مائية باطارات . وحدق اغييف فيها ولوى شفته . وكانت اللوحات المائية من عمل الطلاب ، ونفّذت بهمة واجتهاد . وبدت فيها جميعاً الكنيسة او الطاحونة . وبدأت صاحبة النزل بجلب الشراشف والوسائد واغطيتها الى الغرفة . وفاحت الرائحة الطيبة للبياضات النظيفة .

وقالت ببشاشة :

– حسناً ! هل جئتما لفترة طويلة ؟ انني اشعر بالوحشة . في الصيف ، الامور طيبة ، فهناك الرسامون المرحون ، أما الآن فوحدي في الجزيرة كلها .

– وكيف ندبر امر الطعام هنا ؟

فردت صاحبة النزل بابتهاج من مكان ما في الممر :

– لن تضيعا ، في الطرف الثاني للجزيرة لدينا قرية ، وهناك يمكن شراء الحليب او شيء ما . . . كما يوجد متجر في جزيرة-بوغ ، ويمكن الوصول اليها بالزورق . من اين أنتما ، من لينينغراد ؟

قالت فيكا :

– لا ، من موسكو .

– حسناً ، فان جميع القادمين الينا من لينينغراد . لديّ خشب وقود وحطب والواح . في الصيف الماضي جرى ترميم الكنيسة وبقيت مواد كثيرة . كما توجد لدي مفاتيح الكنيسة ، وحين ترغبان ابلغاني وسأفتحها . – انصرفت صاحبة النزل ، واستلقت فيكا على السرير بتعب ممزوج بالسعادة .

وقالت :

– لا ، انا لا أستطيع ، ما كنت لأتصور هذا . انه شيء

رائع ، يا عزيزي آدم ، هذا شيء رائع ! هل تحب البطاطس المقلية ؟

همهم اغييف ، ولوى شفتيه وخرج ، ومشى صامتاً حول المقبرة المحيطة بالكنيسة . وادلهم الظلام وعندما مضى اغييف من الجانب الشرقي ، انتصبت الكنيسة بهيكلها المهيب فوقه ، وتراءت السماء بين ابراجها وابواع برج الأجراس . وغرد طيران اثنان في مكانين متفرقين تغريداً رتيباً متواصلاً . وانبعثت الرائحة القوية للعشب وبرد الخريف .

وفكر اغييف : «هاهي نهاية العالم !» ، عندما مر بالكنيسة على ساحل البحيرة ، ثم نزل الى المرسى ، وجلس على الوتد ، وراح يرنو الى الغرب . وكانت توجد جزيرة اخرى على مسافة نحو مائتي متر – انها منخفضة ونمت فيه أحراش الصفصاف وخاوية تماماً . وهناك جزيرة اخرى وراءها ، ويبدو أن فيها قرية : فقد ومض نور عابر عبر الاحراش . وبعد هنيهة سمع صوت عال لزورق ذي محرك من تلك الجهة ، ولم يخمد هديره فترة طويلة ، ثم توقف فجأة ، بعد أن فرقع عدة مرات .

احس اغييف بالوحدة ، لكنه واصل الجلوس ، مدخناً واخذاً في اعتياد السكون والرائحة النقية لطراوة الخريف والماء مفكراً في نفسه وفي لوحاته ، وكيف انه المسيح المنتظر . . . والرسام العظيم ، وهاهو يجلس وحيداً في مكان ناءٍ ، بينما يعيش مختلف أصناف النقاد بموسكو ، في شارع غوركي ، ويجلسون الآن مع الفتيات في المطاعم ويشربون الكونياك ويتناولون الفراخ المشوية ويمسحون أفواههم الملطخة بالزيت ويرددون مختلف الكلمات الجميلة السامية والفخمة ، وكل ما فيهم زائف ، لانهم لا يفكرون بأشياء سامية بل في كيفية مضاجعة تلك الفتيات . وفي الصباح يكتب هؤلاء المقالات عنه ، وهم يزيلون خمار الامس باحتساء القهوة وقطرات علاج القلب ، فيكذبون مرة اخرى ، لان ما من احد منهم يصدق ما يكتبه ، بل يفكر فقط بالمبلغ الذي سيتقاضاه مقابل ذلك ، ولم يجلس أحد منهم ابداً وحيداً هكذا مثله ، فوق وتد رطب ، ولم يرنو الى الجزيرة المعتمة المقفرة ، استعداداً لاجتراح مأثرة ابداعية .

أثارت هذه الافكار المرارة واللذة لدى أغييف ، وكانت فيها حلاوة لاذعة ما ، وكان يحب التفكير هكذا ، وغالباً ما يفكر على هذه الصورة .

ومرة اخرى صارت تعاوده فكرة السكر ، وتذكر اللحن العاطفي للعجوز من اوبرا «سيدة السباتي» ، ان هذه الموسيقى المترعة بالموت ، حالما بدأ يسمعها في قرارة نفسه ، مع الاوركسترا كاملاً ، ومع الايقاع البائس لالات الكلارنيت والفاغوت ، ووقفاتها المضنية ، اخذت تثير الفزع في نفسه لانها كانت نذير الموت .

وفجأة اعتملته رغبة شديدة في استنشاق جرعة هواء ، وبأن يتشمم رائحة الشاي – وليس المغلي ، وليس في قدح ، بل رائحة الشاي الجاف . وعلى الفور تذكر من طفولته علبة شاي بهيئة كوخ مصنوعة من الزجاج المغبّش ، ونقش عليها منظر ساخر ، وكم كان يحلم في العيش في كوخ ذي سقف أحمر ، وكيف كانت أمه تفتح العلبة وتسكب فيها الشاي ذا الحفيف الخفيف ، وكم كانت الروائح تنبعث لحظتئذ وتمتلئ العلبة التي تشبه بلونها حجر الاوبال الضبابي ويغدو لونها قاتماً .

وفي اللحظة نفسها تذكر أمه ايضاً ، وحبها له ، وبدت حياتها باجمعها وكأنها تذوب فيه ومن أجله . كما تذكر نفسه – كان سريع الحركة ، شديد الحيوية ، بنوبات فرح وجذل بلا سبب ، حتى انه لا يصدق الآن باحتمال ان يكون على هذه الحال أيامذاك .

وصار يفكر بألم متأخر كيف كان في غالب الاحيان فظاً في معاملة أمه ، وقليل العناية بها وغير مرهف الحس معها ، وكيف كان غالباً ما لا يريد سماع احاديثها عن ايام الطفولة ، وعن زمان مضى منذ أمد بعيد وزال ، حين كان بميسوره الاصغاء لها الى حين ، وكيف كان غالباً ما لا يقدر ولا يفهم ، لطيشه الصبياني ، ذلك الحب المستمر الذي لم يشعر به من بعد من قبل اي أحد في حياته كلها ابداً . وبعد ان تذكر هذا كله ، صار فوراً يتشكك في نفسه ، ويفكر ، لربما ان نقاده جميعاً على حق ، وانه ليس على حق ! ويفعل ما لا ينبغي فعله أبداً ! كان يعتقد

ان حياته بأسرها كانت تعوزها فكرة اساسية ما – فكرة باسمى مغزى لها ، وانه في احيان كثيرة جداً كان يبدي اللامبالاة والفتور والغطرسة ، في موهبته ، ازاء كل ما لا يخص حياته وموهبته . وحدث ذلك في مثل ذلك الزمان .

واستعاد في ذاكرته بحنق عاجز جميع مجادلاته منذ ايام الدراسة – مع الرسامين ومع الباحثين الفنيين ومع جميع من لم يتقبل لوحاته وخطوطه والوانه . وكان يعتقد حينئذ انه يخفق في اقناعهم والحاق الهزيمة بهم واثبات رسالته الرفيعة لكونه بدون فكرة تلهمه ، واي نبي بدون فكرة سامية !

وجلس هكذا فترة طويلة وسمع كيف خرجت فيكا من البيت ، ومضت قليلاً نحو الساحل فوق الدرب الخشبي ، ووقفت متطلعة الى ما حولها ، وناداته بصوت خافت فلم يرد ولم يتحرك ، بينما كان يحبها عندئذ ، ويخفق قلبه لدى التفكير فيها ! هو وهي مثل آدم وحواء في جزيرة معتمة وخاوية ، لوحدهما مع النجوم والمياه . انها لم تأت فحسب ، بل لا بد وانها أحست بالوحشة الشديدة في غرفة الفندق لوحدها ، حين سكر وتركها !

دهمته مشاعر الغربة المريرة ، والانفصال عن العالم ، ولم يرغب في معرفة اي شيء واي احد . وتذكر ان الوحوش المريضة تتوارى عن الانظار وتمضي الى الاماكن النائية وتعالج نفسها هناك باعشاب غامضة ما ، او تموت . فأسف على ان الجو الآن خريفي وبارد ، وانه في جزمتين وكنزة صوفية ، والا كان قد وجد ركناً في هذه الجزيرة او غيرها ، حيث تتوفر الصخور والرمال والمياه الرائقة ، ولاستلقى هناك تحت الشمس طوال النهار دون ان يفكر في شيء ، ولمشى حافي القدمين ، ولاصطاد السمك ، وتطلع الى الغروب . وشعر بانه تعب للغاية ، تعب من نفسه ، ومن الافكار ، ومن الشكوك التي تتاكل قلبه ، ومن السكر ، وبانه مريض تماماً .

«كم أتمنى لو أسافر الى الجنوب ، الى البحر . . .» . فكر بهذا بكآبة ونهض . وعندما غادر المرسى ، واستدار مبتعداً عن البحيرة ، رأى مجدداً الكنيسة القديمة الكبيرة . والفندق الصغير الرابض بالقرب منها . كانت الانوار مضاءة جيداً في الفندق ، بينما

كانت الكنيسة معتمة ، ومنغلقة وغريبة عليه . لكن ثمة شيئا ما فيها ينم عن التسلط ،. ويبعث على التفكير في الشعب الاصيل وفي التاريخ – وكذلك في الطمأنينة والانفراد بالذات ايضاً .

«سيج-بوجوست» تذكر اغييف اسم الجزيرة والكنيسة . «سيج-بوجوست» . واقترب من المبنى وصعد الى الشرفة ووقف محدقاً ساعياً الى ان يدرك في الظلمة ما كان يعيش على مدى قرون عديدة حياته الخاصة بدونه – الحياة الحقيقية للارض والماء والبشر . لكنه لم يقدر على روية شيء باستثناء اللمعان الخابي لكتل المياه حواليه ، وباستثناء الشظايا ، المتألقة تألقاً كونياً ، من السماء فى الفراغات بين السحب . وحينئذ دخل المنزل .

كانت الغرفة مضاءة بفانوس كيروسين ، وينبعث من الموقد طنين وطرطقة ، وفاحت رائحة البطاطس المقلية . وانهمكت فيكا في الاعمال المنزلية وقد احمرت سحنتها ، واتخذت الغرفة مظهراً ظريفاً ومأهولاً : ففي كل شيء – في البلوزات والفساتين المعلقة والملقاة على السرير والقفاقيز السود على الدولاب الصغير وفي علبة البودرة ذات المحبس السحاب – تحسس وجود امرأة شابة هناك ، وفاحت رائحة العطور .

سالت فيكا بلهجة ممطوطة ورفعت حاجبيها وانزلتهما :

– اين كنت ؟ لقد بحثت عنك .

صمت اغييف وتوجه الى المطبخ للاغتسال . وحدق في المطبخ بعض الوقت لحيته غير الحليقة ، وفكر ولم يحلق بل اغتسل فقط ، وهو يجلجل بارتياح بالمغسلة ، ومسح جسده بمنشفة دافئة موبرة ، وعاد الى الغرفة واستلقى على السرير ووضع ساقيه بالجزمتين فوق الظهر ، وتمطى واشعل سيجارة .

قالت فيكا :

– اجلس وكل .

اكلا صامتين . وبدا واضحاً ان المكان حاز على اعجاب فيكا كثيراً ، لكن ثمة امر مزعج واحد هو – أغييف . وهسهست الغلاية وصفرت في الموقد . وفجأة سأل اغييف :

– هل ان اجازتك طويلة ؟

– عشرة ايام ، – قالت فيكا واطلقت زفرة – ولماذا ؟

– هكذا . . .

وفكر اغييف – «لقد انصرمت ثلاثة ايام منها» . ثم صمتا مرة اخرى فترة طويلة . وبعد ان شربا الشاي تهيئا للرقاد . واصطبغ وجه فيكا بحمرة قانية وتطلعت نحو اغييف بقنوط . فابعد ناظريه وعبس . ثم نهض وبدأ يدخن وتوجه الى النافذة . وقد اصطبغ وجهه بالحمرة ايضا ، وكان مبتهجا لكون فيكا لا تراه . وسمع خلفه صوت حفيف وخرخشة شيء ما ، وفي نهاية المطاف لم تطق فيكا صبرا ورجته بتوسل :

– اطفأ النور .

وبعد مضى نحو عشرين دقيقة ، لم يستسلما الى النوم ، بسرعة ورقد على سريره ، وانقلب باتجاه الجدار . وفكر في قرارة نفسه «فقط حاولي المجيء اليّ» . لكن فيكا لم تأت ، بل رقدتْ وجمدتْ ساكنة ، وحتى لم يسمع صوت انفاسها .

وبعد مضى نحو عشرين دقيقة ، لم يستسلما الى النوم ، وكانا كلاهما يعرفان هذا ، وخيّم الظلام الدامس على الغرفة ، وتراءت السماء الكالحة من النافذة ، وهبت الرياح في الخارج . وفجأة اضيئت الستارة على النافذة للحظة خاطفة . وفكر اغييف ان احداً ما وجه اشعة مصباح جيب على جدار المنزل والستارة ، لكن بعد ثلاث او اربع دقائق تردد هزيم الرعد .

وقالت فيكا بصوت خافت : – انها عاصفة رعدية ، – وجلست تحدق في الغرفة المظلمة – عاصفة رعدية خريفية .

ومرة أخرى ومض البرق وهدر الرعد ، ثم سكنت الرياح ، وعلى الفور انهمر مطر شديد ، ودندن المرزاب .

فقالت فيكا : – مطر ! انا احب المطر ! انا احب التأمل حين يتساقط المطر !

– هل بوسعك ان تسكتي ؟

واولع اغييف سيجارة وغمز بعينيه . واحس بسخونة عينيه .

قالت فيكا :

– حسنا ، انني سأرحل . – واحس اغييف بمدى كرهها له . – سأرحل في اول باخرة . انت أناني فحسب . انني كنت اواصل التفكير في هذين اليومين . مَنْ انت ؟ مَنْ ؟ وماذا يدور

في راسك ؟ والآن اعرف بانك أناني . انت تتحدث عن الشعب وعن الفن بينما تفكر بنفسك . ليس بأحد ، بل بنفسك . ولست بحاجة الى أحد ، فظيع ! لماذا دعوتني ، لماذا ؟ انا اعرف الآن : للموافقة على كل ما تقول وتفعل ، وملاطفتك ، اليس كذلك ؟ لا ، يا عزيزي ، ابحث عن حمقاء أخرى . انا الآن اشعر بالخزي ، كيف ذهبت الى مكتب العمادة ، وكذبت عليهم زاعمة ان ابي مريض . . .

كانت فيكا تتنفس بصوت عال .

قال اغييف بكآبة ، مدركا ان كل شيء قد انتهى :

– اسكتي ياحمقاء . اخرجي ، وارحلي ، وابتعدي من هنا !

ونهض اغييف ، وجلس عند النافذة ، واستند بمرفقيه على الدولاب الصغير ، وكان المطر مازال ينهمر ، ورأى تحت النافذة شيئا كبيرا متارجحاً ، وحدق اغييف طويلا وفكر حتى ادرك بانها بركة ماء . واحس برغبة في البكاء ، وبالغمز بعينيه وبمسح دموعه بكمه كما في ايام الطفولة ، لكنه بات عاجزا عن البكاء منذ وقت طويل .

رقدت فيكا ، ودفنت راسها في الوسادة وصارت تنتحب وتشهق ، فيما جلس اغييف دونما حركة ، ضاغطاً بيده عقب السجاير واعواد الثقاب في المنفضة . في البداية بدا له كل شيء فظيعا ومقيتا ويبعث على عـــدم الاكتراث . وحتى صار يشعر بالغثيان . اما الآن فقد مضت هذه المشاعر ، وتراءى له انه غدا اسمى ، ونبذ جميع صغائر الامور ، وصار يشفق على الجميع ، وغدا هادئاً لانه تحسس بان كتلة البشر جميعاً لاتقهر . ومع ذلك كان كل شيء في اعماق نفسه يفور ويغلي ، ويساوره شعور بالغيظ والالم ، وليس بميسوره السكوت ، وليس بميسوره الابتسام متسامحاً او قول لفظته «آه» على ذلك العالم باسره ، ووجب عليه قول شيء ما . لكنه لم يقل شيئا ، وفكر ، بالرغم من انه في الواقع لم يفكر في شيء ، بل جلس في هدوء محدقاً الى ماوراء النافذة نحو بركة الماء القاتمة المترجرجة . وكان ثمة شيء يغني ويطن في اعماقه ، كما في اثناء المرض ، ابان ارتفاع درجـــة الحرارة ، ورأى امامه صفاً لا حصر له من المشاهدين الذين مضوا

صامتين في القاعات ، ودوّن على وجوههم شيء ما غامض ، وغير مفهوم ومحزن . واوقف بصره في اعماقه على هذا الامر المحزن وفكر : «لماذا هو محزن . انني لا افكر بصورة سليمة» ، لكنه انصرف عن ذلك على الفور وصار يفكر في الاسمى بل والاسمى جدا والاكثر سموا كما بدا له .

وفكر ان عليه مع هذا عمل ما يجب عمله ، وليس بمقدور احد ايقافه ، وان هذا سيحسب له فيما بعد .

ونهض ودون ان يرتدي ملابسه ، والاوردة منتفخة على صدغيه ، وخرج الى الشرفة . وقف على الشرفة وراح يبصق ، فلامر ما كان فمه مملوءا باللعاب الحلو ، وكان لا يني يتجمع في فمه ، فواصل البصاق ، بينما اصابته غصة ما في بلعومه وصارت تخنقه .

ودمدم بهدوء :

– انتهى كل شيء . الى الشيطان ! انتهى كل شيء !

امضى اغييف نهار اليوم التالي كله راقدا ووجهه الى الجدار . وكان يغفو ويستيقظ ويسمع كيف كانت فيكا تمشي في الغرفة وحول المنزل . ودعته لتناول طعام الافطار والغداء ، لكنه بقي راقدا وقد كزّ على اسنانه بغيظ ودون ان يفتح عينيه ، حتى غاص في غفوة اخرى .

لكن لدى حلول المساء صار من المستحيل الرقاد ، واحس بوجع في جسده ، فنهض . لم تكن فيكا هناك ، واتجه اغييف الى صاحبة النزل ورجاها قائلا :

– اعطني يا عمتي مفتـــاح الزورق . يجب ان اذهب الى المخزن لشراء سجاير . . .

فسلمته صاحبة النزل المفتاح وابلغته اين يؤخذ المجذافان ، واشارت له الى الجهة التي يجب عليه اتباعها .

كانت الرياح تهب على وجه اغييف ، والمجذافان ثقيلين وغير مريحين ، كما كان الزورق ثقيلاً ، ورغم جمال منظره . ولحق اغييف في سلخ جلد راحتي يده حتى بلغ الجزيرة الاخرى .

اشترى السجائر وزجاجة فودكا ومازّة ، ثم قفل راجعاً الى المرسى . كان يسير وسط روضة رطبـــة ، حين لحق به صياد

سمك قصير القامة اعوج الساقين من الاهالي المحليين ، يرتدي قبعة شتوية ، ووجهه احمر .

– مرحبا ، يا أخي . – قال الصياد بعد ان لحق باغييف ، واخذ يتفرس فيه . – انت رسام ؟ من سيج – بوجوست ؟ – وكان الصياد يحمل لفافات من ورق الجرائد بيديه بحذر . وتدلت من جيبي معطف اللباد قنينتا فودكا . – اننا نحتفل اليوم ، بعد الحمام . – قال هذا بسرور ، كما لو انهما من المعارف القدماء – لنشرب قبيل السفر . – وخطا صياد السمك متأرجحا في مشيته نحو قاربه ذي السقف الاخضر الساطع فوق المحرك المعلق . ووضع اللفافات هناك ، واستخرج القناني ، وتبين ان عددها اربع – فهناك اثنتان ايضا في جيبي السروال ، فوضع ثلاث قناني بحذر على القماش المشمع ، بينما فتح قنينة واحدة على الفور ، ووجد بعد البحث وعاءا زجاجيا وغسله خارج الزورق وصب الفودكا الى اغييف . فشرب اغييف على الفور وصار يتناول البسكويت كمازة . وصب الصياد لنفسه وصعد الى المرسى . وقال بمرح :

– لنتعارف . هل انت هنا منذ وقت طويل ؟

– جئت بالامس . – قال اغييف ذلك متفرسا في الصياد بتلذذ .

وسأل الصياد وغمز :

– هل سترسم الكنيسة ؟

– سأرسم ما سيعجبني .

– وإلا فتعال الينا في الفريق ! – عرض صياد السمك وقد بدت عليه علائم السكر بسرعة . – هل لديك امرأة ؟ ان النساء عندنا . . . . – ومد الصياد ذراعيه منفرجتين حتى سعتهما . – هل فهمت ؟ سترسمهن جميعا ، هل فهمت ؟

وخطا الى داخل الزورق مرة أخرى ، واستخرج القنينة التى بقي فيها شيء من الفودكا ، وصب الى اغييف مرة اخرى .

– لنشرب ؟

– لدي قنينتي .

قال اغييف ، واخرج قنينته أيضا .

– سنشرب قنينتك حين تأتي الينا . ان موضعنا ليس

ببعيد ، يكفي ان تبلّغنا وسناتي لاخذك بالزورق ذي المحرك . نحن نحب الرسامين ، هم شباب اخيار . لقد عاش عندنا بروفسور من لينينغراد ، وقال انه لم يلق اناسا مثل اهل قريتنا في حياته كلها .

– وضحك الصياد – وسنطعمك حساء السمك . اتعرف سمكة سيج ؟ الحياة عندنا بهيجة ، واذا ما بدأت الفتيات بالقهقهة فانهن يواصلن ذلك طوال الليل ، ان حياتنا مرحة .

وسأل اغييف مبتسماً :

– واين تصطادون ؟

– نحن نصطاد عند جزيرة كيجما . لكن لا تخف ، سناتي نحن لاصطحابك . اما اذا فكرت بالمجيء لوحدك ، فاسأل عن فريق ستيبانوف . وهو انا . ستيبانوف – فهمت ؟ وحالما تخرج من سالما توجه يساراً بمحاذاة المنارة ، فسترى جزيرة وعندئذ توجه اليها . وهناك سيبلغونك .

وقال اغييف بسرور :

– سآتي حتماً .

– حسناً ، حسناً . تعال ! هل انت تحترمني ؟ كانسان ، ها ؟ اذن ، كل شيء على ما يرام ، على ما يرام . . . اتفقنا ؟ على ما يرام ! وداعاً الى حين ، انا ذاهب . الشباب ينتظرون . . .

ونزل الى زورقه وفك رباطه ودفعه ثم شغّل المحرك . وصدر ازيز رفيع عن المحرك ، واندفع الصياد نحو المقدمة لكن المقدمة ارتفعت عاليا مع هذا ، ووجه الصياد الزورق بتحريك الدفة بحبل نحو المياه العميقة وانطلق مخلفاً وراءه قوساً ذا زبد ابيض في الماء .

وجلس اغييف فى زورقه ضاحكا ، واتجه فى طريق العودة وكان عندئذ يجلس ووجهه نحو الغرب ، وكان بلا ارادته يتوقف وينال قسطاً من الراحة ويتطلع الى الالوان في الماء والسماء . وفي منتصف الطريق الى سيج – بوجوست توجد جزيرة صغيرة ، وحين التف اغييف حولها هدأت الريح ، واتخذت صفحة الماء هيئة ذهب ثقيل ساكن .

ووضع اغييف المجذافين ورنا الى الكنيسة في وسط السكون

التام وانعدام الريح . وانبثقت من الشرق ، كجدار اسود تقريباً ، غيمة تبشر بسقوط المطر ، بينما القت الشمس من الغرب آخر نور لها ، وبدا كل ما اضاءته – الجزيرة والكنيسة والبيت القديم والطاحونة – بالنسبة الى الغيمة مصطبغاً بحمرة تنذر بالسوء – وتساقط المطر بعيدا في الافق ، من حيث جاءت الغيمة ، وهناك اضاء قوس قزح هائل كئيب .

جلس اغييف في وضعية مريحة اكثر في الزورق ، وشرب اكثر وصار يأكل المازة ويتطلع الى الكنيسة . وغربت الشمس وزحفت الغيوم ، وغطت كل شيء تقريباً . واقترب المطر ، وبدأ بالتساقط فوق سيج – بوجوست . وتحرك الزورق بشكل لا يكاد يلاحظ مع التيار . لكن كل شيء حول اغييف ما برح هادئاً وساكناً ، فيما توهجت السماء في الغرب . وانداحت منطقة عريضة قانية ضبابية حول الشمس الغاربة .

رنا اغييف الى الكنيسة واراد ان يرسمها . وفكر ، ان لها من العمر ليس ثلثمائة عام ، بل اكثر بما لا يقاس . وانها قديمة قدم الأرض والصخور . كما لم يفارق راسه بعد الصياد المرح ، واراد اغييف ان يرسم صورته ايضاً .

وعندما التفت نحو الغرب ، كانت الشمس قد افلت ، وتساقط المطر في نهاية المطاف . ومد اغييف الطرطور فوق راسه وامسك بالمجذافين . ولامر ما كان المطر دافئاً كبير القطرات ومرحاً ، وتقافز السمك بعنف حين اعمل المجذافين .

حين بلغ اغييف المرسى بكل سرعة رأى فيكا . كانت تقف تحت المطر بلا حراك ، وقد ارتدت معطف مطر شفافاً يغطي راسها ، وصارت تنظر الى كيف يرسو اغييف ويضع القفل على الزورق ، وكيف يحمل المجذافين وحقيبة المشتريات ، وكيف يدس القنينة المفتوحة في جيبه .

«انظري ، انظري !» – فكر اغييف بمرح ، وتوجه نحو الفندق صامتاً .

وبقيت فيكا على المرسى . انها لم تلتفت الى اغييف ، وصارت ترنو الى البحيرة ، والى المغيب تحت المطر .

عندما ولج اغييف الغرفة الدافئة رأى ان حاجيات فيكا قد

أزيلت وانتصبت حقيبتها عند العتبة . «ا – ا» – قال اغييف واستلقى على السرير . كان المطر يدق على السقف . وسرى في روح اغييف بعد شرب الفودكا شعور من الارتياح وعدم الاكتراث ، فاغمض عينيه واستسلم للنوم . واستيقظ بعد فترة قصيرة وقبل ان تخلولك السماء ، كان المطر قد توقف ، وصفيت السماء ، وتالقت عاليا ببرودة . تثاءب اغييف ومضى الى صاحبة النزل ، فاخذ منها مفتاح الكنيسة ، وولج الى ما وراء الحاجز الخشبي الذي يحيط بالمقبرة ، ومشى بين القبور القديمة ، وفتح باب برج الاجراس ، واخذ يتسلق السلالم الضيقة ذوات الصرير .

فاحت هناك روائح براز غربان الغيض والخشب الجاف . وغمرت العتمة المكان ، لكن كلما صعد اعلى غدا الجو اصفى والهواء انقى . وفي نهاية المطاف بلغ اغييف منصة الاجراس . فجمد قلبه قليلاً ، وضعفت ساقاه من الشعور بالعلو .

بادئ ذي بدء رأى السماء بين الاقواس حين خرج من الفتحة الى المنصة . وكانت السماء في الاعالي مرصعة بغيوم منفوشة متفرقة ، وباولى النجوم الكبيرة ، وفي قرارها يتوهج النور والاشعة الزرقاء للشمس التي غابت منذ فترة طويلة .

وحين تطلع الى الاسفل راى سماءا اخرى ، مترامية الاطراف ومضيئة كالسماء العليا : فان كتلة الماء الهائلة حواليه الممتدة حتى الافق ، كانت في جميع الانحاء تتالق بالنور المنعكس ، وبدت الجزيرات فيها كالغيوم . وقد جلس اغييف فوق العارضة ممسكاً بالعمود بكلتا يديه وبقي على هذه الحالة حتى ارخى الظلام سدله ، وحتى تالقت بكل بريقها اللؤلؤي مجرة ذات الكرسي ، ومن ثم وبعد نزوله مشى فترة طويلة في الدروب حول الكنيسة متطلعاً اليها من هذه الناحية وتلك واطلق التنهدات .

ولدى عودته الى الفندق كانت المدفأة تطقطق مرة أخرى ، وكانت فيكا تعد طعام العشاء . بيد انها كانت هادئة وبعيدة عنه .

سأل اغييف :

– هل ستاتي الباخرة قريباً ؟ هل عرفت ؟

فقالت فيكا بعد هنية صمت :

– اظن في الساعة الحادية عشرة .

ووخزه شيء في اعماق روحه ، وآلمه ، واراد قول شيء ما . والاستفسار . لكنه صمت ، واستخرج من تحت السرير علبة الاصباغ ، وصار يرتب الكارتون وأنابيب الاصباغ وقناني التربنتين فوق رف النافذة وعلى السرير ، ويصنف الفرش ، ويثبت الجنفاص فوق الاطر . وكانت فيكا ترمقه بنظرات تنم عن ذهول .

جلسا يتناولان العشاء صامتين ، كما في المرة الاولى ، وهما ينظران الى احدهما الآخر في العيون . ورأى اغييف شفتي فيكا اليابستين ، ووجهها ، الذى بات فجاة عزيزاً جداً لديه ، ووخزه قلبه مرة اخرى ، وادرك ان لحظة الوداع قد حانت .

واستخرج الفودكا من تحت السرير وصب لنفسه ولفيكا .

وقال بصوت متحشرج وصار يسعل :

– هكذا اذن . . . لنشرب نخب الفراق !

لم تشرب فيكا ، ووضعت القدح على المائدة ، واستلقت على ظهر المقعد ، واخذت وهي مستلقية ، ترمق اغييف من تحت رموشها شبه المغلقة . كان وجهها يرتعش ، وينبض شريان ما في عنقها ، وشفتاها ترتجفان ، ولم يستطع اغييف حتى النظر الى هذا . واحس بالحرّ ، فنهض وفتح النافذة ، والقى نظرة على الخارج واستنشق هواء الليل النقي .

– توقف المطر – قال لدى عودته الى المائدة وشرب قدحاً آخر . – توقف المطر .

سألت فيكا :

– هل تحتاج الى نقود ؟ لديّ نقود تزيد عن الحاجة ، فانني اخذت الكثير ، وكنت افكر – وعضت فيكا شفتها ، وابتسمت ابتسامة بائسة .

فقال اغييف :

– لا ، لا حاجة ، فانني ساكف الآن عن الشرب .

ثم قالت فيكا بمرارة :

– مع هذا انت لست على حق . انت مجرد مريض . اترك الشرب وسيغدو كل شيء على ما يرام .

ابتسم اغييف بسخرية :

– ماذا تقولين ؟ وعلى الفور سيقام لي معرض شخصي ، ها ؟ مرحباً ! – قال ذلك وشرب قدحاً آخر . – وسيدرك الوصوليون انهم ليسوا بفنانين ، اليس كذلك ؟

وسألت فيكا بعد لحظة صمت :

– اين كنت في المساء ؟

– هناك . – ولوح اغييف بيده دون تحديد . – في الأعلى ، عند الرب .

وسألت فيكا مرة اخرى ، محدقة في الاصباغ ، والفرش ، والاطارات المتناثرة في الغرفة :

– هل ستاتي الى موسكو قريباً ؟

تمطى اغييف وتثاءب واستلقى وصار يدخن . كان صدره يتنفس بحرية ، وشعر بوخز في اصابعه كحاله دوما حين يريد العمل .

وقال :

– لا .

وتصور في خياله صيادات السمك اللواتي سيتعرف اليهن ، وسيقانهن ونهودهن . وعيونهن ، وكيف يعملن ، وكيف يكززن بأسنانهن حين يستخرجن الشباك بأذرع حمر .

– اظن بعد شهر ، او بعده . سارسم الصيادين هنا ، والماء ايضاً ، – ولزم الصمت ، – والسماء . وهكذا ، يا شيخة .

خرجت فيكا للاصغاء فيما اذا جاءت الباخرة . وقالت بعد عودتها :

– لا ، لا يزال الوقت مبكراً .

وصارت تتطلع الى المرآه . وبعد التفكير استخرجت منديل الراس من الحقيبة ، ولفت راسها وربطته تحت ذقنها . ثم جلست وضغطت يديها ما بين ركبتيها . كانت تجلس صامتة ،

مطرقة الرأس ، كما لو انها في محطة القطـــار ، وكما لو انها لا تعرف اغييف . كانت افكارها بعيدة في مكان ما . وكان منديلها شفافاً ، وبرزت منه شعـــرات رأسها الذهبية . اما اغييـــف فاستلقى ، متطلعاً اليهـــا بطرف عينيه بفضول ، وهو يدخن بعصبية .

قالت فيكا وتنهدت :

– لا ، لا استطيع اكثر . سأذهب الى المرسى .

ونهضت وتنهدت مرة أخرى ، ونظرت عدة لحظات بالحاح ، ودون ان يرف لها جفن ، الى الفانوس ، ثـــم ارتدت المعطف . وانزل اغييف قدميه من الفراش وجلس .

وقال :

– حسناً غودباي يا شيخة ! هل اودعك ام لا ؟ مضت فيكا الى صاحبة المنزل لاخذ جواز السفر . بينمـــا شرب اغييف بسرعة ، واخذ يرتدي معطفه ، محدقـــاً في يديه المرتجفتين ، ومصغياً الى حديث فيكا مع صاحبة المنزل . ثم حمل الحقيبـــة وخرج الى الشرفة . وكانت الشرفة والسياج والالواح الملقاة في الطريق الى المرسى لا تزال رطبة بسبب المطر الذي هطل منذ قليل . وانتظر اغييف لحين خروج فيكا ، ونـــزل من الشرفة . ومضت فيكا في اثره ماشية فوق الالواح ، واخذت تنقر حذاءها .

حين بلغ اغييف المرسى وضع الحقيبة فجلست فيكا عليهـــا تواً ، وتجمعت على نفسها ، وجمدت بلا حراك . ورجف اغييـــف من البرد ورفع ياقته . وانطلق فجأة في السكون المطبق غير الطبيعي هدير طائرة عال ونشيط . واقترب ، وتعالى ، واشتد . بيـــد انه في الوقت نفسه اصبح اوطأ فاوطأ في النبرة ، واكثر نعومة واختناقاً – كما لو ان احدهم يمرر القوس باستمرار فوق وتر الكونترباص ، ويخفض الملوي شيئاً فشيئاً ، حتى صار في نهاية المطاف ، وهو يزداد طولاً ، يشبه الحفيف الندي والمكتوم .

وساد الصمت المطبق مرة اخرى . وطبطب اغييف في مكانه بالقرب من فيكا ، ثم ابتعد ، وصعد الى الشاطئ ، الى فوق ، ثم تمشى قليلاً نحو الطرف الجنوبي للجزيرة وتلفت حوله .

كانت النجوم تتلألأ فوق الرأس ، اما في الماء فكانت تضيئ

انوار حمراء وبيضاء في الخلجان الضيقة ، وتومض في العوامات والشارات المضيئة وشارات الاتجاه .

وعلى حين غرة انطلـــق في رحاب السماء ما يشبه الآهة – فجفلت النجوم وتململت . واحلولكت السماء ، ثم رجفـــت مرة اخرى وتعالت ، وغمرها ضوء ازرق مرتعش . فالتفت اغييف نحو الشمال وعلى الفـــور رأى مصدر الضوء . اذ كان يندلع وينقبض ويتوهج الشفق القطبي الازرق – الذهبي من وراء الكنيسة ، ومن وراء سوادها الصامت . وعندما توهج اخذ اكل شيء يضيء : الماء والشاطئ والصخور والاعشاب الجللة ، بينما بدت الكنيسة كشبح صلد راسخ . وحين خمد نـــوره – انقبض كل شيء ، وصار غير واضح وضاع في دجنة الليل .

مادت الارض . وفجأة أحس اغييف بقدميه وبقلبه كيف انها تميد به ، وكيف تحلق سوية مـــع البحيرات والمدن والبشر وآمالهم – كما تمادى وحلق الازل الرهيـــب ، الملفع بنور الشفق . وكان هو على هذه الارض ، في الجزيرة ، تحت السماء الصامتة ليلاً . كما انها راحلة عنه . لقد هجرت حواء آدم ، وكان يجب ان يحدث هذا ليس في وقت ما ، بـــل الآن . وكان هذا كالموت ، الذي يجب ان يقف المرء منه بسخرية حين تكون هي بعيدة ، والذي يحتمل التفكير فيه عندما تكون هي الى جانبه .

لم يستطع احتمال ذلـــك ، وهرع مسرعا نحو المرسى ، متحسسا كيف تتبلل جزمتاه بالعشب الرطـــب ، ودون ان يرى شيئاً في العتمة ، لكنه يعلم انهما سوداوان ولامعتان .

حين وصل اغييف الى المرسى ، كان الفانوس الكيروسيني يضيئ فوق العمود ، ووقفت الحارسة في الاسفـــل متثائبة ، وانبثق من وراء الاجمة في الشمال شعاع نور جديد . كان يرتجف ايضاً ، لكن نبضه اكثر دفئاً . كان الشعاع يتحرك ، وتسمـــع الطقطقة المنتظمة للعجلات المائية . وفجأة انطلق صفير الباخرة برنين عال ، وتناقل صداه فترة طويلة من الجزر الاخرى .

سألت فيكا بسرعة ، بصوت خافت :

– هل رأيت الشفق القطبي ؟ لقد كان هـــذا هو ، اليس كذلك ؟

كانت منفعلة ، ولم تعد جالسة على الحقيبة ، بل واقفة بحذاء السياج .

فقال اغييف :

– رايته .

وسعل .

ظهرت الباخرة من وراء الشاطئ ، وغدا صوته مسموعاً اكثر . ولمعت في جؤجؤها بنور ساطع نجيمة من نور البروجكتور . وبلغ نوره عندئذ حتى المرسى . ولمعت الرطوبة على الالواح . واوقفت الباخرة ماكينتها ، وتحركت نحو المرسى تلقائياً . وغطت الحارسة عينيها بيدها لتتقى النور الساطع ، وتفرست في شيء ما على الباخرة . والتفت اغييف مديراً ظهره للنور ، فراى كيف كان ضوء البروجكتور يرتجف كالدخان على مبنى المتحف القديم الجميل .

رست الباخرة ، وتحرك البروجكتور ، وغمر المرسى ضوء حليبي ساطع يغشي الابصار ، ونظر فيكا واغييف صامتين الى كيفية رسو الباخرة . والقى البحار من الباخرة الحبل ذا الانشوطة الى الحارسة . ووضعت الحارسة الانشوطة في الركيزة المعدنية بلا عجلة . وانحنى البحار وشرع في لف الحبل ، فانشد وصرّ ، وارتجف المرسى وتحرك قليلاً . وارتطم جانب الباخرة برفق بالمرسى . ومد البحار السلم الى المرسى . واخذ يتفحص تحت المصباح تذكرة الراكب النازل . واخيراً التفت نحو اغييف وفيكا .

وقال بتردد :

– تفضلا ، هل ستركبان .

فقال اغييف وربت على كتف فيكا كيفما اتفق :

– هيا ، اركبي . رحلة طيبة .

ارتعشت شفتا فيكا .

– وداعاً .

وصعدت السلم الى سطح الباخرة وهي تقرع بعقبي حذاءيها .

كانت الباخرة خالية من الركاب تقريباً . والانوار خابية في

السطح الاسفل ، ونوافذ القمرات مظلمة . فالقمرات اما كانت خالية ، واما كان الركاب قد اخلدوا للنوم . وترددت وشوشة بين جانب الباخرة والمرسى ، وتعالى بخار شفاف .

لم تلتفت فيكا . ومضت فوراً ، واختفت في العمق . وانطلقت بعجلة ثلاث صفارات احداهما طويلة والاخريان قصيرتان ، والقت الحارسة الانشوطة من الركيزة المعدنية ، وسحبت السلالم ، واصطفقت المصاريع على سطح الباخرة ، وصار هذا الكائن الدافئ الظريف المتنفس ، الكائن الحي الوحيد في الليلة الباردة ، يشطف بالعجلات المائية ، واندفع مستديرا نحو اليمين بحدة .

تثاءبت الحارسة مرة اخرى ، وتمتمت قائلة ان الشفق القطبي ومض مبكراً في هذا العام ، وان هذا يدل على ان الشتاء سيكون قارس البرد . وانتزعت الفانوس ومضت الى الشاطئ ، ملقية وراءها بقعة من الضوء ، ومطلية جزمتيها بنور اصفر ، وحاملة الى يسارها ظلاً كبيراً غير منتظم ، كان يتقافز من المرسى والشاطئ الى الماء مع تارجح الفانوس .

وبعد ان اكمل اغييف تدخين سيجارته وتوقف قليلاً توجه الى الفندق . كان الشفق القطبي لا يزال يومض ، ولكن نوره صار ضعيفاً ، وبلون واحد – ابيض .

١٩٦٢

اثنان في ديسمبر



انتظرها طويلاً في محطة القطار . كان الجو بارداً والشمس ساطعة في ذلك اليوم ، وحظي كل شيء باعجابه : كثرة المتزلجين وصرير الثلج المتساقط حديثاً ، والذي لم يزال بعد في موسكو . كما كان معجباً بنفسه : فلديه جزمتا تزلج متينتان ، واجربة صوف طويلة تصل الى الركبتين تقريبا ، وكنزة سميكة موبرة ، وقبعة نمساوية ذات حافة ، لكن اكثر ما كان يعجبه هو الزلاجتان الاسكي . فهما ممتازتان ومطليتان وتم ربطهما بسيور .

انها تأخرت كعادتها ، اما هو فقد كان يغضب منها سابقا ، الا انه اعتاد على الامر ، لان هذه نقطة ضعفها الوحيدة لو قلبنا الذاكرة . اما الآن فكان يراوح ويطبطب قليلاً ، كيلا تتجمد قدماه . وأمال الزلاجتين على الجدار ، وهو يتطلع الى الجهة التي يجب ان تأتي منها . وكان هادئاً . لم يكن مبتهجاً ، لا ، بل هادئاً فحسب . وقد سره ان يفكر بهدوء بان الامور جميعاً على ما يرام في العمل ، وهو يتمتع بحب الآخرين ، وان الاوضاع في البيت على ما يرام ايضا ، وان الشتاء طيب : الجو في ديسمبر يبدو وكأنه في مارس حقيقي – فالشمس ساطعة والثلج يتلألأ – ، والشيء الاساسي ان اموره معها على ما يرام . وانتهت الفترة الصعبة التي شهدت الشجارات والغيرة والريبة

وعدم الثقة والمكالمات التلفونية المفاجئة والسكوت عند سماعة التليفون ، حين لا يسمع المرء سوى الانفاس ، مما يؤلم القلب . الحمد لله ، ان هذا كله قد ولّى ، اما الآن فالامر مختلف – ثمة شعور يتسم بالهدوء والثقة والحنان . ذلكم هو الوضع الآن !

حين جاءت في نهاية الامر ، ورأى وجهها وقوامها عن قرب ، قال فقط :

– ماذا أرى ، هذه انت !

وتناول زلاجتيه ، وساراً بخطوات وئيدة ، لانها كانت بحاجة الى استرجاع انفاسها اذ اسرعت كثيراً واحتبست انفاسها . كانت ترتدي قبعة حمراء ، وتدلت خصلات شعرها على جبينها ، وعيناها السوداوان تضيقان وترتعشان حين تحدق اليه . بينما بدت على أنفها اولى حبات النمش .

تخلف قليلاً لاستخراج النقود من اجل تذكرة القطار ، وتطلع اليها من الخلف ، الى ساقيها ، وفجأة فكر : لكم هي جميلة وانيقة الهندام ، واغلب الظن انها تتأخر لكونها تريد ان تبدو جميلة دائماً . اما خصلات شعرها التي قد تكون وليدة الصدف ، فلربما هي ليست كذلك البتة ، وكم هي رقيقة وحنون !

وقالت حين كان يقتني تذكرتين :

– الشمس ، اي شتاء ، ها ؟ ألم تنس شيئا ؟

فهز رأسه فقط . وتراءى له الآن انه اصطحب معه اكثر مما يجب ، لان حقيبة الظهر كانت ثقيلة .

كانت عربة القطار الكهربائي مزدحمة بسبب حقائب الظهر والزلاجات واللغط فيها كثير . كان الجميع يصرخون وينادون بعضهم البعض ، ويحجزون الاماكن بضجيج ، ويقرقعون بالزلاجات . فيما كانت النوافذ باردة وشفافة وانبعث الدفء الجاف من المواقد تحت المقاعد . وكان من الممتع النظر الى الثلوج التي تغمرها أشعة الشمس وراء النوافذ ، عندما تحرك القطار ، بدأ تسمع طقطقة العجلات من الاسفل بسرعة وبانسياب .

بعد مرور نحو عشرين دقيقة خرج الى منصة العربة للتدخين . ولم يكن هناك زجاج في احد نصفي الباب الخارجي ، وهبت فى المنصة ريح باردة ، وتغطت الجدران والسقف بالصقيع ، وفاحت بشدة رائحة الزمهرير والحديد اما العجلات فكانت هناك لا تطقطق بل تلعلع . والقضبان تهدر .

كان يدخن وينظر عبر الباب الزجاجي الى داخل العربة ، ناقلاً بصره من مقعد الى آخر ، ويساوره شعور من الاشفاق على جميع الركاب ، لانه حسب اعتقاده لن يزجي احد منهم وقته بصورة ممتعة للغاية مثله ، في غضون هذين اليومين . كما تفرس في الفتيات ايضا ، ووجوههن البشوشة ، وفكر فيهن وانفعل قليلاً وبمرارة كحاله دائما حين يرى حسناء فتية تمضي مع احد ما وليس معه . ثم نظر اليها وابتهج اذ راى انها كانت مع هذا بين الشابات والجميلات افضلهن جميعاً . وكانت تتطلع في النافذة ووجهها اربد وعيناها سوداوان ورموشها طويلة .

وصار هو ايضا يتطلع عبر الباب الخالي من الزجاج الى الزمهرير في الخارج ، والى الهواء وضيق عينيه بسبب النور الساطع والريح . ومضت بمحاذاته الأرصفة الخشبية ذات الصرير والمغطاة بالثلج . وكانت توجد احيانا على الارصفة بوفيهات من الخشب المعاكس ، طليت جميعاً باللون الازرق ، وذوات مداخن حديدية في سقوفها ، ويتصاعد منها دخان ازرق . وصار يفكر ، لكم هو جميل الجلوس في بوفيه كهذا ، والاصغاء الى الصفير الرفيع للقطارات الكهربائية المنطلقة بمحاذاتها ، والتدفؤ الى جانب الموقد ، واحتساء قدح من البيرة . وعموماً فما اروع كل شيء : اي شتاء ، واية بهجة ان لديه الآن من يحب ، وان الفتاة التي يحبها تجلس في عربة القطار ، وبميسوره النظر اليها ، ومقابلة نظرة جوابية ! ما اروع هذا — وهو يعرف ذلك : ما اكثر الامسيات التي امضاها وحيداً في البيت ، حين لم تكن هي لديه ، اما كان يتسكع مع صديق في الشوارع على غير هدى ، ويتفلسف ، ويتحدث عن نظرية النسبية وغيرها من الاشياء الظريفة التى تنم عن فطنة ، وحين كان يعود الى البيت يشعر بالكآبة . وحتى قام بنظم الشعر ، وكانت ايامذاك تعجب

صديقه ، لانه كان وحيداً ايضا . اما الآن فقد تزوج صديقه . . .

وفكر بغرابة طبيعة الانسان . فهو حقوقي ، وبلغ سن الثلاثين ، دون ان يفعل شيئاً يستحق الاهتمام ، ولم يخترع شيئاً ، ولم يصبح شاعراً ولا بطلاً ، كما كان يحلم في ايام فتوته . وما اكثر الاسباب التي تدعوه للاسى الآن ، لان حياته غير موفقة ، اما هو فلا يشعر بالاسى . ولا يحزنه ولا يفزعه عمله الاعتيادي ، وعدم تمتعه بالشهرة والمجد . بل بالعكس ، انه الآن هادئ ومطمئن . ويحيا بصورة طبيعية ، كما لو تحققت جميع احلامه .

كان يفكر في شيء واحد فقط ، يشغل باله باستمرار — الافكار بصدد الصيف . فمنذ شهر نوفمبر يبدأ يفكر ويتكهن ويخمن كيف والى اين سيسافر لقضاء اجازته الصيفية القادمة . ان هذه الاجازة تبدو له دائما بلا نهاية ابداً وفى الوقت نفسه قصيرة جداً ، بحيث يجب التفكير في كل شيء مسبقاً ، واختيار اكثر الاماكن تشويقاً ، بغية الا يرتكب خطأ ويكون الامر على افضل حال . وكان هاجسه طوال الشتاء والربيع ان يعرف اين الاستجمام جيد واية طبيعة هناك ، واي بشر ، وكيف يتم الوصول الى هناك ، ولعل هذه الاستفسارات والخطط ربما اكثر متعة من الرحلة والاجازة نفسها .

وهو الآن ايضا يفكر في الصيف ، وفى كيف سيسافر الى جدول ما . وسيأخذان معهما خيمة ، ويأتيان الى هذا الجدول ، وينفخان الزورق ، فيغدو مثل «البيروجا» الهندية . وعندئذ وداعاً يا موسكو والاسفلت ، وجميع الاجراءات ومكتب الاستشارات القانونية !

وعلى الفور تذكر كيف انهما سافرا معاً من موسكو اول مرة . ويومذاك سافرا الى استونيا ، الى مدينة صغيرة كانت له فيها بعض الاعمال ، وكيف استقلا الحافلة ، ووصلا ليلاً الى فالداي . وكان الظلام يخيم على المكان ، سوى مطعم واحد ما زالت الحياة تدب فيه والانوار تنبعث منه ، وكيف شرب قدحاً من فودكا «ستاركا» ، وسكر ، وكان منشرح القلب في الحافلة ، لانها كانت

الى جانبه ، وفي وقت متأخر من الليل كانت تغفو فتميل برأسها عليه . وكيف وصلا عند الفجر ، وبالرغم من ان الوقت هو اواسط اغسطس ، واستمر هطول الامطار بموسكو ، فان الجو هناك كان رائقاً وصافياً ، واشرقت الشمس ، والبيوت بيضاء ، والسقوف قرميدية حمراء مدببة ، والحدائق والبساتين غزيرة ، والمنطقة نائية وهادئة وفي الشوارع تنمو الحشائش المجعدة بين الاحجار .

واستأجرا غرفة نظيفة يغمرها الضوء ، وفي كل مكان – على رفوف النوافذ وتحت السرير وفي الدولاب – كان يحفظ تفاح «انطونوفكا» لينضج ، وتفوح منه رائحة زكية . كما ان السوق هناك غنية ، وكانا يذهبان اليها معاً ويشتريان الشحم المقدد وقطع العسل في خلاياه والزبدة والطماطم والخيار . «ان كل شيء هناك زهيد الثمن بشكل خيالي» . ورائحة معمل الكعك ووكوكة الحمام وخفقان اجنحته . والشيء الاساسي – هي ! انها غير متوقعة ، كما لو لم اعرفها ابداً ، وفي الوقت ذاته انها حبيبة وقريبة الى الفؤاد . واية سعادة غمرتني واظن ستكون سعادة اكبر فقط الا تنشب حرب .

في الاونة الاخيرة صار غالباً ما يفكر في الحرب ، ويبغضها . لكن الآن حين يحدق الى الثلج المتالق ، والى الغابات والحقول . مصغياً الى هدير ورنين القضبان ، صار بكل ثقة يفكر بانه لن تكون هناك اية حرب ، كما لم يكن هناك الموت عموماً . لانه ، وهذا ما فكر به ، ثمة لحظات في الحياة حين لا يستطيع الانسان التفكير بما هو فاجع ، ولا يصدق بوجود الشرّ .

غادرا في محطة بعيدة ، وهما يوشكان ان يكونا الراكبين الوحيدين اليها . وخشخش الثلج تحت وقع اقدامهما ، حين سارا فوق الرصيف .

وقالت هي مرة اخرى مضيقة عينيها :

– اي شتاء ! لم نشهد مثله منذ وقت بعيد !

ووجب عليهما المشي نحو عشرين كيلومتراً من اجل الوصول الى بيته الريفي ، والمبيت هناك ، ثم ممارسة التزلج في النهار ،

والعودة في المساء الى موسكو ، بواسطة طريق سكك حديد اخرى .

وكانت لديه حديقة فواكه صغيرة فيها بيت ريفي صيفي صغير . ويوجد فيه سريران ومنضدة ومقاعد خشنة بلا مساند ومدفأة ألمانية من الحديد الزهر .

ثبت الزلاجتين في جزمتيه وقفز عدة مرات ، وطبطب الثلج بالزلاجتين ، فتصاعدت نتف الثلج ، وفحص زنقتي التثبيت لديها ، ثم مضيا بحركة وئيدة . في البداية ارادا الانطلاق بسرعة من اجل الوصول الى البيت مبكراً ، وتدفئته جيداً ، ونيل قسط من الراحة ، لكن كان من المستحيل التزحلق بسرعة في هذه الحقول والغابات .

– انظر الى جذوع اشجار الحور ، – قالت هي ذلك وتوقفت ، – انها بلون عيون القطط .

وتوقف هو ايضا ، ورنا اليها . صحيح ان اعالي اشجار الحور كانت بلون اصفر تشوبه الخضرة ، تماماً مثل عيون القطط .

وغمرت الغابة اشعة مائلة مضببة . وكان الثلج يتساقط متعلقاً كالبساط بين الجذوع . اما اشجار الشوح التي تخلصت من حمولتها فكانت تؤرجح اغصانها .

وعبرا الاكمة بعد الاكمة وكانا يشاهدان احيانا من فوق قرى بسقوفها البيض . والمواقد مدفأة في جميع البيوت . والدخان يتصاعد من القرى . واعمدة الدخان تتعالى نحو السماء ، ومن ثم تنهار وتتبدد ، وتلف التلال القريبة بغشاوة زرقاء شفافة ، وحتى من مسافة كيلومتر او كيلومترين من القرية تشم رائحة الدخان . واثارت هذه الرائحة الرغبة لديهما في بلوغ البيت بسرعة واشعال النار في الموقد .

واحياناً كانا يعبران الدروب المعفرة بالروث ، والممسوحة حتى اللمعان بعوارض الزحافات ، وبالرغم من ان الوقت هو شهر ديسمبر فكان ثمة شيء يذكر بالربيع في هذه الدروب ، وفي قطع التبن ، وفي الظلال الشفافة الزرقاء بين آثار الزحافات هذه ، وفاحت رائحة الربيع . وحدث مرة ان انطلق خبباً في هذا

الدرب باتجاه القرية حصان اسود . كان شعره يتألق ، وعضلاته ناتئة والجليد والثلج يتطايران من تحت السنابك ، وتسمع طقطقة ونخير . فتوقفا مرة اخرى وتابعاه بانظارهما .

واحيانا كان يحلق زاغ متنرفزاً واشعث ، ثم يعقبه زاغ آخر . وفي مكان بعيد ينقض هابطا عقعق فضولي دون ان يبعد الزاغين من انظاره : لقد عرفا شيئاً ما . ووجب عليهما ايضا النظر اليه . وفي احيان اخرى تتارجح طيور الدغناش وتموء وتنهمك بجد على الاعشاب الجافة البارزة من تحت الثلج . انها تشبه الطيور الاستوائية العجيبة وسط الزمهرير والثلج ، وكانت البذور الجافة تتطاير من مناقيرها العريضة القوية فتتناثر على الثلج كالبساط الطويل .

وفي بعض الاحيان كانا يشاهدان آثار الثعلب ، الذى يمتد من شجيرة الى اخرى ، ومن اكمة الى اكمة ، بصورة منتظمة وفي الوقت نفسه ملتوية . ثم يستدير الاثر ويضيع في الثلج المتوهج . وواصل المتزحلقان طريقهما ولقيا في طريقهما آثار ارانب او سناجيب في احراش الحور والبتولا .

كانت هذه الاثار عن الحياة الغامضة في الليل ، التي تمضي في الحقول المقفرة والغابات الباردة ، تثير شتى الانفعالات في القلب ، وصار يفكر في السماور ليلاً قبيل التوجه للصيد وفي معطف الفراء وبندقية الصيد والنجوم السابحة ببطء واكوام التبن السوداء التي تقيم الارانب الولائم بالقرب منها ليلاً ، وتاتي اليها الثعالب من بعيد ، منتصبة احيانا على ارجلها الخلفية متشممة الهواء بأنوفها . وتصور هدير عيار ناري ، وبريق الضوء ، والصدى الهش والمترجرج وسط التلال ، ونباح الكلاب المستثارة في القرى ، والعينين المتبردتين والمزججتين للارنب المتمدد وانعكاس النجوم في هاتين العينين ، والشارب الغليظ الذي يكسوه الصقيع والثقل الدافئ لجثة الارنب .

كان الثلج في الاسفل في الوديان والاوهاد ، عميقاً وجافاً ، والمشي هناك عسير ، لكن عند منحدرات التلال انبسطت طبقة خفيفة من الجليد المعفرة بنتف الثلج . وكان الصعود والهبوط

فيها يسيراً . ولمعت الغابات بلون وردي فوق التلال البعيدة ، عند الافق ، وبدت السماء زرقاء ، والحقول بلا نهاية .

هكذا واصلا السير صعوداً وهبوطاً ، مع اخذ قسط من الراحة عند الاشجار المقطوعة مبتسمين لاحدهما الآخر . وفي بعض الاحيان كان يمسك بجيدها من الخلف ، ويجذ بها اليه ، ويقبلها بشفتين باردتين لوحتهما الرياح . ولم يكونا يتحادثان الا فيما ندر ، فيقول احدهما للآخر : «انظر» و«اسمعي» .

حقاً كانت حزينة وذاهلة ، وتتخلف عنه دائماً ، لكنه لم يفهم شيئاً معتقداً ان سبب ذلك ما اصابها من تعب . فيتوقف منتظراً إياها ، وحين تلحق به ، وترمقه بشيء من العتاب ، وبتعبير ما غير اعتيادي ، يسألها بحذر فهو يعرف التاثير السيئ الذي تتركه مثل هذه الاسئلة في رفيقته في الرحلة :

– هل انت تعبانة ؟ يمكن ان نرتاح .

فتقول :

– ما هذا الكلام ؟ انا هكذا استغرقت في التأملات .

ويقول هو :

– واضح .

ويواصل المشي ، لكن بحركة ابطأ .

انحدرت الشمس نحو المغيب ، ولم تكن تتالق سوى بعض الحقول فوق قمم التلال . بينما صارت الغابات والوديان والاوهاد منذ فترة بعيدة تغوص في العتمة وتخبو . وواصل المشي شبحان وحيدان في الفضاء الفسيح الاطراف للغابات والحقول – كان يمضي في المقدمة وهي وراءه ، وكان يسره سماع حفيف الثلج تحت زلاجتيها وقرقعة العصوين .

وحدث مرة في الوهج الوردي وراء الغابة ، حيث غابت الشمس ، ان سمع الهدير المنتظم للمحركات ، وبعد لحظة بدت طائرة تحلق على ارتفاع عال . كانت الوحيدة من بين جميع الاشياء تتالق بالنور ، وتتلألأ بقع الشمس فوق جسدها ، وكان جميلاً النظر اليها من الاسفل ، من الهداة الباردة عند المغيب ، وتصور كيف يجلس فيها الركاب ويفكرون في نهاية رحلتهم ، وعن الوصول الى موسكو قريباً ، ومن سيكون في انتظارهم .

وفي نهاية المطاف بلغا مرادهما في غبشة الظلام . وسارا بجزم متجلدة فوق الشرفة الباردة ، وفتحا الباب ، وولجا . كان الظلام الدامس يسود في الغرفة ، وبدا انه اكثر برودة مما في الخارج .

فاستلقيت هي فوراً واغمضت عينيها . وكانت في الطريق قد ازدادت سخونة وتصبب منها العرق ، اما الآن فاخذت تبترد ، وارتجفت من القرّ ، وخافت ان تتحرك . وفتحت عينيها ورات في العتمة السقف اللوحي ، واللهب المتصاعد من زجاج مصباح الكيروسين المغبش ، واغمضت عينيها ، وعلى الفور راحت تسبح وتتعاقب الواحد تلو الاخر الوان الاصفر المائل للخضرة والابيض والازرق والقرمزي – جميع الالوان التي اطالت النظر اليها في خلال اليوم .

استخرج قطع الخشب من تحت الشرفة ، وقرقع قرب الموقد ، وخشخش بالورق ، واوقد النار ، وتاوه ، بينما لم تكن تريد اي شيء . وما شعرت بالسعادة للذهاب معه في هذه المرة .

وتأججت النار في الموقد ، واصبح الجو دافئاً ، وامكن خلع الملابس ، فخلع ملابسه . ونزع جزمتيه والاجربة ، وعلقها بالقرب من الموقد ، وجلس بالقميص الداخلي – وضيق عينيه بارتياح ، وحرك اصابع قدميه الحافيتين ، وصار يدخن .

وسألها :

– هل انت تعبانة ؟ هيا اخلعي ملابسك !

وبالرغم من انها لم تود التحرك ، وارادت الاستسلام للكرى حزناً وكرباً ، فانها مع ذلك اطاعته وخلعت ملابسها . فعلقت ايضا لكي تنشف الجاكتة والاجربة والكنزة ، وبقيت في قميص رجالي مقلم فقط ، وجلست على السرير ، وانزلت كتفيها واخذت تحدق في المصباح .

ودس هو قدميه في الجزمتين ، والقى بالجاكتة على كتفيه ، وتناول الدلو ، الذي صار لدى خروجه الى الشرفة يرن رنيناً عذباً . ولدى عودته وضع الغلاية على الموقد ، وراح يبحث في حقيبة الظهر ، واستخرج كل ما كان هناك ، ووضعه على الطاولة

ورف النافذة .

انتظرت الشاي صامتة ، وسكبت لنفسها قدحاً ثم جلست بهدوء ، واخذت تمضغ الخبز مع الزبدة ، وتدفئ يديها بالقدح الساخن ، وترتشف منه ، وتتطلع الى المصباح باستمرار .

وسألها :

– ما لك صامتة ؟ اي يوم رائع كان ، ها ؟

– نعم . . . أنا تعبانة للغاية اليوم .

ثم نهضت وتمطت دون النظر اليه .

– هيا ، لنذهب الى النوم .

فوافقها بيسر :

– حسناً جداً . انتظري ساضع الخشب في الموقد ، لان البيت بارد جداً .

– سأنام اليوم لوحدي . هل يمكن ان انام هنا بالقرب من الموقد ؟ لا تغضب – وقالت هذا بسرعة واطرقت بعينيها .

فدهش :

– ماذا جرى لك ؟

وتذكر على الفور كل هيئتها الحزينة والمنعزلة في ذلك اليوم . وعندما تذكر هذا ، استشاط حنقاً ، وخفق قلبه بالم .

لقد ادرك فجاة ، انه لا يعرفها البتة – كيف تدرس هناك في جامعتها ، ومن هم معارفها ، وعن اي شيء تتحدث وانها بالنسبة له لغز غامض كما في لقائهما الاول ، ولا يعرفها ، واغلب الظن انه ضيق الافق وفظ بالنسبة لها ، لانه لا يفقه ما تحتاجه ، ولا يستطيع ان يفعل ما يجعلها سعيدة دائماً معه ، ولكي لا تحتاج الى اي شيء او اي احد آخر .

وشعر بالخزي فوراً لاول مرة في ذلك اليوم كله ، من هذا البيت الريفي البائس والموقد ، وحتى من الزمهرير والشمس ، ومن طمأنينته . فلماذا جاءا ، وما الحاجة الى هذا كله ؟ واين تلك السعادة المنشودة واللعينة ؟

فقال بلا اكتراث ، واطلق زفرة :

– حسناً ، ارقدي اينما شئت .

ورقدت هي فوراً دون ان تنظر اليه ودون ان تخلع

ملابسها وغطت جسدها بالجاكتة ، واخذت تنظر الى النار في الموقد ، وانتقل هو الى السرير الآخر ، وجلس ودخن ، ثم اطفأ المصباح ورقد . وغمرته المرارة لانه شعر بانها تفارقه ، وثمة شيء لم يتحقق في سعادتهما ، لكنه لم يعرف ما هو ، وتملكه الحنق .

بعد مرور لحظة سمع صوت نحيبها ، فنهض ونظر اليها عبر الطاولة . وكان نور الموقد يضيء المكان جيداً . وكانت مستلقية على بطنها وتحدق في الخشب المشتعل ، ورأى وجهها التعيس المخضب بالدموع ، وشفتيها المرتعشتين وذقنها المرتجف بشكل بائس وقبيح ، وعينيها المبللتين اللتين كانت تمسحهما بيديها الرقيقتين .

ما الذي جعلها تصبح اليوم فجأة بائسة وتعيسة هكذا ؟ انها نفسها لا تعرف . وكانت تحس فقط ان فترة الحب الاول قد ولت . والآن يحل شيء جديد ما ، وغدت حياتها السابقة غير شيقة . وقد سئمت من وضعها بصفتها لا أحد امام ابويه وجديه وعماته وامام اصدقائه وصديقاتها ، انها ارادت ان تغدو زوجة واماً ، بينما لا يرى هو ذلك ، ويشعر بالسعادة الكاملة لهذا الوضع . لكن كانت تعيسة للغاية ايضا الفترة الاولى المقلقة من غرامهما ، حين كان كل شيء غير واضح ومبهماً جداً ، لكن الشعور غير المعروف كان حاداً ومترعة بالاحساس في الامور الجديدة .

ثم اخذت تستسلم للكرى ، وتراءى لها مجدداً حلمها القديم الذي كانت تغفو معه في كل مرة حين كانت صبية . وذلك انه سيكون قوياً وشجاعاً ويحبها ، وانها تحبه ايضا ، لكنها كانت تقول لسبب ما : «لا» – فسافر الى الشمال بعيداً واصبح صياد سمك ، بينما تعاني هي من العذاب . وراح يمارس الصيد فوق الصخور الساحلية ، ويقفز من صخرة الى اخرى ، ويؤلف الموسيقى ، ويخرج الى عرض البحر لصيد السمك ، ويفكر فيها طوال الوقت . ومرة أدركت ان سعادتها معه فقط فتركت كل شيء وسافرت اليه . وكانت في منتهى الجمال حتى ان الجميع كانوا يغازلونها في الطريق . الطيارون والسائقون

والبحارة . لكنها لم تكن ترى احداً ، وتفكر فيه فقط . ويجب ان يكون اللقاء معه غير اعتيادي الى حد ان من المخيف حتى تصوره . وابتدعت شتى اصناف العقبات بغية ان تبعد تلك اللحظة بشكل ما . وهكذا كانت تغفو عادة دون ان تلقاه .

لقد مضت فترة طويلة دون ان تفكر في حلم كهذا . اما اليوم فانها لسبب ما ارادت ان تحلم مرة اخرى . واليوم ايضا حين وجدت نفسها تركب زورقاً بمحرك اختلطت افكارها ونامت .

استيقظت ليلاً ، حين أحست بالبرد . كان يجلس القرفصاء منهمكا في ايقاد النار في الموقد الذي برد . وبدا وجهه حزيناً ، واحست بالاشفاق عليه .

في الصباح لزما الصمت في البداية ، وتناولا طعام الافطار صامتين وشربا الشاي . لكن بعد هذا اصابهما المرح واخذا الزلاجات ومضيا للتزحلق . فصعدا التلال وهبطا منها ، مختارين الاماكن الاكثر انحداراً وخطورة .

وفي البيت تدفئا ، وتحدثا عن توافه الامور ، وعن الاعمال ، وعن الشتاء الجيد في العام الحالي . وحين ادلهم الظلام ، شدا الرحال واغلقا البيت الريفي وتوجها بالزلاجات الى محطة القطار .

وصلا الى موسكو مساء . واستسلما للنوم في الطريق . لكن حين لاحت المباني الضخمة وصفوف النوافذ المضاءة ، فكر انهما سيفترقان الآن . وفجأة تصورها كزوجة له .

حسناً . لقد مرت فترة الشباب الاولى ، حين يبدو كل شيء بسيطاً وبدون التزام – البيت والزوجة والعائلة وهكذا دواليك ، لقد مرت تلك الفترة . انه الآن قد بلغ سن الثلاثين ، اما الشعور بانه يعرف بانها الى جانبه ، وهي جميلة ، وما الى ذلك ، لكن بوسعك دائماً هجرها ، لكي تجد الحياة ذاتها مع امراة اخرى ، لانك حرّ ، لا توجد اية سعادة كبيرة في مثل هذا الشعور .

وغداً ، سيقضي اليوم كله في مكتب الاستشارة القانونية في كتابة عرائض الاسترحام والطلبات ، والتفكير في مصائب الناس ، ومنها العائلية وبعد ذلك سيعود الى البيت – الى من ؟ ثم يأتي الصيف ، الصيف الطويل ، وشتى الرحلات ، والزورق ،

والخيمة – ومرة اخرى مـــع من ؟ واراد ان يكون افضل واكثر انسانية ، وعمل كل شيء من اجل ان تكون سعيدة .

عندما خرجا الى ساحة محطات القطار ، كانت الانوار مضيئة والمدينة صاخبة ، بينما جرت ازالة الثلج ونقله ، واحســـا ، كليهما ، كما لو ان رحلتهما لم تكن . ولم تكن فترة اليومين التي امضياها معاً ، وان من الواجب عليهما الآن ان يودع احدهما الآخر ، وان يفترقا ليذهب كل واحد منهما الى بيته . وسيلتقيان ربما بعد يومين او ثلاثة . وشعر كل واحد منهمـــا كما لو ان الحياة عادية وهادئة وسهلة ، وافترقا كما كانا يفترقان دائماً بابتسامة عاجلة ، ولم يرافقها الى بيتها .

١٩٦٢

شمعة



غلبتني الكآبة الشديدة في تلك الامسية بقدر جعلني لا ادري اين المهرب منها – ولو شنقت نفسي ! كنا ، انا وانتَ ، لوحدنا في بيتنا الكبير الدافئ والنيّر . وبدا وراء النافذة منذ وقت طويل ظلام نوفمبر ، وهبت الريـــاح بدفقـــات متزايدة ولحظتئذ تاخذ الغابة حول البيت بالعويل في لغط حزين رتيب .

خرجت الى الشرفة لكي ارى في ما اذا يتساقط المطر . . . لم يسقط المطر .

عندئذ ارتدينا الملابس الدافئة وخرجنا للنزهة .

لكني اريد في البداية ان احدثك عن ولعك . ووقتذاك ولعت بشيء واحد : السيارات ! ولم تكن في تلك الايام تفكر باي شيء فيما عدا السيارات . فكانت لديك منهـــا نحو دزينتين – من الشاحنة القلابة الخشبية الكبيرة ، التي كنت تحب ركوبها ، وساقاك متدليتان منها ، فيما ادفعك انا فيها في ارجاء الغرف – حتى السيارات الدقيقة المصنوعة من البلاستيك التي تعادل في حجمها علبة الكبريت . كما انك كنت تنام مع السيارة ، وتسيرها فترة طويلة فوق اللحاف والوسادة حتى تغفو . . .

وهكذا فحين ولجنا العتمة القاتمة لليلة نوفمبر تلك ، كنتَ تمسك بيدك طبعا ، وبقوة ، بسيارة بلاستيكية صغيرة .

ومضينا ببطء ، ونحن لا نكاد نجد طريقنا ، وتوجهنا الى

البوابة . وكانت الشجيرات على الجانبين ، المائلة بشدة تحت ثقل الثلج الذي تساقط مؤخراً ، ثم ذاب ، تمس وجوهنا وايدينا . وذكّرتنا هذه الملامسة بزمن لن يعود الينا الى الابد حين تفتحت فيها الزهور ، وكانت مبللة صباحاً بقطرات الطلّ .

ولما حاذينا المبنى الآخر ، حيث يوجد الجاراج ، هرعتَ فجأة الى الجاراج وتعلّقتَ بالقفل ، وقلتَ :

– تريد ركوب سيارة حقيقية !

وعارضتُه قائلا :

– ماذا تقول ، ياحبيبي ، هذا غير ممكن . الوقت متأخر الآن ، وعما قريب سيحل موعد النوم . . . وبعد ذلك ، الى اين نذهب ؟

– نذهب ، نذهب – واخذتَ تتوقف في الكلام لاختيار المكان الذي يمكن الذهاب اليه – الى موسكو .

– ولماذا موسكو ، وما حاجتنا الى موسكو ! هناك ضجيج ورطوبة ، ثم انها بعيدة جداً .

وعارضتَ انت :

– تريد الذهاب بعيداً !

ووافقتك :

– حسناً ، سنذهب ، لكن بعد ثلاثة ايام فقط . الا انني اعدك باننا سنذهب غدا الى المتجر . اما الآن فقد خرجنا للتنزه فقط ! هات يدك . . .

وقد تنهدتَ طائعاً ووضعتَ في يدي يدك الصغيرة الدافئة .

عندما خرجنا من البوابة ، وبعد التفكير هنيهة ، توجهنا نحو اليمين . ومضيت انت في المقدمة ، مركزاً انتباهك كله على سيارتك الصغيرة ، وحدستُ من حركاتك التي لا تبين بوضوح في الظلام بانك تسيرها تارة على هذا الكم وتارة اخرى على ذاك . واحياناً لا تطيق صبراً فتجلس القرفصاء وتسيّر سيارتك عندئذ فوق الطريق .

الى اين والى اية اصقاع ساحرة سافرت في خيالك ؟ وقد توقفتُ منتظراً ، حتى تنتهي طريقك البعيدة التي لا تراها بصيرتي ، ومتى تصل الى مكان ما ، بينما نواصل نزهتنا .

وسألتك :

– اسمع ، هل تحب انت اواخر الخريف ؟

واجبت انت بصورة عفوية :

– تحب .

وقلتُ :

– اما انا فلا احبه . كم انني لا احب هذه العتمة ، وهذا الغروب المبكر ، والفجر المتأخر ، والأيام الرمادية ! كل شيء يذبل كالعشب ، ويوارى الثرى . . . أتفهم عمّ اتحدث ؟

واجبت انت على التو :

– تفهم .

– ايه يا صغيري ، انت لا تفهم شيئاً . . . كان هناك الصيف منذ فترة وجيزة ، وكان الفجر يضيء بنور تشوبه الخضرة طوال الليل ، اما الشمس فكانت تشرق وماتكاد الساعة تعلن الرابعة صباحاً . وبدا كما لو ان الصيف سيتواصل الى الابد ، بيد انه كان يقصر ويقصر . . . وادبر كاللحظة ، وكنبضة القلب . بالمناسبة ، انه كان كاللحظة الخاطفة بالنسبة لي فقط . فكلما يغدو الانسان اكبر سناً تصبح ايامه اقصر وتنتظره قتامة اكثر فزعاً ورهبة . لربما بالنسبة لك ان هذا الصيف كان بمثابة حياة كاملة ؟ كما ان بداية الخريف حسنة ايضا : فالشمس تضيء بهدوء ، والضباب يسود في الصباح ، والزجاج في البيت يتضبب ، وما احلى وريقات الاسفندان بالقرب من بيتنا . واية وريقات حمراء قانية جمعنا ، انا وانت !

اما الآن فالتربة سوداء ، ومات كل شيء ، والنور رحل ، ولكم اود ان اهتف متوسلاً : لاتتركني ، لان المصيبة قادمة ، وليس هناك من ينجدني ! أتفهم !

ولقد لزمتَ الصمت ، منطلقاً الى مكان ما بسيارتك . مبتعداً عني كالنجمة . فمضيت بعيداً جداً ، حتى اننا حين وجب ان ننعطف في الطريق ، واستدرت انا ، لم تفعل هذا انت . فلحقت بك . وامسكت بك من كتفك وادرتك ، وسرت ورائي طائعاً : فالامر سواء بالنسبة لك الى اين تذهب ، لانك لم تكن تسير بل تنطلق راكباً !

واردفتْ قائلا :

– بالمناسبة ، لا تلق بالاً الي ، فان الكآبة تتسلط علي فحسب في مثل هذه الليالي . اما في واقع الحال ، يا صغيري ، فكل شيء على هذه الارض رائع – ونوفمبر ايضا ! ان نوفمبر – كالانسان ، الذي ينام . وماذا لو ساد الظلام والبرد والموت – ان هذا يبدو ظاهرياً فحسب ، اما في الواقع فكل شيء يحيا .

–وستعرف في وقت من الاوقات ما اجمل المشي تحت المطر ، بجزمتين ، فيْ اواخر الخريف ، واية روائح تنبعث ايامذاك ، واية جذوع مبللة تكون للاشجار ، وكيف تتنقل بين الاغصان باجتهاد الطيور ، الباقية لقضاء الشتاء عندنا . انتظر ، سنصنع علبة طعام لها تحت النافذة وستاتي اليك شتى اصناف طيور الزمير ونقار الخشب . . .

اما فيما يخص كون الاشجار تبدو اليوم ميتة ، فهذا مجرد شيء ناجم عن كآبتي ، اما في الواقع فهي حيّة ، انها في سبات .

ومن اين لنا ان نعرف سبب كآبتنا هذه في نوفمبر ؟ ولماذا نتعطش بهذه الصورة الى ارتياد الحفلات الموسيقية ، والزيارة بعضاً لبعض ، ولماذا نحب بهذا القدر الانوار والمصابيح ؟ لربما كان البشر قبل مليون سنة خلت يقضون الشتاء في سبات ايضاً ، كما تفعل هذا الدببة والغرائر والقنافذ الآن ، بينما نحن لا نكون في سبات ؟

وعموما ، ان العتمة ليست بلية من البلايا ! فلدينا واياك بيت دافئ ونور ، وحين نعود سنوقد النار في المدافئ وسنتطلع الى اللهيب . . .

وعلى حين غرة بدا كما لو ان فارة تعدو فوق كمي ، ومن ثم فوق ظهري ، وبعد ذلك فوق الكم الآخر – كنت انت تنطلق بسيارتك فوق معطفي الجلدي ، وبعد ان قطعت مسافة ما صورها لك خيالك ، انطلقت مرة اخرى الى الامام .

وتابعت الحديث مجدداً :

– لا بأس ، عما قريب سيبقى الثلج بلا ذوبان ، وسيغدو الجو وضاءاً اكثر بفعل الثلج ، وعندئذ سنتزحلق انا واياك باروع صورة بالزحافة . وتوجد بالقرب منا قرية غليبوفو ،

وسنذهب اليها . هناك مرتفعات جيدة ، خصيصاً من اجلك ، وعندئذ ستلبس معطف الفراء وجزمتي اللباد ، ولن يغدو ممكناً الخروج الى الفناء بدون قفافيز ، بينما ستعود الى البيت معفّراً بالثلج ، وتدخل اليه متورد الوجنتين بالزمهرير . . .

إلتفتْ وبدا عبر الاشجار العارية بيتنا وحده يضيئ بنوافذه في الظلام الدامس . وكان اهـــل البيوت الريفية المجاورة قد غادروها الى المدينة منذ فترة طويلة ، وكانت احياناً وتبدو كاليتامى والاموات وتعكس بزجاجها نور مصابيح الشارع القليلة والخابية .

وقلتْ فجاة ، بصورة غير متوقعة بالنسبة لي نفسي :

– انت انسان محظوظ يا اليوشا ، ان يوجد لديك بيت ! اوتعرف يا صغيري ، انـــه لشيء حسن ان يكون لديك بيت شببت فيه وترعرعت . فهذا يبقى على مدى الحياة . . . وليس عبثاً ان يقـــال : بيت الآباء ! حتى لا اعرف لمـــاذا هو ليس «بيت الامهات» مثلا ؟ ماذا تعتقد ؟ ربما لان البيوت يشيدها او يشتريها منذ غابر الازمان الرجال والاباء ؟

اذن ، ياعزيزي ، لديك بيتك ، بينما انا . . . لم يكن لدي ابداً بيت الاباء ، يا صغيري . وما اكثر الاماكن التي عشتْ فيها ! وما اكثر البيوت التي قضيت فيها ايامي – في اكواخ عمال انارة العوامات وفي اكواخ عمال الغابات وفي بيوت لا تصل جدرانها الفاصلـــة الى السقف ، وفي بيوت كانت بدون مداخن للمدافئ ، وفي بيوت قديمة جيدة ، كان يوجد فيهـــا الخزف وآلة بيانو كبيرة ومواقد ، وحتى عشت في القصور القديمة ، قصور حقيقية – يرجع عهدها الى القرون الوسطى ، في فرنسا البعيدة ، بالقرب من سان رفائيل !

وهناك تقف ، ياصاحبي ، في الزوايا وعلى السلالم هياكل بدروع وخوذات ، وتتدلى على الجدران السيوف والرماح ، التي كان الصليبيون يحملونها في حملاتهـــم وغزواتهم ، وبدلا من الارضيات الخشبية توجد الواح حجرية ، اما الموقد في الصالة فهو من الضخامة بحيث يمكن ان يشوى فيه ثور كامل ، وحولها

خنادق عميقة ، وكذلك جسر معلّق بسلاسل ، وتقوم ابراج في الزوايا ! . .

وقد وجب عليّ مغادرتها جميعا ، بغية الا اعود الى هناك ابداً . . . هذا مؤلم ، يا ابني ، مؤلم ، حين لا يوجد لديك «بيت الاباء» !

وحدث ان سافرت في احد الايام بصحبة رفيق في المركب ، في نهر اوكا الرائع . (مهلاً ، يا عزيزي ، حين ستشب سآخذك الى اوكا ، وعندئذ سترى بنفسك اي نهر هو !) وقد سافرنا الى بيت رفيقي الذي غاب عنه طوال العام . ولم يبق على بلوغنا البيت سوى حوالي خمسة عشر كيلومترا ، بينما كان صاحبي يقف عند جؤجؤ الباخرة ويعد قويريني كل شيء ويحدثني قائلاً : هنا كنت اصطاد السمك مع ابي ، وهناك توجد تلة ما ، وهنا يصب رافد ما ، وهناك توجد وهدة ما . . .

وكان الوقت آنذاك ربيعاً ، وبدأت الفيضانات ، ولم يتم وضع ارصفة المراسي بعد . لذا فاننا حين وصلنا وقف مركبنا وقد غرز مقدمته في الضفة . وانزل السلم ، وهبطنا الى الضفة حيث كان ينتظر والد رفيقي ، وكذلك عربة قُرِنَ اليها حصان . . .

انك تنطلق في سيارتك بلا توقف ولا تدري ان ركوب العربة افضل بكثير من هذا ، او في زحافة ، في دروب الغابة او عبر الحقول ، فتتطلع حواليك وتفكر في شيء ما ، وانت في اتم ارتياح لانك تشعر بكل روحك ان كل ما حولك هو وطنك !

ووضعنا جميع اكياسنا وحقائبنا في العربة بينما مشينا نحن عبر اجمة فوق المنحدر ، في غابة ربيعية شفافة ، وكلما اقتربنا من البيت ازداد انفعال صاحبي .

وكيف لا ؟ فان البيت هذا شيده جد رفيقي ، وعاش فيه ابوه وامه طوال حياتهما . كما ان رفيقي ولد وترعرع فيه .

وحالما ولجنا هذا البيت ، حتى اختفى رفيقي فوراً في لحظة خاطفة . لقد ذهب لمشاهدة الغرف ، ولالقاء التحية على البيت . وكان لديه ما يتبادل معه التحيات ! فهذا البيت لم يكن كبيتنا ، ولذا لم يكن عبثاً ان سمي «بالعزبة – المتحف» .

وما اكثر ما وجد فيه من الاشياء الظريفة القديمة . وما اكثر ما يوجد فيه من الدواوين ذوات الارجل الملتوية وما اكثر المقاعد المزخرفة بالنقوش وما اكثر اللوحات الرائعة المعلقة على الجدران ، وبدت مناظر طبيعية بهيجة وحزينة من نوافذه ! وكم كانت غرفه متباينة : مضيئة ذات نوافذ ضخمة ، وضيقة وطويلة تظللها الاشجار ، وصغيرة جداً ذوات سقوف واطئة ! واية نوافذ هناك – كبيرة وصغيرة وبزجاج ملون في اعلاها وباشكال غير متوقعة تشبه تارة نوافذ القصور الاقطاعية المزينة بتماثيل ، وتارة اخرى الكوى الضيقة والمزاغل . . . وتوجد بين الغرف والممرات والاروقة المسدودة والطارمات ودواليب ورفوف تحت السقف وسلالم ذوات اسيجة غامقة اللون ودرجات متآكلة . وكل شيء هناك مترع بروائح زكية قديمة ، ولا يفهم – هل هي رائحة زعتر قطف في زمان من قبل فتاة رومانتيكية حالمة ما ، ام رائحة الكتب القديمة التي رقدت على مدى قرن كامل في الخزانات ، فاصفر ورقها وغدت جلودها واوراقها جافة ، ام رائحة تلك السلالم والاسيجة والاثاث والعوارض المصنوعة من خشب البلوط والارضية الخشبية التي غدت رقيقة لكثرة المشي فوقها .

لا تتصور ، يا صغيري ، ان البيوت والاشياء التي صنعها الانسان لا تعرف ولا تتذكر شيئاً . وانها لا تعيش ، ولا تبتهج ، ولاتلعب بفرح ، ولا تبكي للمصيبة . فما اقل ما نعرف نحن عنها ، وكم نبدي احياناً لامبالاة وحتى السخرية حيالها : ما قيمة هذه الاشياء العتيقة !

كذلك حالك ، فانت ستترك في يوم ما بيت الاباء ، وتفترق عنه طويلا ، وترى الكثير جداً ، وتزور الاقطار والامصار ، وتصبح انساناً آخر تماماً ، وتعرف الكثير من الخير والشر . . .

لكن سيحين الاوان ، وتعود الى بيتك القديم ، وتصعد الى الشرفة ، ويشتد خفقان قلبك ، وتشعر بغصّة في حلقك ، وتترقرق الدموع في عينيك ، وتسمع الخطوات الخفيفة لامك العجوز ، اما انا فاكون عندئذ ، وعلى اغلب الظن ، قد فارقت هذه الدنيا – وسيقبلك البيت في كنفه ، وستهب عليك الروائح

المألوفة لديك منذالطفولة ، وستبتسم غرفه اليك ، وكل نافذة ستغريك بالمجيء اليها ، وسيناديك في دولاب الاواني القدح المحبوب لديك ، وستدق الساعة برنين على الاخص في لحظة السعادة ، ويفتح البيت ابوابه على مصراعيها امامك : «هذه عليتي ، وهذه غرفتي ، وهذا الرواق الذي كنت تحب الاختباء فيه . . . او تذكر ورق الجدران هذا ؟ او ترى المسمار الذي دققته انت في الجدار في يوم ما ؟ آه ، انا سعيد برجوعك الى هنا ثانية . ولا يهم انك اصبحت كبيراً هكذا . المعذرة ، انني كبرت منذ زمن بعيد حين بنيت ، اما الآن فانا اعيش فحسب . لكنني اتذكرك ، واحبك ، فعش في كنفي ، وعد الى طفولتك !» — هذا ما سيقوله بيتك لك .

لكم آسف انا احياناً لكوني ولدت بموسكو ، وليس في القرية ، في بيت ابي او جدي . انني كنت عندئذ سأذهب الى هناك ، واعود اليه في الضراء ام في السراء ، كما يعود الطير الى عشه .

وصدقني ، يا صغيري ، لم يكن مضحكاً ابداً حين حدثني احد الاصدقاء عن الحرب ، وعن كيف كان يقفز من الدبابة لكي يعدو مهاجماً — وكان من رجال الانزال — والجميع حوله يصرخون : «من اجل الوطن !» وهو ايضا يصرخ مع الجميع : «من اجل الوطن !» اما هو فكان يرى ، ربما في آخر لحظات حياته على هذه الارض ، ليس الوطن عموماً بل بيت الاباء والعنبر ومخزن الاعلاف والسياج والجرن في القرية لوبشينغا على ساحل البحر الابيض !

وهكذا لدى تبادل الاحاديث المختلفة تحولنا ، انا واياك ، منعطفين في الدرب الذي لا يكاد يرى في الغابة ، التي تمتد هابطة نحو الجدول الصغير ياسنوشكا . وعندئذ احلولكت الدنيا الى حد انني لم اعد اراك تقريباً . ومرة اخرى عثرت على يدك الرقيقة .

عندما بلغنا الجدول ، لم نمض ابعد ، بغية الا نعبر في الظلام الجسور الصغيرة الضيقة الزلقة .

كان الماء يجري في الاسفل فوق الحصى ، والرياح تمس

احياناً قمم اشجار البتولا والشوح ، فتأخذ بالحفيف بصوت قادم من بعيد . وبعد ان استنشقت عدة مرات الرائحة المرّة للارض الرطبة والاوراق الساقطة قر عزمي على التدخين — فاطلقتُ يدك .

بدا لي لهيب عود الكبريت شديداً يغشي البصر حتى اولعت السيجارة ، وبعد مضي لحظات على ذلك كانت تتالق امام عيني بقع برتقالية .

وعندما انزلت يدي لكي الامس كتفك ، وامسك مرة اخرى بيدك الرقيقة ، واعيدك باتجاه البيت ، لم تكن الى جانبي !

وصحت :

— اليوشا .

فلم ترد .

وبعد لحظة تذكرت انك غالباً ما لا ترد على النداء حين تنهمك في اللعب !

وتصورت في لحظة خاطفة فسحة غابة مشمسة في اغسطس ، امضيت فيها قرابة الساعة امشي زاحفاً لكي اقطف الفطر ، وانا التفت بين حين وآخر نحوك : اين انت ؟ فيما لم تفكر انت في غضون هذه الساعة مرة واحدة بي ، ولم تهرع اليّ ، بل مشيت فوق الاجمة بحثا عن اكبر الجذامير لكي تسيّر فوقها سيارتك .

انني جمدت رعباً متصوراً كيف انك ستمضي في هذه العتمة لدى انشغالك بسيارتك اكثر فاكثر في اعماق الغابة . علما ان المنطقة حولنا لا توجد فيها سوى بيوت ريفية خاوية ، حتى في النهار لا ترى احداً في اي مكان !

وماذا سيحدث لك حين ستثوب الى رشدك في نهاية الامر بعد اللعب ، في مكان ما داخل الغابة ، وستأخذ بالصراخ منادياً اياي ، والدموع تترقرق من عينيك ، فيما انا لا اسمعك عندئذ .

وكيف اندفعتَ بكل سرعة نحو السيارة الحقيقية عندما خرجتُ بها من الجاراج ، معتزماً الذهاب الى المتجر . وكيف عاجلتَ في الصعود وقدمك لا تصل عتبة مقصورة السيارة ، عندما فتحت لك الباب . وكيف وقفت بعد هذا طوال الطريق على اطراف اصابعك ، متشبثاً بيديك البيضاوين بلوحة اجهزة السيارة ،

لانك كنت ما تزال صغيراً جداً ، بحيث ما كنت ترى الطريق في الامام لدى جلوسك في المقعد . وكيف كنت تهمس بحماس لفظة اخترعتها انت لدى عبورنا شقا مـــا في الاسفلت وتردد صوت مزدوج خفيف ناجم عن ارتطام العجلات :

– زدال – زدال !

وقد فكرت برعب انك حيـــن تسيّر سيارتك فوق جذوع الاشجار او فوق اكمامك ، وتبتعد عني اكثر فاكثر لربما تركب في خيالك سيارة حقيقية وتسمع صوت المحرك والمصابيح تنير الطريق امامك بضوء ساطـــع ، وتضيئ لوحـــة الاجهزة في المقصورة ، وترتجـــف الابر الحمراء فوقها ، وينير بغموض المصباح الدقيق الاخضر – فـــلا يهمك ان العتمة تلف المكان . فيما انا لا ادري باي اتجاه تمضي .

جلست رجاء ان ارى من الاسفل البقعة الشاحبة لوجهك ، ان كنت لم تذهب بعيداً . ثم اشعلتُ عود ثقاب وغطيته براحة يدي عن وجهي وخطوت عدة خطوات باتجاه ما ، ثم اشعلت عوداً آخر ومشيت في اتجاه آخر . . . وبعد الضوء المهتز لعود الثقاب الذي لا يكاد يكفي سوى لخطوتين ، كان الظلام يغدو اكثر قتامة .

واخذت ادعوك :

– اليوشكا ! تعال اليّ فوراً !

وكانت دعواتي رقيقة تارة وجازمة تارة اخرى .

وتعالى لغط الغابة في الاعلى .

– اليوشكا ! لنذهب الى البيـت ! سنشعّل الضوء هناك . وسنشعل الشموع ايضاً . . . – اضفـــت قائلاً بائساً بعد ان تذكرت كيف تحب انت اشعـــــال واطفاء المصابيح الكثيرة في البيت ، وكيفَ تحب الشموع المشتعلة .

واحياناً كنت ترجوني ، محتضناً ركبتي ، ورافعاً راســـك وناظراً الى وجهي بحبور :

– بابا ، احملني رجاء الى زر الاشعال !

وكنت احملك عـــــلى ساعدي ، فتضغط باصبعك على زر الاشعال ، وتطقطق ، وعلى الفور تلتفت متطلعاً الى المصباح ، وتنشد بجذل :

«المصباح ينير !»

لكن لم تفعل فعلها لا الازرار ولا الشموع ، فلم ترد عـــلى هتافاتي .

عندئذ جالت في خاطري بسعادة آخر وسيلة ، فصحت بصوت نشاز عال وبحيوية :

– هيا تعال بسرعة ! لدي في جيبـــي سيارة لا مثيل لها ! تعال بسرعة !

وعلى الفور سمعت حفيف الاوراق تحت وقع خطواتـــــك المسرعة ، وهرعت انت نحوي . ان بصرك كان حاداً !

وقلتَ بعجلة وبلهجة تنم عن السعادة :

– تريد سيارة كهذه ؟

وامسكتَ باحدى يدي ثم بالاخرى .

وصرختُ مجيباً بألم وحتى بغضب :

– لن تحصل على اية سيارات !

والآن فقط احسست كم سرى الرعب في جسدي ، وكيـــف اشتد خفقان قلبي .

انت صبي لئيم ! كيف تجرأت على عدم الرد ، حين كـــان يدعوك بابا !

لكنك لم تكن تصدق بعد بانك ضحية الخداع ، وبانك لـــن تحصل على سيارة جديدة ، فمددت يدك في جيبي . . .

لقد صعقت انت للخداع ، ووجب عليّ طويلاً ، وبالجلوس القرفصاء ، تهدئتك واحتضانك وتمسيد ظهرك ، ومسح دموعك براحة يدي .

ان بلية الاطفال عظيمة .

رجعنا الى البيت مستاءين من احدنا الآخر .

– ولن اشعل اي نار في المدفأة من اجلك ، ولن تحصل على اية شموع ، ولا اية ازرار اشتعال ، ولن نذهب سوية للنزهـة بعد هذا ابداً . – كنت اردد هذا عليك في الطريق الى البيت – وعموماً ، لو لم تكن صغيراً لعاقبتك فوراً بالوقوف في الزاويـة على مدى ساعة كاملة ! ولصادرت جميع السيارات ولاخفيتها في حرز حريز .

كنت تعدو صامتاً امامـــي ، دون ان تكون لك رغبة في محادثتي . وعندما جئنا الى البيت فتحت جهاز التلفزيون غاضباً ، بينما كنت تتمشى في غرفة الطعام وتلعب مع نفسك . «انني لا استطيع لحد الآن ان اغفر لنفسي ، بانني عندما غضبت منك شاهدت فترة طويلة برنامجا مملاً ما !» . وكان بمقدورك اللعب لوحدك ساعات باكملهـــا ، دون الالتفات الى اي احد ، لكن في الامسية اضناك اللعب لوحدك .

وما كان لديك رغبة في البقاء وحيداً ، وفـــي بعض الاحيان كنت تقترب مـــن التلفزيون ، كما لو تريد الاختلاط معـــي والاتصال بي ، مبتسماً مسبقاً ابتسامة تعبر عن الاعتراف بالذنب وفي الوقت نفسه متلاعباً ، محاولاً الضغط على زر ما ، وعلى الفور تندهش بعتاب مخاطباً نفسك : اعرف مسبقاً ما ساقوله :

– اليوشا لماذا تفعل هذا ؟

وكنت ابعد يدك بكآبة واقول :

– لا تعيقني عن المشاهدة .

فتطلق تنهدة وتبتعد وتسيّر سيارتـــك فوق المنضدة ، وتهمس مقلداً عجلاتها الاماميتين والخلفيتين حين تعبر عقبة ما : زدال – زدال !

واحيانا كنت ارمقك ساهماً ، للتأكد من انك لا تفعـــل شيئاً لا يجوز لك فعله – اذ ان حياتك تتالف من قيود لا نهاية لها : لا يجوز سحب الغطاء من المائدة ، وتناول علبة الكبريت ، والرسم في الكتب ، واشياء كثيرة لا يمكن حصرها جميعاً !

لكنني حين تفرّست فيك بامعان قابلت نظرتك الخاصة التي تنم عن الانتظار ، ورايت ضناك وحلمك بشيء ما . وانبعث منك صوت – تيار من اللوم والاستفسار ، فاشتد خفقان قلبي .

وقلت :

– هيا ، هيا ، يا عزيزي ، حسناً . تعال اليّ . . .

عندما دنوت مني مطرق العينين وعلى فمك شبه ابتسامة تعبر عن الانتظار بلا جراة ، احتضنتك ، ولأمر ما همست في اذنك ، وفي الوقت نفسه استنشقت رائحة شعرك :

– اتريد ان نلعب معاً ؟

فقلت انت على الفور بصوت رنّان :

– تريد !

– احم . . وماذا سنلعب ؟ اتعرف ؟ اذهب واجلس عنـــد ذلك الجدار ، وسنسيّر السيارة نحو احدنا الآخر . حسناً ؟

وفي لحظة خاطفة تغيّرت سحنتك ، وغمرتـــك فوراً سعادة بالغة ، وكيف انطلقت مبتعداً عني باقصى سرعتك ، وقد انحنيت الى الامام كما لو تطير ، وقبل ان تصل الى الجدار جلســـت القرفصاء واستدرت نصفياً في آن واحـــد ، ووقعت على اربع في انطلاقتك ، ثم جلست وواجهتني ، واخـــذت تدبر نحو الجدار وافرجت ساقيـــك لكي يكون من المريـــح إلتقاط السيارة ، وارتسمت على محياك علائم الابتهاج والانتظار ، وفي الوقت نفسه كنت لا تزال تخشى ان اكون قد غيّرت رايي ؟ – وبحلقت فيّ بعينيك المائلتين الى السواد والواسعتين بتأثير الانفعال !

اما انا فانتظرت ان تدبر امورك وتستقر ، ثم وجهت نحوك السيارة التي تتحرك تلقائياً ، فتدحرجت اليك عبر غرفة الطعام كلها ، بازيز رقيق . فيما انتَ انحنيت حتى الارض ، ساعياً الى النظر الى عجلاتها متلذذاً بدورانها الخفي العجيب ، منتظراً اياها بنهم ، فامسكت بها وضغطت عليها باناملك القصيرة ، وضحكت متطلعاً الي بثقـــة وبمودة ضحكتك المنسابة والمتدحرجـــة باستمرار ، التي لا تصدر سوى عن الاطفال الصغار مثلك ، حين يغدو الضحك رقرقـــة ، والحنجرة ترتعش ليس فقط عنـــد الشهيق بل وعند الزفير ايضاً . . .

ابعدتُ المقعد ، وجلست على الارض ، مما اثار ابتهاجـــك الشديد ، وفرجت ساقيي كمـــا فعلت انت ، وساعتئذ كانت سيارة الاطفاء الحمراء القانية تتدحرج بازيزها الرقيق منك اليّ ، ومني اليك .

ثم استلقيت على الارض امامك ، لكنك بقيت جالساً ولم اعد اطلق السيارة بـــل ادحرجها ببطء ، منفـــذاً اغرب الحركات والانعطافات ، مقلداً صوت المحرك والمنبه ، بينما توترت انت بكيانك كله ، وقد اشراب عنقك ، وتابعت اضال حركة للسيارة وجميع انعطافاتها واستداراتها ، كما لو انك تتحكم بها بارادتك

وحدها ، – لكنك كنت تتلفظ احياناً برقة واعجاب وبصوتك الحاد عندما كانت السيارة تنتقل من لوحة الى اخرى :

زدال – زدال !

وقد انتظرتكَ سعادة اخرى في تلك الامسية ، وكنت تعرف بها !

عندما آن اوان رقادك ، خلعت عنك ملابسك ، ووضعتك في السرير ، وغطيتك باللحاف ، اطفأت النور ، وخرجت . ولم يسمع اي صوت من غرفتك ، لكنني كنت اعرف بانك لست نائماً ، في انتظار آخر متعة لذلك اليوم . كنت اعرف انك حين تغوص برأسك في الوسادة ، وتحبس انفاسك ، وقلبك يخفق ، انما كنت تنتظرني ، وتنتظر تلك اللحظة الرائعة المأمولة حين سآتي اليك حاملاً شمعة .

لا بد من الاشارة الى وجود شمعدان فاخر لدينا ، وقد تلقيته كهدية في المانيا . وكان عبارة عن تمثال رجل طيب من الخزف يقف منتصباً على مسند نحاسي ، ذي بطن منتفخة وجاكتة «كامزول» ، وسروال قصير ، واجربة بيضاء ، وله خدان مكتنزان ، ويوجد كشتبان الشمعة فوق قبعة مثلثة . وقد اشعلت الشمعة في هذا الشمعدان وانتظرت برهة من الزمن ، حتى يشتد لهيبها ، وبعد ذلك اقتربت بخطوات وئيدة كالكوماندور من غرفتك وتوقفت عند الباب .

لا ريب في انك سمعت وقع خطواتي ، وعرفت سبب مجيئي الى باب غرفتك ، ورأيت نور الشمعة في الشق بين الباب واطاره الذي يحملها . لكنك انتظرت بصبر وقد توتر جسدك كله .

في نهاية المطاف طرقت بابك باحتفالية وببطء ثلاث مرات : «توك ! توك ! توك !» – وعلى التو سمعت حفيفاً سريعاً – فقد انتصبت واقفاً كالزنبرك وفتحت الباب (كان سريرك قريباً من الباب) وقلت منشداً : ش . . ش . . مي . . عة !

كنت تتالق وتسطع تحت نور الشمعة ، وعيناك تلمعان ببريق السماء في الربيع ، واذناك تشتعلان احمراراً ، واحاطت برأسك هالة من زغب الشعر الاشقر النافر . وتراءى لى للحظة

خاطفة بانك شفاف ، وان شمعة تنيرك ليس من الامام فقط بل ومن الخلف ايضاً .

وجال في خاطري «بل انت نفسك شمعية» وقلت :

– حسناً ، هيا .

وعاجلت بالقول :

– هذا . . هذا . . – ملامساً المسند باصبعك – شمعدان !

– هكذا . . وبعد ؟

– هذا – البطن . . .

– ايه ، يا صاحبي الارنب ، هيا لا تطفر ، بل قل بالترتيب .

عاجلتَ انت ، ساعياً الى بلوغ الشيء الاساسي بسرعة :

– تعرف . . تعرف . الشمعدان ثم الارجل ثم السروال وبعد ذلك البطن . . ثم الرأس ، والقبعة . . .

وذكّرته :

– مرة اخرى نسيت شيئاً ما .

فقلت انت :

– الخدان . . الانف . . وبعد ذلك القبعة ، وهذا . . هذا . .

وتعثرت في الكلام ولم تعرف ما هو اسم الكشتبان المثبت فوق القبعة المثلثة ، – هذه تركيبة . . .

وفي نهاية الامر وصلنا الى الشيء الاساسي . فقلت بلهجة ممطوطة متلذذاً :

– الش . . ش . . مي . . عة تن . . ي . . ل .

وقلت بمرح :

– هكذا . انتهى الامر . الآن حان وقت النوم . اطفأ الشمعة و . . باي ، باي ، حسناً ؟

نظرت الى لهيب الشمعة عدة لحظات اخرى بعينيك الواسعتين البراقتين ومض على وجهك ظل غامض ما ، كما لو انك اردت ايقاف اللحظة الزمنية . ثم تالق وجهك مرة اخرى ، وتنهدت

بيسر ، ونفخت الشمعة . وقفزت بابتهاج فوق ساقيك ورأسك الى الوسادة .

غطيتك باللحاف ومسدت خصلات شعرك الكثيف ، وخرجت واخذت اذرع غرفة الطعام جيئة وذهاباً .

كنت افكر فيك ، وفجأة استعدت في ذاكرتي اواخر ايام الخريف في الشمال وتجوالي وحيداً ، وحدث مرة ان عدت من الصيد في المساء ، وكان الظلام دامساً مثل هذا اليوم ، زد على ذلك ان المطر كان يتساقط رذاذاً ، وضللت الطريق . وكنت قد مشيت في يوم واحد ما لا يقل عن اربعين كيلومتراً ، وبدا لي ان البندقية وحقيبة الظهر ثقيلتين لدرجة انني كنت مستعداً لالقائهما جانباً .

وكنت قد فقدت كل أمل في الوصول الى مكان مأهول ، لكن ليس هذا ما كان يعذبني — بالرغم من ان الغابات الكثيفة كانت تمتد حولي الى مئات الكيلومترات ! بل ما كان يعذبني هو ان كل شيء قد تبلل ، والارض تقرقر تحت اقدامي ، ولم تكن هناك اية فرصة لاضرام النار ، ونيل قسط من الراحة وتجفيف ملابسي .

ثم لاح ولمع من بعيد نور اصفر ، مثل نجمة خابية في الفضاء . وتوجهت نحوه . ولم اكن اعرف بعد ما هذا — هل هي نار صيادين ، ام نافذة في كوخ حارس الغابة ، فيما مضيت باصرار نحو ذلك النور ، الذي كان يتوارى احياناً وراء جذوع الاشجار ثم يلوح من جديد ، وعلى الفور ينشرح صدري : وتصورت رجالاً ما والاحاديث والدفء والضوء والحياة . . .

وبعد ان تذكرت ذلك الحادث البعيد وفكرت فيك احسست على حين غرة : ما اكبر فرحي وجذلي ، وزالت كآبتي الاخيرة تماماً ، ومرة اخرى اردت ان أحيا .

غاغرا ، ديسمبر ١٩٧٢

محتويات

سيرة حياتي ٣
محطة صغيرة ٦
عابر سبيل ١٤
تيدي ٣٥
ازرق واخضر ٧٢
كلب الصيد اركتوروس ١٠٧
شيخان ١٣١
مانكا ١٥٥
رنين الساعة ١٧٤
الخريف في غابات البلوط ١٨٨
آدم وحواء ٢١١
الثلج في ديسمبر ٢٤٤
شمعة ٢٥٧